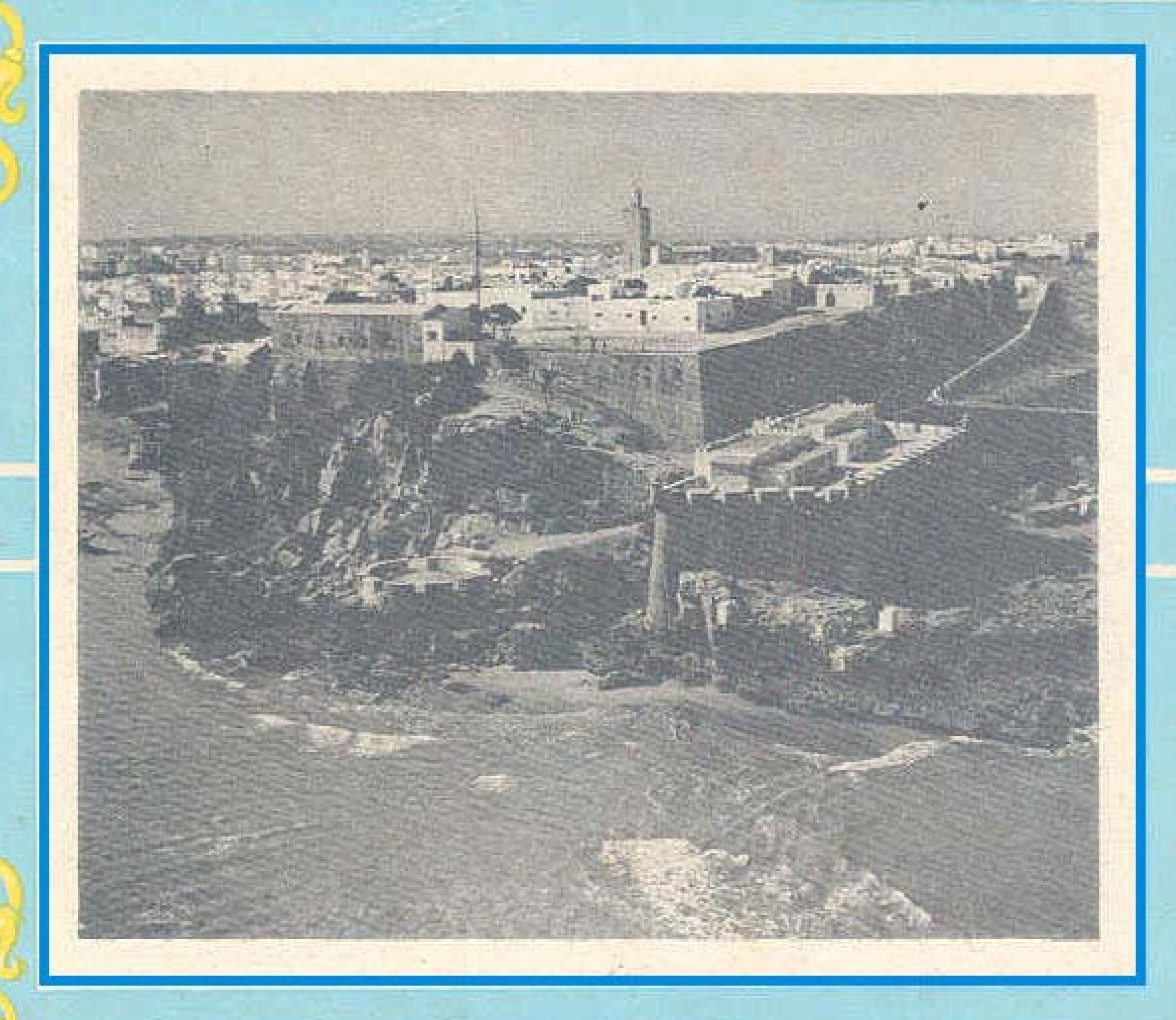


مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط المغرب الاقصى



العدد الثامن. التاسع. السنة السابعة
ماي - يونيه 1964 محرم - صفر 1384
ثمن العدد 1.50 درهم

مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

دعوة الحق

العدد الثامن - التاسع
السنة السابعة
ماي - يونيه 1964
محرم - صفر 1384
ثمن العدد 1,50 درهم

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



من مناظر مدينة الرباط
(القصبة الاودايـة)

(مجموعة وزارة الانباء والسياحة)

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث راسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

« **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط

الملكية في الإسلام

للأستاذ: عبد الله كنون

* نظم الاسلام مطالب الحياة الانسانية بأجمعها ولم ينس المطلب الاساسي الذي يقوم عليه بناء الهيأة الاجتماعية وهو الاقتصاد ؛ فأولاه ما هو جدير به من العناية . واذا كانت النظرية الاقتصادية الاولى هي البحث عن المال وطريقة تحصيله ، فان الاسلام قد اهتم بهذه المسألة كل الاهتمام ولم يسوغ للمسلم ان يعيش كلا على الناس ، فحرم عليه السؤال وبين له الطريق الطبيعي للتمول والاثراء وهو العمل والسعي بجد واجتهاد ، وحضه على ذلك ورغبه فيه بالثواب الاخروي الذي تتشوف اليه النفوس المؤمنة. فمما روي عن النبي (ص) في هذا الصدد قوله لان يأخذ احدكم حبله فيحتطب فيبيع فيأكل خير له من ان يسأل الناس اعطوه او منعوه . وكان عمر بن الخطاب (ض) يقول لا يقعد احدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني وقد علم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

وعمد الاسلام الى ابواب الاقتصاد المعروفة فصنفها تصنيفا لا يقل عن احسن الاراء المدنية في كل باب ، فوضع للتجارة احكاما وللصناعة والفلاحة قوانين ، ولكل باب من وجوه الكسب حتى التعدين واستغلال المناجم ضابطا يخصه وقضية ذلك اولا : الاذن في الاخذ باسباب المنافع كلها ومباشرة جميع الاعمال التي تعود على الامة بالخير الكثير والربح

---

*) مجمع البحوث الاسلامية هو الهيأة العليا للبحوث الاسلامية ، اذ تقوم بالدراسة في كل ما يتصل بهذه البحوث ، وتعمل على تجديد الثقافة الاسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وآثار التعصب السياسي والمذهبي ، وتجليتها في جوهرها الخالص ، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفي كل بيئة وبيان الرأي فيما يجد من مشكلات مذهبية او اجتماعية تتعلق بالعقيدة وحمل تبعة الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وينص قانون الازهر على ان يختص المجمع بتتبع ما ينشر عن الاسلام والتراث الاسلامي من بحوث الاجانب ودراساتهم للانتفاع بما فيها من رأي صحيح او مواجهتها بالتصحيح والرد .

ويتألف المجمع مبدئيا من 30 عضوا من الجمهورية العربية المتحدة ، و 20 من باقي الاقطار الاسلامية من العلماء الذين بلغوا مرتبة الراي والامامة ، وان كان هذا الامر لم ينفذ بعد ، اذ لم يبلغ اعضاء المجمع الآن اكثر من 25 منهم ثمانية غير مصريين ، اربعة منهم من اقطار المغرب العربي واثنان من لبنان وواحد من السودان وواحد من فلسطين .

وقرر المجمع ان يقوم مجلسه الآن ببحث موضوع الزكاة والموارد المالية وطرق الاستثمار بحثا شاملا لاصولها وطرق تطبيقها ، كما ينظر في المقترحات الاخرى التي ابديت او وصلت من الاقطار الاسلامية ليضعها موضع الدرس وسيكون هذا من مشمولات جدول اعمال المؤتمر في دورته المقبلة . وفي هذا الاطار قدم الاستاذ عبد الله كنون عضو المجمع بحثه القيم عن الملكية الفردية في الاسلام الذي اثبتناه على صفحات هذه المجلة ، فشكرا للاستاذ عبد الله كنون على اهتمامه وعنايته بالمجلة وقرائها .

الصميم . ثانيا : تنظيم طرق المعاملات وضبطها بزمام الصالح العام حتى لا تطغى الاثرة ولا تظهر الروح الاستغلالية فيؤدي ذلك الى ما لا تحمد عقباه من سيطرة الراسمالية او تحكم الشيوعية ، ولهذا كان مدار احكام الشريعة على حديث لا ضرر ولا ضرار .

ثم ان الاسلام لتشجيع العمل وتأمين جهود العاملين ضمن ملكية الافراد والجماعات فلم يطلق يد احد فى مال احد اذا صحت ملكيته له شرعا ، ما ادى حق الله منه — وحق الله فى المال هو الزكاة التي للدولة ان تجبيها وتصرفها فى مصارفها المعلومة . وما عدا ذلك من الضرائب والجبايات فهو ضرورة تقدر بقدرها ، ولا يجوز تجاوزها بحال الى اصل المال . لقوله (ص) امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله . وقوله كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه . وقوله فى حجة الوداع ان دماءكم واموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، الا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

ولم يحدث فى تاريخ الاسلام ان اخذ مال غني بغير رضاه واعطى لفقير مهما اشتدت الحاجة وبلغت الفاقة ، وانما كان النبي (ص) يحض المسلمين على البذل ويرغبهم فى العطاء من غير امر ولا عزيمة ، فجاء ابو بكر مرة بماله كله ، وجاء عمر بنصف ماله ، وجهز عثمان جيش العسرة بجميع ما يلزمه فقال النبي (ص) ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم .

واذا كانت النفوس بعد ذلك العهد النير لم تعد تسمح بمثل هذا البذل ، ولا تعطي بمجرد الطلب ، والشؤون الاجتماعية للمسلمين اليوم ، على ما نعرف جميعا من وضع فاسد وحالة مزرية وهي شديدة الافتقار الى علاج جذري يتطلب الكثير من النفقات ، فان الاصول لا تأبى ان يفرض على الاغنياء ما كانوا يؤدونه عن طيب خاطر ، بشرط ان يكون اجراء استثنائيا مرهونا بوقت الحاجة لا تشريعا دائما وقانونا لازما ، وبشرط ان لا يهدم راس المال من اصله ويحجر على الناس فيما وسع الله عليهم من بسطة اليد وحرية التملك .

وهنا تخطر فى بالنا مسالة تحديد الملكية وموقف الشرع الاسلامي منها ، وهي فى الواقع فرع من موضوعنا الاصلي ، فكل ما ورد فيه ينطبق عليها لان التحديد اما ان يكون بعد التملك فمد اليد فيما زاد على القدر المحدد غصب يحرمه الاسلام وينهى عنه اشد النهي ، واما ان يكون قبله وهو تحجير ما انزل الله به من سلطان وقد انكر القرآن ما هو اخف منه على المشركين فى قوله تعالى « وقالوا هذه انعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا ، وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم » .

ولما هم عمر بن الخطاب بتحديد الصداق ، وعزم على ان يجعله اثنتي عشرة اوقية قامت امراة اليه وهو يخطب فى الموضوع فقالت له ليس ذلك لك ولا لغيرك وقد قال الله تعالى « وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا اتأخذونه بهتانا واثما مبينا » فقال امراة اصابت ورجل اخطا ، كل الناس افقه منك يا عمر ، وكف عن ذلك مع ان فيه مصلحة اجتماعية .

ان سياسة الاسلام فى الاموال مبنية على اصل اصيل من حرية المعاملة ورفع الحرج عن الناس فيما لم يضر بمصلحة احد ، ولم يعتبر الاسلام اصل التملك مطلقا مما يضر بالمصالح العامة او الخاصة ، ولكنه نظر فى وجه الملك وحرص على ان يكون سليما ، ومن ثم نهى عن الاحتكار ، وحرم الربا ، واذن للوالي ان يضرب على يد المحتكر ويهدر كل مال جمع من الربا ، وهو مدخل شرعي لتأميم الشركات الاحتكارية والمصارف المتعاملة بالربا ، ولكن اذا استغل ذلك للمصلحة العامة وطهر من رجس الربا .

فاذا ابتعد المرا عن المعاملات المحذر منها ، فان له ان يمتلك ما شاء ، وان ينمي ثروته بالوسائل المشروعة من غير حرج عليه ولا تضييق ، والشرع ضامن له حرية العمل والتصرف المطلق فى نتاج عمله ، بل هو يأمره ان يسعى ويجتهد وينتشر فى الارض ابتغاء لفضل الله وحرصا على المزيد من خيراته ولا يطالبه بشيء على سبيل الالزام الا بهذه الزكاة التي جعلها حقا معلوما للفقراء فى اموال الاغنياء وما اشرنا اليه من واجبات اخرى تعينها الحاجة وتفرضها الضرورة التي لها احكام تخصها .

والزكاة تشريع غريب وعجيب فى الاسلام ، جعله الله درءا لفتنة الفقر وردءا للمجتمع الاسلامي الذي ينبغي ان يكون مبنيا على اسس متينة من التضامن والتكافل حتى لا تعصف به الاهواء والمطامع ، فهو قد تجاوز ما جاءت به الاديان والفلسفات القديمة من الحث على المواساة والاحسان ، الى فرض ضريبة معينة على المال بجميع انواعه ، تؤخذ قسرا من المتمولين وتصرف فى وجوه معينة من الضمان الاجتماعي ليس الفقراء والمساكين الا بعضا منها ، رجوعا بالامر الى اصل دعوته من وجوب العمل والسعي وعدم جواز ان يعيش المرء كلا على غيره . ومن هذه الوجوه العمل على ان تعم الحرية جميع افراد البشر ، وان تنشر الهداية الاسلامية بين عموم الناس، فلو ان المسلمين انتفعوا بهذا التشريع لاغناهم عن الاستعطاء من غيرهم ، ولبقي مجتمعهم سليما ذا كيان مستقل ، وسمة خاصة يتميز بها من بين سائر الشعوب والامم .

ولما كانت الزكاة بهذه المثابة ، فان الخليفة الاول لم يتردد حين امتنع العرب من ادائها بعد وفاته (ص) فى ان يقاتلهم عليها . وقال له عمر اتقاتلهم على الشاة والبعير ؟ فقال : والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله (ص) ، وفى رواية عقالا لقاتلتهم عليه.

ان الامر فوق كونه يتعلق بتعطيل شعيرة من شعائر الاسلام ، كان فيه حرمان للفقراء والمساكين مما فرض الله لهم فى اموال الاغنياء ، ولذلك وقف ابو بكر الصديق (ض) ذلك الموقف الصارم من مانعي الزكاة واعلنها حربا شعواء ، على الراسمالية المتعنتة التي لم يتسع صدرها لاحتضان من حرمتهم الاقدار من دفء الحياة ، ولم تبسط يدها بالقليل من المال لسد حاجة المعوزين .

ويقابل هذا الموقف الذي وقفه الخليفة الاول بجانب الفقراء ، موقف آخر للخليفة الثالث هو اهم منه بالنسبة لموضوعنا ، وذلك لما قام ابو ذر الغفاري يدعو الى مشابعة الاموال ويتهدد الاغنياء ، ويتوعدهم قائلا بشر الكانزين بنار يحمى عليها ما كنزوا فتكوى به جباههم وجنوبهم وظهورهم . وكان يمشي فى شوارع دمشق والجماهير الشعبية الفقيرة ملتفة من حوله لسماع كلامه ، فخاف معاوية وهو والي الشام من دعوته هذه ان تنقلب الى تجربة عملية يقوم بها الموالي ومسلمة الامصار الذين لم يتمكن الايمان من قلوبهم ، فشكاه الى عثمان (ض) فدعاه عثمان الى المدينة ولما تبين له خطر الدعوة التي يقوم بها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الاسلام نفاه الى قرية من اعمال المدينة يقال لها الربذة بعد ان اعذر له مرارا .

وهذا الموقف الحازم من الخليفة الثالث لم يكن لينفذ احكام الشريعة المطهرة فى الاموال والروابط الاجتماعية التي تكون الوحدة الاسلامية غيره . ومن ثم فانه لم يلق اية معارضة من الصحابة رضوان الله عليهم بل ان كثيرا منهم كان يستنكر مذهب ابي ذر هذا ، ويروي عن ابن عمر (ض) فى هذا الصدد قوله : كل مال اديت زكاته فليس بكنز ولو كان تحت سبع ارضين .

ان منشا الغلط عنده انه كان يحمل ماورد فى الكتاب والسنة من الحض على الانفاق فى سبيل الله ومواساة الضعفاء والتنفير من البخل والامساك محمل العزيمة ، فى حين ان غيره من الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون وبقية العشرة المبشرين بالجنة ، لم يكونوا يرون فى ذلك الا ترغيبا فى مكارم الاخلاق . ولذلك كان فيهم المتمولون جدا كالزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ، وكانوا عند الدعوة الى البذل والعطاء يتسابقون الى ارضاء الله ورسوله كما قدمنا عن ابي بكر وعمر وعن عثمان نفسه الذي وقف هنا بجنب الاغنياء يحميهم من عدوان الفقراء .

وهذا موقف الاسلام الصحيح الذي يعطي لكل ذي حق حقه ، ولا يقر افراطا ولا تفريطا فى جانب من الجوانب .

ونرى بعض الكتاب يتعلق بمذهب ابي ذر ويجعله هو حكم الاسلام فى هذه المسالة ، غاضا الطرف عن عدم متابعة احد من الصحابة له ، وربما تورط فى الحمل على عثمان (ض) واتهمه بظلم ابي ذر لكونه كان راسماليا يميل الى الاغنياء ونحن نورد هنا حديثا صحيحا مما رواه ابو ذر نفسه عن النبي (ص) وهو يبين ان هذه النزعة قديمة عنده وان النبي (ص) زجره عنها قبل ان يؤول الامر الى عثمان ويعامله بما عامله به ولكنه لم ينزجر .

فقد اخرج مسلم فى صحيحه عن ابي ذر (ض) ان ناسا من الصحابة قالوا للنبي (ص) ذهب اهل

الدثور اي الاموال بالاجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول اموالهم . قال او ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ ان بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وامر بمعروف صدقة ، ونهي عن منكر، صدقة ، وفي بضع احدكم صدقة ، قالوا يا رسول الله اياتي احدنا شهوته ويكون له فيها اجر ؟ فقال ارايتم لو وضعها في حرام اكان عليه وزر ؟ قالوا نعم ، قال كذلك اذا وضعها في الحلال كان له اجر . زاد في رواية اخرى فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله (ص) فقالوا سمع اخواننا من اهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله (ص) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فهذا سيدنا رسول الله (ص) يرد على ابي ذر برواية ابي ذر نفسه ، ويفهمه ان الامر على ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) فاذا كان الدين دين الله والرسول المبلغ عنه محمد بن عبد الله فهو هذا ؛ وان كان دين ابي ذر فلا نزاع حينئذ مع هذا الكاتب او ذاك ممن يتحاملون على عثمان ويناصرون صاحبنا ابا ذر .

على ان ما فعله عثمان وان تايد باقرار كبار الصحابة له ، يتايد ايضا بقول الرسول عليه السلام فيما رواه العرباض بن سارية من حديث شهير : انه من يعيش بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور ؛ فان كل محدثة بدعة .

ويتعلق الذين يميلون الى مشايعة الاموال وعدم احترام الملكية الشخصية ، بقوله تعالى « كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم » يردون الضمير الى المال وهي لم ترد في المال المطلق ، وانما وردت في الفيء خاصة وهو هنا مال بني النضير الذي افاءه الله على رسوله من غير حرب ولا قتال فحكمه انه يكون لنظر رئيس الدولة يضعه حيث شاء من مصالح المسلمين بخلاف الغنيمة التي تؤخذ بالقتال فانها تقسم بين المقاتلة . .
وهذا ما تبينه الآية الكريمة باوضح عبارة حين تقول (ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين ، وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شيء قدير . ما افا ءالله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين .. الآية) فوضعه رسول الله (ص) في فقراء المهاجرين وبعض فقراء الانصار وسلك به مسلك الخمس الذي يؤخذ من الغنيمة قبل قسمها .

وهذا هو مال الدولة الذي يحق ان ينال منه الجميع ، كل على حسب مقامه ، مضافا اليه مال الزكاة الذي يختص به الفقراء ومن ذكر معهم دون سواهم وفيه مع ذلك سهم يصرف في سبيل الله ، ومضافا اليه الجزية والخراج وسائر الجبايات ، ومال الدولة لا حاجة بنا الى القول انه يصرف في مصالح المسلمين وتخص به الدولة من شاءت من الضعفاء والمحتاجين ، وتنتزعه ممن هو في يده وترده على بيت المال . ومنه الارضون المفتوحة والتي كثرت عن ان تقسم بين الفاتحين كارض السواد التي ابقاها عمر بيد اهلها وضرب عليهم الجزية والخراج . فانها وان كانت غنيمة حكمها ولا شك القسم ، ولكن الصحابة اختلفوا فيها لما راوا من كثرة غلتها وسعة مساحتها فاستقر رايهم اخيرا على عدم قسمها وجعلها مادة لعموم المسلمين . وروى ابو عبيد في كتاب الاموال بسنده الى عمر بن الخطاب انه اراد ان يقسم السواد بين المسلمين فامر ان يحصوا ، فوجد الرجل يصيب ثلاثة من الفلاحين فشاور في ذلك ، فقال له علي بن ابي طالب دعهم يكونوا مادة للمسلمين فتركهم .

وروى ايضا ان عمر كتب الى سعد بن ابي وقاص يوم افتتح العراق : اما بعد فقد بلغني كتابك ان الناس سالوا ان تقسم بينهم غنائمهم وما افاء الله عليهم ، فانظر ما اجلبوا به عليك في العسكر من كراع او مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والانهار لعمالها فيكون ذلك في اعطيات المسلمين فانا لو قسمناها بين من حضر لم يكن لمن بعده شيء .

والمهم في هذا هو التوافق على ان الفيء والغنيمة شيء آخر ، والذي قال فيه الله تعالى « كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم ، هو الفيء » . نعم لما كثرت الفتوحات وفاض المال رئى ان يكتفي بقسم الاموال

المتنوعة بين المجاهدين وتبقى الاموال الثابتة من الاراضي وشبهها ملكا للدولة بيد المستغلين لها تستخلص عليها الجباية وتجعلها في بيت مال المسلمين.

وهذا حكم ياخذ به جميع الائمة ومنهم الامام مالك الذي يقول اصحابه انما فعل عمر ذلك بعد استطابة نفوس الناقمين ، والواقع ان شيئا من ذلك قد ثبت عن عمر فيما رواه ابو عبيد ايضا قال : كانت بجيلة ربع الناس يوم القادسية فجعل لهم عمر ربع السواد فاخذوه سنتين او ثلاثا فوفد عمار بن ياسر الى عمر ومعه جرير بن عبد الله فقال عمر لجرير : لولا اني قاسم مسؤول لكنتم على ما جعل لكم ، وارى الناس قد كثروا ، فارى ان ترده عليهم ففعل جرير ذلك فأجازه عمر بثمانين دينارا .

وايا ما كان فان هذه ليست ارضا مملوكة لاربابها بالحجج الشرعية ، وموروثة ابا عن جد ، فمراجعة الدولة لملكيتها او ابقاؤها من اول وهلة في يدها رعيا لمصلحة المسلمين هو مما لا ينبغي النزاع فيه . ومثلها ما عرف اصله وانه كان للدولة واغتصبه ذوو النفوذ والجاه فرده الى الدولة مما يجب شرعا والتصرف فيه بحسب مصلحة المسلمين لا يعارضه احد .

والمقصود وضع الامور في نصابها وعدم الخروج عما بينه الشرع ، واجتناب الاهواء المختلفة ، فان الخير كله في الاتباع ، والشر اجمعه في الابتداع .

ايها الاخوان :

خاطبنا الله عز وجل بقوله في كتابه الحكيم : « وكذلك جعلناكم امة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » فرشحنا بذلك للرقابة الخلقية على الضمير العالمي ، والقوامة الروحية على التراث الانساني لتبقى القيم والمثل بمنجاة من التزييف والابتذال ، ولئلا يعرض لرسالة السماء ما يعطل حكمها من النسخ والتحريف فعلينا ان نحتفظ بمركزنا في قيادة البشرية حتى نبلغ بها الى مستوى الرشد العقلي الذي لا تطغى فيه المادة على الروح ولا يستبد الهوى بالفكر . وبهذا نكون كما قال الله تعالى : « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله » .

للاستاذ عبد الله كنون



كلمة حول الدّعوة والإرشاد

للأستاذ : عبد السلام الهراس

ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن .
(قرآن كريم)

سبق ان كتبت على صفحات هذه المجلة الغراء مقالا تناولت فيه طبيعة الحركة وفلسفتها محللا اياها الى ثلاثة انواع :

حية ، وميتة ، ومشلولة ، ومن طبيعة الحركة المشلولة انها لا تملك القدرة على ان تبحث عن اسباب الفشل لانها اصطلحت معه من اول وهلة ، وتستمر في خداع تضليل نفسها بانها تسعى الى هدف ، ويسلمها عنادها الارعن الى هوة الهزيمة المردية ، ولهذا فخطورة هذا النوع من الحركة ان لها وجودا وحيزا ، ولكنها لا تنطوي على حاسة معرفة الاخطاء التي ترتكبها ، ومدى علاقتها هي نفسها بالوسائل المستخدمة للوصول الى الغاية ، والتحقق من سلامة تلك الغاية وتمحيص امكانيات نجاحها .

ومن سمات هذه الحركة ايضا انها تسرع الى (قول) الغاية دون ان تفكر في الوسائل الطبيعية المؤدية اليها ، ولهذا تظل دائرة في الفراغ الواسع ، وتصبح الغاية منعزلة عن كل نشاط ، ومجردة عن الواقع ، تعيش في عالم الخيال .

وهذه الحركة تسود الشعوب التي لا تعرف طريقها ، فتكثر فيها الحركة المشلولة ، وتمر السنون دون الحصول على نتائج ايجابية ، مع تبذير في الاموال، والمجهودات وانهاك للقوى ، مما يؤدي الى اشاعة اليأس والملل اللذين ينشأ عنهما الانطواء والاستهتار والتمرد .

والوعظ والارشاد ، كما يدل اللفظ على معناه ، رسالة خطيرة تضطلع بمهمة تثقيفية في مختلف المجالات الاجتماعية ، وتقصد الى تقويم الاخلاق والاجواء النفسية والروحية واصلاح العادات والتقاليد وتوثيق عرى العلاقات الفردية والاجتماعية وتوجيه الطاقات المؤمنة نحو الانتاج والتقدم ومناقشة الافكار الطارئة على الفكرة الاسلامية ، ومحاربة كل ما يمس العقيدة والسلوك الاسلامي .

وتملك حركة الوعظ والارشاد وسائل مهمة لاداء رسالتها واهمها المسجد والاذاعة ، كما ان لها ظروفا مساعدة كالاستعدادات الروحية للاستماع والعمل ، وان الكلمة في المسجد لتفعل اضعافا مضاعفا مما تفعله في الشارع .

وان من واجبنا في المغرب الجديد تحويل هذه الحركة من (وظيفة) الى رسالة ، ومن طبيعة الرسالة ان تكون لها اهداف سامية محددة ومدروسة ، ويجب ان ترتبط بوسائل فعالة تمليها الدراسة الدقيقة والبحث الجدي .

ان حركة التبشير المسيحي تسير على اساس من العلم والدراسة ، فكل مشكلة يوليها المبشرون عناية فائقة جبارة من الدرس والتمحيص ، ويدرسون المناطق المستهدفة لتبشيرهم دراسة اجتماعية ونفسية وجغرافية وتاريخية واقتصادية وسياسية وثقافية ، وعلى ضوء هذه الدراسة يبتكرون الوسائل

الفعالة فى انجاح دعوتهم وتبليغها الى النفوس ويعقدون المؤتمرات فى نهاية كل مرحلة لدراسة النتائج التي حصلوا عليها ولمعرفة الاخطار واقتراح الحلول ، والمطلع على نشاط المبشرين وما يكتبون ، يدرك مدى قيمة هذه الحركة التي تقاوم الاسلام ، ويعرف الاستعداد الهائل الذي اتخذته للقضاء على ما ابقته عصور الانحطاط من الاسلام فى العالم ، ولقد اتيح لي ان اشاهد بنفسي النشاط التبشيري فى البلاد العربية: انه مزعج وجبار ويبعث الصديق والعدو على الاعجاب والتقدير لتلك المجهودات : فالجامعة الامريكية ببيروت قد ادت رسالة « جليلة » لفائدة التبشير والاستعمار – وما زالت تؤدي هذه الرسالة – زيادة على ما قامت به الجامعة اليسوعية والمدارس التبشيرية الاخرى ، والاب زويمر ولامانس وطومسون وغيرهم مشهورون فى هذا الميدان ، كما ان الحركة الاستشراقية ساهمت بنصيب وافر فى تدعيم الحركة التبشيرية ومدها بالقوة والحيوية .

وقد يدفع الغرور بعضنا الى القول بان التبشير قد فشل ، ولكن نظرة سريعة على الدول الافريقية وعلى مكانة المسيحيين السود فيها كافية للاقناع بان الفاشلين هم نحن ، وان المعلومات التي نلتقطها من حين لآخر من الذين يزورون افريقيا السوداء لتبعثنا على الانزعاج والحسرة ، وان ما نشاهده من اضطرابات اجتماعية وسياسية وفكرية فى البلاد العربية والاسلامية ليست سوى نتيجة للمجهودات الجبارة التي يقوم بها المبشرون منذ نصف قرن او ازيد فى تلك البلاد .

فهل رجال الوعظ والارشاد عند ما ادركوا فداحة المسؤولية الملقاة على عاتقهم فى هذا العالم الجديد ، اعدوا العدة لمواجهة الظواهر الجديدة التي تهدد تراثنا الروحي والديني ، وقد افلحت بالفعل واوجدت لنا نخبة مؤمنة برسالة الحضارة الغربية التي (ستطهر) مجتمعنا من رواسبه القديمة التي تختلف عن (الدين) . . .

ان نظرة عامة الى حالة الوعظ والارشاد عندنا تخبرنا بالخبر اليقين باننا نسعى الى غير غاية ونتحرك لغير فائدة ونستهدف السراب ، ولنأخذ على ذلك مثالا من المسجد :

كنا ايام الاستعمار نشكو من الخطباء والخطبة ، وكان يقال لنا ان الاستعمار هو المسؤول ، انه يخاف من ذوي الالسن الفصيحة ومن الخطب الرائعة ، ولذلك فانه يفرض على المصلين من يشجعهم على النوم ، ويغمض عليهم المعنى ، ويبتعد بهم عن الاهتمام بمشاكلهم الحيوية ، وكنا نصدق ذلك ... **واليوم لا** نريد ان يكون الخطباء صورة للمنظر القديم وخطبا كالجثث لا روح فيها .. لانها لم تكتب او تلق استجابة لحاجة ماسة ، انها تكتب او تنقل لتلقى فقط قياما بوظيفة (الامام) التقليدية دون دراسة للوسط الذي ستلقى فيه الخطبة والظروف المحيطة به ، والاحداث التي يهتم بها المجتمع ، والمشاكل الجديدة التي تشغل فكر الشباب واهتمامهم مما ينتج عنه عدم تجديد فى الوسائل والاطار الذي يمكن ان يساعده على التأثير ، وهكذا يبتعد بالخطبة عن اهتمام المصلحين لانها بعيدة عن مشاكلهم الحيوية ، وقد لا يملك البعض منها الا كلمات يظهر فيها التكلف المحجوج والصنعة الحريرية ، تقرا بلهجة هي ابعد عن قواعد الخطابة وابرا مما تتطلبه خطبة تستهدف اصلاح المجتمع .

ان تحسين اسلوب الدعوة والارشاد يجب ان يقترن بتشجيع الشباب والنساء على غشيان المساجد فى اوقات الجمعة على الاقل ، والقيام باحصاء لمدى اقبالهم وتجاوبهم مع الخطبة ، وان مسؤولية الوعظ والارشاد خطيرة جدا ، وخصوصا فى هذا العصر الذي تسوده افكار تحمل قيما خاصة ونظرات فلسفية للحياة ، وهي تمتاز بخصوبتها وقوتها ونفوذها وقدرتها على استهواء الشباب لانها تخاطب نفوسهم الثائرة وتستجيب لكثير من آمالهم وخيالاتهم وقد تزود اصحابها بطرق رائعة واساليب ماكرة لانهم يعتمدون على العلم والفن لا على الصدف والزمن ، ولذلك نرى بعض المذاهب تنتشر فى العالم انتشار النار فى الهشيم وبالاخص فى اوساط الشباب .

ونحن اليوم فى مفترق الطرق : اما ان تكون لنا القدرة على بعث مقومات ديننا فى النفوس ومعالم حضارتنا فى الحياة ونتسلح بكل ما يحقق لنا هذه الغاية ، واما ان نظل كما نحن : كميات سلبية تتجاذبها القوى الغربية عنها دون ان يكون لها ما يفرض وجودها كأمة لها رسالة .

ان العدو الذي يحارب الاسلام يتمثل فى امم ومذاهب وطوائف وادبان ، وهو يتحصن – على تعداده باسلحة فكرية فتاكة ، وله من القدرة والمرونة والتقنية ما يضمن له ان يبلغ شأوا بعيدا فى تزييف عقائدنا وتاريخنا وتلوين نظرتنا لديننا وحضارتنا وشل افكارنا وحيويتنا . ولكن اخطر من العدو الانهيار الداخلي في

القيادة الفكرية والروحية ، ولهذا فان تطهير القيادة من الادعياء والمنتفعين ثم معرفة ما للعدو من قدرة وامكانيات وتحديد مكامن ضعفنا حيث تتسرب منها الافكار الهدامة لكياننا لهي الخطورة الاولى التي يجب ان نرتكز على اساسها ، وننطلق في اضوائها وتحت ارشادهــــا .

ان اي كيان يضطلع بمهمة الدفاع عن الاسلام والترغيب في تعاليمه ، دون ان يكون لديه الحيويـــة والقدرة على تحقيق لتلك الاهداف ، ومع ذلك يستمر في الحركة والعمل الدائب ، يندرج تحت ما نسميـــه بالحركة المشلولة التي تعطي النتائج الهزيلة مع بذل اقصى جهد وتبذير كثير من الامكانيات والطاقات .

ان الدعوة الى الاسلام في القرن العشرين يجب ان تصطبغ بصبغة هذا القرن وتستعمل وسائلــه الفعالة ، ولذلك نود ان يكون للمغرب جهاز للوعظ والارشاد له قيمته في المغرب وافريقيا السوداء ، التي تتغلغل فيها الدعوات التبشيرية المختلفة والتي يبلغ عدد المبشرين فيها بنحو ربع مليون حسب ما اوردته احدى المجلات التبشيرية .

ونرى انه يجب ان يتوفر في هذا الجهاز الشروط الكفيلة بتحقيق الاهداف الاسلامية ، ونحن هنا نقدم بعض الشروط :

1) ان يكون القائمون على شؤون هذا الجهـــاز مؤمنين حق الايمان برسالة الاسلام وعلماء افذاذ في الفكرة الاسلامية ، ولهم اطلاع واسع على الثقافات العالمية والتيارات الفكرية المختلفة .

2) ان يدرس هؤلاء الوسط المغربي دراســـة شاملة لنواحي الحياة المغربية حتى يحددوا المشاكل الاجتماعية والازمات الفكرية والنفسيــة .. وعلى ضوء ذلك يبتدعون العلاج والوسائل .

3) ان يكون المرشد في هذا المجال اختصاصيا له ثقافة وايمان ومقدرة تجعله اهلا للقيام بهذه المهمة.

4) ان يكون لهذا الجهاز مؤتمر على مستوى اقليمي كل ثلاثة اشهر وعلى مستوى عام من كل سنة يناقش فيه النتائج والوسائل والافكار ونقاط الضعف في الحركة ويرسم السياسة العامة للدعوة والارشاد كما يجب ان يكون لديه مفتش دقيق ومخلص على المرشدين والوعاظ .

5) ان يؤسس معهد خاص للوعاظ والدعاة ويختار لهم اساتذة على اساس الكفاءة ، وتكون لهذا المعهد مجلة تبحث في شؤون الدعوة الاسلامية وتبث افكارها بواسطتها وتصدرها باللغات العربية والفرنسية والانجليزية وتوزع في انحاء افريقيا كما يجب ان يكون المعهد مجهزا بكل الوسائل التي تحقق اخراج الداعية الماهر ، المؤمن الصالح والمبشر المقتدر ومن اهــم هذه الوسائل :

أ ـ حيوية المواد الدراسية : كعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة والمذاهب الفكرية ودراسة الاديان والحضارات العالمية ، والخطابة والتصوف . والعادات والتقاليد لمكان الدعوة والجغرافية والتاريخ .

ب ـ اللغات الاجنبية الحية واللغات الافريقية .

ج ـ اساتذة مقتدرون ومؤمنون .

د ـ زيادة على العلوم الاسلاميــة من تفسيـــر وحديث وفقه ... الخ .

هـ ـ احاطة الطالب بجو ديني وتربيته على اساس الشعور بمسؤولية الدعوة ليضمن لنا ذلك ايجاد الداعية المخلص لا الموظف المرتزق .

ويجب علينا ان نشجع اخواننا الافارقة على الانخراط في هذا المعهد وتزويدهم بجميع وسائل الدعوة ليرجعوا الى بلدهم يخدمونه من الداخل .

وبعد ، الم يحن للمغرب ان يسلك سبيل ماضيه المشرق وان يشرع في تأدية رسالته الحضارية في الداخل وفي افريقيا ليثبت له وجودا كاملا لها رسالة حضارية في هذا العالم الذي اصبحت السيادة فيـــه للفكـــرة ؟ .

تطوان : عبد السلام الهراس

تجربة الروح

من ذكريات حاج

للأستاذ الحسن السائح

ان ما يسمى بالايمان ، هو هذا الذي يحرك في نفس الانسان لواعج الشوق والحنين الى التملي باغداق الثمرات الاولى لانطلاق الروح الاسلامية ، وعزيز على الانسان منذ عريق التاريخ ان يسعى الى المواقف الاولية التي رافقت موكب تقدمه فيستوحي منها اسرار انطلاقاته الموفقة ، فذلك ما يمطئن نفسه ويعطيه فرصة حسابها ليدرك مدى اخطائه وصواباته ، ان الايمان وحده هو الذي يفسر مظاهر اسرار الانسانية ويحرك عجلات مواكب الحضارات ، فالتقدم الحضاري ذو مظهرين ، مظهر حضاري واضح يتراءى للانسان ويبدو واضحا في تقدم العمران والفن والعلوم العقلية ، ومظهر روحي مستمر يبدو في السمو الروحي ، والسلوك الانساني ، ولباقة الفكر ، وطرافة الراي ؛ وهو الفراغ الذي ينسق بين القطاعات البشرية والمغناطيس الذي تتجاذب حواليه معطيات الانسانية .... ولن يستنشق الانسان هذا المظهر الا من وراء عصارات الروح المتولدة عن العمل الذي حركه الايمان في النفس البشرية ؛ وقد يستطيع العقل ان يستكنه او يعلل مظاهر التقدم الروحي ، ولكن لا الاستكناه ولا التعليل رهين بامكانيات الفكر وامكانيات الادراك التي تختلف بين العقول وتتفاوت حسب الادراكات المختلفة ، اما الايمان فلا يبحث في التعليل او في الاستكناه ، ولكن يعتمد على الاستجابة الطبيعية التي حفزت الحركة الاولى لتبتدىء واستمرت مع الانسان في مراحل تقدمه، تمده باليقين الدائم ، ليستمر متصلا بالخيط الاول الذي ربط بين الانسان والانسان ، او بين الانسان والمجتمع ، ولهذا فان التوجه الى المواطن الاولى للاسلام هو توجه ليستوحي الانسان من تلك الينابيع المتدفقة المعاني الحقة التي حررت الانسان منذ اربعة عشر قرنا من الوثنية ، والارتباط بالايقونة الى فكر شمولي لايحد بحدود ليظل العقل البشري يلهث وراء تمارين فكرية لمعرفة الكنه فلا يصل الا الى الاستسلام الدائم ، كما تحرر من التعدد والفرقة الى توحيد خلاق يجمع افئدة البشر على اتجاه واحد ليبني العالم بناء كاملا يأوى الانسان اينما حل وارتحل .

ليقتحم الانسان مرحلة الايمان يجب ان يخلص في ايمانه ، وان يبعد عنه القيود التي تربطه بعالم الماديات ؛ او الغشاوات التي تحجبه عن صفاء الروح ؛ ولذلك يجب ان يتجرد من المخيط والمحيط ، ولن يكون لباسه الا ذلك الازار البسيط الذي عرفه الانسان الاول في سفوح الهملايا او على هضاب جزيرة العرب ، وان يتحرر لسانه من ترديد الكلمات او اجترار الالفاظ ، ويجرد عقله من البحث عن مشاكله الشخصية التي تربطه بالانانيات ، وهكذا يدخل الى حرام مكة وقد أصبح متجردا محرما لا يشغله شيء عن ذكر الله ، هذا الذكر القدسي الذي يسمو بانسانيته وروحانيته فيخلص لتعاليم ربه التي هي تعاليم لخدمة الانسان وايثار المصلحة العامة المشتركة بين البشر اجمعين .

وكم يكون من المناسب أن يحرم المغاربة المستعجلون السفر من ديارهم ليكون مظهرهم وهم يتوجهون الى مكة يغري بالتآلف والشعور بالحنين الى مواطن الوحي ؛ ولن يضير الفقهاء ذلك ما دامت النية تقارن عملية الاحرام عند ما يصبح الانسان في منطقة مكة (برابغ) ولكم يشعر المؤمن وهو محرم بحاجته الى طمأنينة روحية ورغبة الى المطالعة في كتب تختلف مستوياتها ليغرق في تأمل اسرار الروح والنفس وعوامل السمو بهما ؛ ومع الاسف فان الكتب المعدة لذلك من الندرة حتى ليكاد المسلم ان لايجد الا فراغا خزانيا ، فلا كتب رحلات في متناول المسافر الحاج ، ولا حصص

ذات التجربة الروحية ولا دراسات ممتعة عن الحج تساعد المسافر الحاج على التزود بالغذاء الفكري والروحي عند ما ينتقل من الاستغراق فى التأمل الى واقع الحياة ، ولكم انتج الكتاب آثارا عن رحلاتهم الى الحجاز ولكنها فى الواقع لا تعدو ان تكون تسجيلا للسفر ومراحل الطريق وعرضا لصور تاريخية ؛ فكتبهم هي الى فن التراجم والجغرافية والتاريخ اقرب منها الى كتب دينية تتعمق أسرار الروح ، وتصور مدى صدق التجربة وتغوص فى عمق المناسك لتزود الفكر بفلسفة شاعرة تساعد العقل على الاقتناع كما تساعد النفس على التأمل الذي لاتكدر صفاءه نزوات العقل العنيد المتشبث بالتعليل والشرح .

ومشهد الاحرام ، يثير المهابة الحقة حيث ترتفع اصوات المؤمنين وتنفرج شفاههم بالتلبية لله وقد تجردوا فى مظهرهم من كل ما اكتسبوه من زخرف الحياة ، وحتى لون الاحرام لم يكن الا الابيض الناصع الذي يرمز الى نكران التفاوت اللوني والرجوع الى الاصالة فى كل شيء ، وكما تجردوا فى اعماقهم مما اكتسبوا من تفاوت المعرفة واصبحوا حفاة عراة مظهرا وعمقا يرجون التوبة عند ربهم ويأملون التخفيف من خطاياهم ليصبحوا فى براءة الاطفال وسمو الملائكة ، وينطلق اللسان معبرا عن البراءة والشوق والتوبة ملبيا حيث تردد الصحراء صدى اشواقهم وتعكس بطاح مكة ابتهالاتهم ، لا يشعرون بفارق بينهم ، أقربهم الى الله اقواهم ايمانا واكثرهم احتسابا ، ناسين غرض الدنيا ومباهجها وما اكتسبوه منها ، همهم الوحيد أن يغفر الله خطيئتهم ويتوب عما اقترفت ايديهم وما غلبتهم عليه ناسوتيتهم ، ويشعر الناس اجمعون انهم لم يصبحوا كتلا من لحم ودم واعصاب وانما اصبحوا قبسا من النور يتوجه الى مركز الاشعاع منجذبا اليه .

لقد عادت هذه الارواح منيبة الى ربها ، معلنة توبتها ، مستغفرة خطاياها ناسية ماضيها غير حافلة بآمالها ، حتى لكأن الزمان قد امحي ولم تعد لتحديداته معنى فى النفوس ، ولكأن القلوب قد صفت والعقول قد اتساقت ، فلا ثورة ولا رعونة ولا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وتروض الانسان على حكم نفسه الثائرة الطموحة النزاعة الى الانانية التي تأمل الجاه وعرض الدنيا ولو على حساب الخلق ، الى نفس مستكينة خاضعة ، تلتمس الخير واليمن لاخوانها فى البشرية ، وتود خدمتهم ابتغاء فضل الله ، وهذا انتصار للروح على سلطان الهوى وقهر للمادة المتسلطة ما بعده من انتصار .. كما ان بداية الانطلاق بالانسانية انما تتحقق بعد نهاية الانانيات .

ان الروح الاسلامية التي حركت عقلية المؤمنين فى عصر النبي وجاشت ثورة عارمة فى أعماقهم ، فجعلت منهم خير أمة أخرجت للناس تامر بالمعروف ؛ لأنه قدر مشترك بين معاني الانسانية والسلام ، وتنهى عن المنكر لأنه منكر يصيب الانسانية بسوء كبير ، ويعصم وحدتها وواجبها عن الكفاح لتحقيق الانسانية والسلام ؛ هي الروح التي نشدتها من الوقوف على المعالم الاولى التي واكبت ثورة الاسلام ، وهي روح ضروري ان يتزودها المسلم اليوم ليظل فى الوحدة الاسلامية عنصر عمل وخير وكفاح ، ولخير الانسانية . واذا كان المسلمون اليوم يعانون وهنا ، وفرقة ، ويعاني كثير من شبابهم فقدانا فى الثقة بعقيدتهم ، فان ذلك لا يرجع الى الاسلام بقدر ما يرجع الى وهن الروح الانسانية ، وضحالة فكر الكتاب المسلمين المعاصرين الذين خمدت جذوة افكارهم ، وتكاسلت قوة فكرهم لتدمغ حجة الخصم ، وترد كيد المتربص الذي لا يهدم الفكر الاسلامي الا ليهدم من ورائه وحدة صف المسلمين ليسهل ابتلاعهم واستعمارهم فكريا وادبيا اذا عسر استعمارهم سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، وبذلك يدخلون من النافذة بعد ان خرجوا من الباب .

ان الروح الاسلامية التي حركت المسلمين الاولين، ضرورية لبناء نهضتنا الجديدة التي لن تكون الا على أساس ثوري اسلامي تحقق للفرد كرامته وعزه وللمجتمع تضامنا واخوة ، وللفكر حرية واجتهادا ، وللعاطفة نبلا وسموا ، وللانسانية سلاما وتضامنا ، تلك الروح التي تستهين بالماديات ولا تحفل بالقوة والتعالي والبطش ، ولا ترضى الاستغلال والركون الى استهانة الضعيف ، وانما تركن الى الثقة بالنفس والثقة بالله والعمل المتواصل لخدمة العقل الانساني .

واذا وهنت هذه الروح اليوم فمن واجب المفكرين المسلمين أن يعيدوا شبابها من جديد ، فلن يقبل الله مثوبة من يستغفر ذنبه ولا يستغفر ذنوب الناس كافة ولا من يحب نفسه ولا يحب الناس كافة ، ولا من يسعى بين الناس الى الاستغلال والظلم والبطش والانانية ، ولا من يقيم الطبقات المتفاوتة بين الناس فى معاشهم او فى الوانهم ..... هكذا بدأت ثورة الاسلام مستمدة قوتها من عالم لا تنفد قوته ولا تهن عزته ، معتمدة على فيض لا ينضب وشوكة لا تنكسر وقوة لا تخذل ، من عالم الحق الذي لا مجال فيه للتزوير والباطل والكذب

والبهتان والسفسطة والظلم ، من عالم الوضوح الذي لا عبث فيه ولا تزوير ، ولا تنسيق ولا دعاية ، ولا اعلام ولا كذب ، يستمد الضعيف منه القوة ، فلا يضعف والعاجز منه الحجة فلا يخذل ، من مات فيه على حق عوضه الله خيرا من دنياه واستبدله من الظلم عدلا ومن الظلام نورا ، ومن الضعف قوة .

ولن يستمد الانسان هذه الروح الا من معين الاسلام الاول حيث كان المسلمون الاولون مستضعفين فقووا وكانوا عاجزين فانتصروا ، ان الحج يذكرنا بالمواقف الاولى للاسلام وهو زيادة على ذلك فهو المؤتمر العظيم الذي لا ينتهي بملتمسات ولا توصيات ولا برقيات ، والذي لا يدافع فيه اعضاؤه عن مصالح جماعة أو عن آراء فئة ، وانما تشد ازرهم عاطفة مقدسة تسيهم المصلحة والذاتية الفردية والجماعية ويعبرون بلغة القلوب وهمسات الروح ، لا يحتاجون الى لغة رسمية للتفاهم والتخاطب ، وانما يحتاجون الى صدق الايمان وورع اليقين وبأس الصدق .

عندما يصل المؤمنون الى جدة تهفو قلوبهم لذكر الله وتتحكم في النفس عوامل جديدة تصل الانسان بين عالمين ، عالمه الذي اعتاده وتمرس عليه ، والعالم الجديد الروحي الذي يتعرف عليه من جديد ، فقد غير ما اعتاده من لباس وما يؤثره الذوق من الوان ، واصبح البياض شعاره الجديد ، والتلبية كلمته المأثورة ، فان لقي اخاه المؤمن القى عليه عبارات السلام ، وسما الى تلبية دعوة ربه ، وكلما تجددت الاحداث تجاوزها في تحدي الى تلبية نداء ربه ، غير حافل بما يغريه او ينسيه عن قصده ، فقد جاء حاجا معتمرا لوجه الله ، ومن احسن من الله قبلة

ولعل مما يثير الاسى أن لا يجد الحاج المؤمن من التسهيلات ما يساعده على اداء حجه وتلبية داعي روحه وليس ادعى الى الالم من هذه البناية المتسخة في (جدة) المسماة بمدينة الحجاج .. فهل كتب على المسلمين أن يكونوا متسخي الملابس متدرني الطرقات ، ودين الاسلام هو الدين الوحيد الذي يوجب النظافة ويعتبرها ركنا (من الايمان) ، وهو الدين الوحيد الذي يأمر المؤمنين بالاغتسال ، وطهارة الجسم خمس مرات في كل يوم ، وهو الدين الوحيد الذي اسس حضارة تدين بالنظافة وتفرض بناء الحمامات في مدنها وقراها ، والذي عند ما حاربته المسيحية في اسبانيا كانت تقفل ابواب (الحمامات) التي هي مظهر الحضارة الاسلامية . هذه الحضارة التي لم تقر بيتا غير نظيف ولا عمارة غير مستوفية للماء في العصر الذي لم تعرف فيه (فرساي) مستحما ولا منظفة . ان (مدينة الحجاج) وصمة في جبين الحضارة الاسلامية كما اقرها الاسلام ، ولست الوم حكومة الحجاز بقدر ما الوم الحجاج أنفسهم الذين يرضون لانفسهم ان يسبحوا في حماة الاوساخ ، ولهذا فان من واجب الدول الاسلامية أن تعتني حكوماتها بوزارة الشؤون الاسلامية ، وأن تزود الحاج بترتيبات اولية توجب عليه احترام النظافة ، وكم يكون من الواجب ان تؤسس الدول الاسلامية فروع جمعية تهتم بالحاج ، وليكن اسمها (اصدقاء الحاج) مثلا أو غير ذلك من الاسماء لتعطي الى (الحجاج) معلومات اولية وترتيبات رئيسية ، أو هي في نفس الوقت تلقن للناس مبادىء الحج ، وتحرص على نظافة الحاج ، وتهيء له وسائل الراحة .

ومن السهل ان تنسق عملها مع اعضاء البعثات المهتمة بالحجيج ، ومع من يسهر على الحجاج من المطوفين والمزورين كما يجب اعادة النظر في نظام المطوف وحقوقه وواجباته وتبعاته ومسؤولياته ، فلا يجوز ان يترك مصير حجاج المسلمين بيد مطوف يعرف واجباته ولا تعرف التزاماته بوضوح ازاء الحجاج ، وان كان من الواضح ان الحكومة الحجازية تعرف ابعاد هذه الالتزامات ، ولعل جمعية اصدقاء الحج ستكون خير معين على تنظيم الحج واعطاء الفرصة للحاج ليتأمل عابدا خاشعا بدل الاشتغال بشؤون العيش ومعاناة مشاكل الحياة اليومية .

ماضي الإسلام

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

اللهم فاشهد وانت خير الشاهدين .

اللهم فاشهد ان المسلمين الاولين قد ادوا الرسالة ، وبلغوا الامانة ، وكتبوا لماضي الاسلام مجدا لن تزول معالمه ، او يفنى صداه ، وان جهله الجاهلون من ابناء الاسلام اليوم ..

اللهم فاشهد وانت خير الشاهدين ان قتيبة بن مسلم الباهلي قد ساح تحت راية الاسلام بجيشه في الارض ، ففتح بخارى وسمرقند والصغد ، وتعمق في بلاد الهند ، حتى وصل مدينة كاشغر ، وهي ادنى مدن الصين ، ولما دخل سمرقند سجد لله شكرا ، وبنى فيها مسجدا عام 714 م 95 هـ ليكون منارة للاسلام ، ثم حطم الاوثان والاصنام المصنوعة فيها والقاها في النار ، وبعث برسالة الى امبراطور الصين بوامغ جونغ 755/712 م يدعوه فيها الى الاسلام ، وذلك عام 96هـ 715 م .

اللهم فاشهد وانت خير الشاهدين ، ان عقبة بن نافع وصل بجيشه الظافر الى المحيط الاطلنطي غربا ، ولم يرده شيء عن نشر راية الاسلام الا البحر ، وان موسى بن نصير اعتزم بعد فتح الاندلس ان يدور حول البحر الابيض حتى يصل الشام ، لولا ان الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك استدعاه الى دمشق ، وان عبد الرحمن الغافقي قد سار بجيش لجب من الاندلس الى وادي اللوار في فرنسا ، وتقدم حتى مدينة تور ، ونازل الفرنسيين وهزمهم ، ولولا الحظ الاقل الذي وقف سدا منيعا امامه ، لجاب اوربا كلها ، ففي المعركة التي دارت حول « بواتييه » و « تور » يوم الجمعة 7 شعبان 114 هـ 2 من اكتوبر 732 م ، هزم جيش الغافقي ، وقتل القائد ، وانسحب من نجا من المعركة من المسلمين الى ما وراء جبال البرانس ، وكانت هذه الهزيمة بخداع شارل مارتل الجرماني الكارولنجي المتعصب ، مقدمة للمعارك التي استمرت في اسبانيا ثمانية قرون ، وانتهت بطرد المسلمين منها ، ومحو جميع معالم الحضارة من مدنها ، وكانت هزيمة الغافقي شهادة ناطقة للاسلام والمسلمين ، وصفحة مجيدة من سجل ماضي الاسلام المشرق ، وفيها يقول المسيو كلود فارير الاستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس : « حدثت فاجعة كانت من اشام الفجائع ، التي مرت بالانسانية في القرون الوسطى ، وكان من نتائجها ان غمرت العالم موجة عاتية ، وطبقة عميقة من التوحش ، مدة ثمانية قرون . ولم تبدا بالتبدد الا على عهد النهضة ، وهذه الفاجعة هي الانتصار البغيض الذي ناله ـ على مقربة من « بواتييه » و « تور » ـ اولئك البرابرة المحاربون من الافرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين بقيادة الغافقي عام 732 م 114 هـ ، ففي ذلك اليوم المشؤوم تقهقرت المدنية الى الوراء ثمانية قرون ، ويكفي المرء ان يطوف في حدائق الاندلس ، او بين آثار مدنها ، في اشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة ، ليشاهد ، والالم الدفين آخذ منه ، ما عساها ان تكون بلادنا الفرنسية ، لو انقذها الاسلام العمراني الفلسفي المتسامح ، لان الاسلام مجموعة كل هذا ، فخلصها من الاهاويل والدمار والخراب الذي وقعت فيه « غاليا » القديمة وسواها ، في حين كان العالم الاسلامي من نهر الوادي الكبير غربا الى نهر السند في قلب آسيا ، يزدهر في ظل الاسلام .

اللهم فاشهد وانت خير الشاهدين ان ابطالا من العرب المسلمين ، قد فتحوا الشام ومصر وشمال افريقيا ، وتخطوا جبل طارق ففتحوا الاندلس ، وغرب

اوربا ، وان ابطالا ميامين من العرب المسلمين دخلوا جزر البحر الابيض المتوسط : كريت وقبرص وصقلية ورودش وسواها ، واذنوا فيها بدعوة الاسلام ، وبنوا المساجد والمدارس والجامعات ، واعزوا العلم ، وهيئوا للانسان كل اسباب النهضة ، وان ابطالا آخرين ، حملوا دعوة الاسلام الى فارس وافغانستان والهند واذنوا بها في الصين ، ودعوا اليها في الملايو وجاوة وجزر الهند الغربية ، وبشروا بها في شرق افريقيا واواسطها وجنوبها وغربها ، وساحوا شمالا حتى وصلوا القوقاز وشرقا حتى بلغوا مقاطعة نيان في جنوب الصين . واحاطت مخافر اسلامية ثلاثة باوربا طليطلة في الاندلس ، وصقلية ، وجنوبي ايطاليا ، وركب البحارة المسلمون السفن الى كل مكان من العالم من مراكز ثلاثة :

الاول : سواحل الشام والاندلس ، ومنها انتقل المسلمون الى المحيط الاطلنطي ، وتوغلوا فيه ، وتنقلوا في غرب افريقية ، وداروا حول جنوبها .

والثاني : حضر موت ، حيث اظهر العرب جلدا وبسالة ، فركبوا البحر الى شرق افريقيا ، وكونوا ممالك اسلامية في مدغشقر ، وجزائر القمر ، وزنجبار ، ودخلوا افريقية فكونوا سلطنة كبيرة ، هي سلطنة رابح ، التي تتحدث عنها دائرة المعارف الفرنسية ، وبلغ الاسلام زمبيزي ، ووصل الى جنوب افريقيا ونيسالاند ، وقد انتشرت فيها المساجد ومدارس تحفيظ القرآن ، واتجه الحضارمة الى جزائر المحيط الهندي : كلديف ومالديف وسرانديب .

والمركز الثالث هو الملايو ، حيث نزلت فيها امم اسلامية احتلت جاوة وسومطرة ، وبورنيو ، وسلبيز والفلبين ، وانتشرت في جزر المحيط الهادي ووصلت الى « بورت وارن » في استراليا .

ان النور الذي انبثق من جزيرة العرب على يدي محمد بن عبد الله قد اضاء العالم كله خلال قرن واحد ، او يزيد على قرن بقليل ، داعيا الى العلم والمثل الرفيعة والشورى ، والاخذ باسباب الحضارة ...
ومع ما نكب المسلمون به من الحروب الصليبية التي تمثلت في زعزعة كيان الاسلام في الشرق ، فقد ابادت البربرية الحضارة الاسلامية ومعالم النهضة التي شادها المسلمون في صقلية وجنوبي ايطاليا في القرن الخامس الهجري ، وجاء تخريب الفاطميين واحراقهم لمدينة الفسطاط عام 564 هـ ، بما فيها من مساجد ومدارس وجامعات ومكتبات وكتب تعد بالملايين ، ثم تخريب التتار لبغداد مركز الحضارة العالمي عام 656هـ ثم سقوط الاندلس عام 897 هـ 1492 م وتدمير المدن الاسلامية فيها ، واجلاء المسلمين العرب عن اراضيها ، واحراق الملايين من الكتب او لقاء مثيلاتها في البحر ، جاء كل ذلك شرا وبيلا على المسلمين في انحاء العالم الاسلامي ، ولكن فتح الاتراك العثمانيين للقسطنطينية عام 856 هـ 1453 م اجج الحماس في صدور الملايين من المسلمين ، واشتدت النكبات الهوج فاخذت تتوالى على المسلمين . وكشف فاسكودي جاما طريق رأس الرجاء الصالح ، وانتقلت التجارة العالمية اليه ، وحرم العالم الاسلامي من عوائدها الطائلة ، ودمرت الاساطيل البحرية التجارية العربية في المحيط الهندي فكان ذلك معولا هداما في صرح النهضة والحضارة الاسلامية ولكن روح الاسلام لم تتزعزع ، وكيانه القوي ظل متماسكا شامخا خلال القرون والاجيال ، والذي حدث ان نهضة اوربا تاخر ازدهارها كثيرا بما وجهه البرابرة الى الحضارة من ضربات قاسية بتأخيرهم سير الحضارة الاسلامية ، وفي ذلك يقول نيتشه : « لقد حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك من الاسلام ، لقد ديست بالاقدام تلك المدنية العظيمة ، مدنية الاندلس المغربية ، ولماذا ؟ لانها نشأت من اصول رفيعة ، ومن غرائز شريفة ، فهم من غرائز رجال واي رجال ، ان تلك المدينة الاسلامية لم تنكر الحياة ، بل اجابتها بالايجاب ، وفتحت لها صدرها ، ولقد قاتل الصليبيون تلك المدنية بعد ذلك ، وكان اولى بهم ان يسجدوا لها على التراب ويعبدوها ، وما مدنيتنا في هذا القرن التاسع عشر الا فقيرة وانية بجانب مدنية الاسلام في ذلك الوقت » .

– 2 –

هذا هو ماضي الاسلام المشرق ، واي ماضي هو ؟ الم ينتصر الاسلام في حربه لعصور الجهل والوحشية والطغيان ؟ الم يؤثل الاسلام للحضارة منارا رفيعا في قرطبة وغرناطة وفاس والرباط والمهدية والقيروان والفسطاط والقاهرة ودمشق ومكة والمدينة والبصرة والكوفة وبغداد وبخاري وسمرقند ، وجرجان واصفهان ، وسواها من عواصم الاسلام الكبرى ؟ الم يحرر الاسلام العبيد ، ويرفع من شان المستضعفين في الارض ؟ الى غير ذلك من جلائل الاعمال .

وهل ننسى فضل الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن باجة والحسن بن الهيثم والرازي وجابر بن حيان فى تطور الحضارة ؟ .

هل ننسى جهود علماء الاسلام وائمته الكبار من امثال : مالك والشافعي وابي حنيفة واحمد بن حنبل ، وسواهم ؟ .

هذا هو ماضينا المجيد ، لكن الغرب المادي الجاهل المتعصب المسلح حارب الاسلام زورا وبهتانا تسب كل فضائل المسلمين وحضارتهم له ، وجنى الثمار التي غرسها المسلمون فى شتى النواحي ، فلم يكشف امريكا الا العرب الذين قادوا سفن كولمبس ، ولم يكشف طريق راس الرجاء الصالح الا المسلمون الذين كانوا ملاحي اسطول فاسكودي جاما بقيادة الربان العربي ابن ماجد ، ولم يهتد الغرب الى تراث الاغريق الا بجهود العلماء المسلمين ، وبذلك كشف الغرب ماضيه ، واخذ ينقب عنه ، ولم يهتد الغربيون الى اصول الحضارة ، وانما اخذوها عن المسلمين الذين كانوا حملة الوية الحضارة الانسانية .

– 3 –

واستدار الزمن دورته ، فحارب الغرب الاسلام فى كل ميدان ومجال ، وانتصر على المسلمين لجهلهم وغرورهم وبعدهم عن روح الاسلام ... وكان الاستعمار وغزوه السياسي والعقلي والحضاري للعالم

الاسلامي ، ووقف لورد لنبي فى القدس بعد الحرب العالمية الاولى يقول : « الآن انتهت الحروب الصليبية »

ومن قبل وقف كرومر فى مصر يهاجم الاسلام ، ويهدد الثقافة الاسلامية ، ويعلن الحرب على كل ما هو اسلامي ، ويتنبأ بسيادة الثقافة الغربية والمتعلمين على اسلوبها (※) .

ولكن زعماء العالم الاسلامي نهضوا لبعث الحضارة والامل فى قلوب المسلمين ، وجاهدوا فى سبيل تحرير العالم الاسلامي من سيطرة الغرب ، فقامت دعوات حرة جريئة ، حمل لواءها امثال : الافغاني ومحمد عبده والامام المهدي والامام السنوسي وعبد القادر الجزائري ومحمد الخامس وغيرهم ، وكانت اهم هذه الاتجاهات الحديثة : حركة الافغاني الاسلامية ، الذي كان شعاره : لا امة بغير اخلاق ، ولا اخلاق بغير عقيدة، ولا عقيدة بغير فهم .

لقد اثمرت حركات النضال الاسلامي ثمرات جليلة فى كل مكان ، وكما اجلى المسلمون الاستعمار من بلادهم ، لا بد لهم من الكفاح مرة اخرى من اجل تعزيز الثقة بالنفس ، وبعث الامل فى صدور الملايين من المسلمين ، وتقوية عقيدتهم فى الاسلام وماضيه وحضارته ومثله ، حتى يقفوا لكل المذاهب الهدامة من – الحادية ومادية ووجودية وغيرها – بالمرصاد ، وحتى لا يتركوا احدا يفتتن بها عن جهل ..

لابد ان يدرك ابناء الاسلام ان لهم ماضيا عريقا فى الحضارة ، وان دينهم دين حي خالد ، قاد الانسانية الى شاطىء العزة والحرية والسلام ، وسيقودها من جديد مرة أخرى الى حياة اسمى ومستقبل افضل واسعد مما بلغته حتى اليوم .

ليبيا : البيضاء : محمد عبد المنعم خفاجي

(※) راجع ص 67 كتاب لورد كرومر (عباس الثاني) .



موازنة بين الكوميديا الإلهية وقصة المعراج

للأستاذ: محمد عبد المالك الكتاني

تتبوأ الكوميديا الالهية للشاعر الايطالي دانتي (1265 – 1321 م) مكان الصدارة ليس فقط بين تراث ايطاليا الادبي ولكن في تراث الانسانية كله . وابسط مقياس ترجع اليه في هذا الحكم عند ما تعز المقاييس او تختلف بين النقاد ما نالته هذه الملحمة من اعجاب تحول على مر العصور الى ما نسميه بخلود الآثار الادبية . امام هذه القيمة المطلقة لاثر ادبي من هذا النوع يتساءل الانسان عن مقومات هذا الاثر وعن عوامل نشأته الفنية تلك التي تضافرت على ايجاده ، وساهمت في نموه واستوائه على صورته الفذة الرائعة .

ويمضي المرء يبحث عن تلك المقومات تارة من خلال شخصية الاديب المبدع ، وتارة بين ثنايا الاثر الفني ، واخرى فيما مهد لظهور هذا الاثر من عوامل البيئة ودواعي العصر . وهكذا يضطر خلال بحثه ان يجوس خلال دروب طويلة او يرود سبلا تنأى به قليلا او كثيرا عن صاحب الاثر الادبي ؛ ويقضي عليه البحث المجرد والمضني معا ان يجمع اجزاء تلك الحقيقة بعد سفر طويل في ابعاد مختلفة منها البعد البيئي ومنها البعد الشخصي للاديب ومنها البعد الفني للاثر الادبي واذا هو يضطر ايضا لكي يحدثنا عن سر العبقرية الكوميديا الالهية ان يستعرض صاحبها دانتي في حياته وبيئته وحضارة عصره بما في ذلك ثقافته وآدابه وفنونه . هذا النوع من البحث قد يطلعه على حقائق مدهشة او مفاجآت لم يكن يتوقعها . ولكنها الحقائق التي لا تقبل الشك ، والتي لا يجوز الاعراض عنها لمجرد انها غريبة او مفاجئة او مما لا يتفق وما نعتقده قبل ظهورها . من تلك الحقائق التي تفاجئنا في بحث « الكوميديا الالهية » ان اصول هذا الاثر الفني الخالد ليست جديدة ، وليست عناصرها الخيالية مبتكرة ، وانما هي أصول وعناصر عرفتها آداب قديمة مختلفة تناولها دانتي الشاعر وصاغها صياغة جديدة مفرغا عليها حلة جديدة ، ونافخا فيها من روح شاعر عبقري ، فاستوت أثرا قويا يبلور رؤيا الانسانية في العالم الآخر على نحو رفيع .

وانها حقيقة لا تقلل من قيمة الاصالة في هذه الملحمة الالهية ؛ بل ولا تتنافى مع مبدا الاصالة في أي اثر أدبي آخر يصدق عليه ما يصدق على الكوميديا ، لان الاصالة لا تعني انقطاع الاديب عن كل مؤثر يربطه ببيئته وعصره وانما تعني انه يستقل في صياغة موضوعه الذي هو رؤى ذاته رؤى الانسانية كلها من خلال ذاته كانسان وفي هذا الصدد يقول لانسون LANSON ان الخصائص التي تميز العبقرية الفردية ليست اجمل ما في تلك العبقرية واعظمه لذاتها، بل لانها تشمل في حناياها الحياة الجماعية لعصر أو هيئة وترمز لها أي تمثلها . ومن ثم وجب علينا ان نحاول معرفة تلك الانسانية التي افصحت عن نفسها خلال كبار الكتاب . . . وهكذا نضطر الى ان نسير في اتجاهين متضادين ، نستخلص الاصالة ونوضحها في مظهرها الفريد المستقل الموحد ثم ندخل المؤلف الادبي في سلسلته ، ونظهر كيف ان الرجل العبقري نتاج لبيئته وممثل لجماعته » .

واصالة الكوميديا الالهية لدانتي من هذا النوع الذي لا تتزاحم فيه صورة دانتي الفردية مع صورة عصر دانتي الجماعية ؛ فالصورتان متآلفان ولا تطغى الوان احداهما على الوان الاخرى ان لم تكن كل منهما عنصرا مكملا للاخرى ومساعدا على بروزها .

دعانا الى تاكيد هذه الحقائق ما سنقيمه من موازنة بين تصميم هذا الاثر الادبي الكبير للعالم الآخر وبين التصميم الذي نجده للعالم الآخر في اثر آخر شائع في الثقافة الاسلامية . وهو قصة المعراج المحمدي كما انتهت اليه في العصور الوسطى وخاصة قبيل عصر دانتي . ففي هذه الموازنة ما قد يتراءى للبعض وكأنه ينال من قيمة الكوميديا الالهية وينقص من اصالتها نظير ما حدث يوم طلع المستشرقون وعلى رأسهم آسين بلاثيوس بالحقائق التي سنعرض لها بعد قليل .

عاش دانتي في النصف الاخير من القرن الثالث عشر والربع الاول من القرن الرابع عشر للميلاد ؛ وهي فترة من الزمان كانت تتمخض عن عوامل نهضة أوربا . فقد كانت الثقافة اللاتينية تتغذى بعناصر جديدة من الفكر اليوناني والفكر الاسلامي وكان الفكر الاسلامي قطب الرحى من الثقافة في العصر الوسيط . وخلال القرن الذي ولد فيه دانتي ظهرت نتائج انبعاث الفكر اللاتيني حيث افاد البرتو الكبير (1280 م) من شروح ابن سينا وابن رشد لارسطو ، وحاول استكمال فلسفته بمكتشفات علمية ؛ وآثر القديس توماس الاكويني (1274 م) التوفيق بين الفلسفة والعقيدة المسيحية فنسج على غرار ابن رشد (1198 م) في التوفيق بين الحكمة والشريعة .

وهناك حقيقة لا مراء فيها اليوم ؛ هي ان الحضارة الاسلامية والثقافة العربية كانت جميعا مركز الاشعاع الفكري والانساني في القرون الوسطى . وان مراكز الاتصال بين الفكر اللاتيني والفكر العربي لم تكن قليلة ولا غريبة لا سيما في الاندلس وصقلية والقسطنطينية والشام اي في اطراف الممالك الاسلامية وعلى تخوم الممالك النصرانية . ولما كان العرب يومذاك في الطليعة من ركب الحضارة ، وكانوا قادة الشعوب في كل ميدان من ميادين الانتاج والتفكير والصناعات والفنون كانت امم اللاتين لا سيما اثر الحروب الصليبية قد اخذت تتوجه الى الثقافة الشرقية والعربية تمتص منها ذلك اللقاح الذي سينشأ عنه فيما بعد انبعاث حركة النهضة الكبرى . وبلغ الامر ببعض امراء تلك الفترة وهو فردريك الثاني (م 1250 م) امير صقلية ان يجعل هدفا من اهدافه الكبرى نقل الآثار العربية الى اللاتينية ويغرم بالازياء والعادات العربية والتقاليد الشرقية ، ويراسل علماء المسلمين ، ويستفتيهم في المعضلات الفكرية . ولم تكن الاندلس باقل نشاطا من صقلية ان لم تكن اوسع مجالا واغنى عملا ، وقد اشتهرت طليطلة خاصة في عهد الفونس الحكيم (1284م) ملك قشتالة بانها احد المراكز الثقافية التي تمت فيها ترجمة كثير من الآثار العربية الى اللاتينية والاسبانية .

فثقافة القرون الوسطى او قل ان ثقافة القرن الثالث عشر وهو عصر دانتي بالذات ثم القرن الرابع عشر لم تكن الثقافة السائدة فيه ثقافة لاتينية خالصة . بل كانت ثقافة قد امتصت كل ما ناسب مزاج اللاتين من الفكر الاسلامي ومن الفكر اليوناني على يد المسلمين .

واذن فقد كان دانتي الييجيري كواحد من كبار مثقفي عصره قد اطلع على ثقافة متنوعة غنية الموارد . فهو قد درس على طريقة أهل عصره دراسة دينية عميقة ، واخذ بتعاليم القديس توماس الاكويني على يد دير الدومينكان الذي كان له طابع التفكير السني في الاسلام ثم تعلم الفرنسية ، ولغة البروفانس التي تحتوي اناشيد التروبادور ؛ ثم اطلع على كل ما اتيح له من الوان الثقافة التي تحتويها اللاتينية والفرنسية بالاضافة الى دراساته الجامعية .

ان رجلا يتسع افقه الثقافي الى الحد الذي وصفنا لا يمكن أن يكون غريبا عن الثقافة الاسلامية او على الاقل عما كان قد نقل من تلك الثقافة الى اللاتينية والفرنسية ؛ ولغة البروفانس من كتب واقاصيص واناشيد فضلا عن العلوم الكبرى كالطب والفلك والحكمة والكلام وآراء الصوفية ؛ وما شاع في الناس من قصص ديني تحتل قصة المعراج النبوي مكان الصدارة منه .

ولما كانت قصة المعراج الاسلامية أهم تلك الآثار التي يعتقد انها ذات شأن في التأثير على الكوميديا الالهية ، فانه يجب التنويه هنا بنتائج البحوث التي قام بها عدد من المستشرقين والباحثين لاكتشاف وسائط الاتصال بين هذا الاثر الاسلامي والشاعر الايطالي .

فقد نشر المستشرق كابريللي GABRIELLI بحثا قيما عن دانتي وصلته بالثقافة الاسلامية نشره في كتاب سنة 1952 اوضح فيه من جديد مدى تلك الضجة التي كان قد اثارها المستشرق الاسباني آسين بلاثيوس في كتابه « الاصول الاسلامية للكوميديا الالهية » (1919 م) والتي كان مبعثها ان هذا الباحث الكبير انتهى الى ان دانتي في الكوميديا يستقي صوره وتصميمه للعالم الآخر فيها من مشاهد العالم الآخر كما تصورها قصة المعراج وكتب الدين الاسلامي ، ولما كان هذا الفرض مجرد احتمال يحتاج الى الكشف عن واسطة

الاتصال التي تقطع بصلة دانتي بهذا الاثر او ما يتصل به ، فقد ظل فرض بلاثيوس مجرد احتمال ، وقد أصبح حقيقة أدبية وعلمية فيما بعد بفضل بحوث اخرى قام بها عالمان آخران توصلا فيها الى اكتشاف الترجمتين اللتين كانتا معروفتين في كل من اسبانيا وايطاليا في القرن الرابع عشر لقصة الاسراء والمعراج الاسلامية .

قام بهذا البحث المستشرق الايطالي تشيرولي ، ونشره في كتاب سنة 1949 تحت عنوان « كتاب المعراج ومسالة المصادر العربية للكوميديا الالهية » .

وقد انتهى بحث تشيرولي الى ان ترجمة قصة المعراج الاسلامية كانت متداولة في القرن الثالث عشر ، وكان لها تأثيرها في أوساط القراء والادباء ورجال الكنيسة في كل من ايطاليا وفرنسا واسبانيا ، وأن دانتي بوصفه من كبار مثقفي عصره كان مطلعا على هذه القصة .

تأتي الكوميديا الالهية في صياغتها الفنية لتقطع بشكل لا يبقى معه مجال الشك بصلة هذا الاثر الادبي الايطالي الكبير بقصة الاسراء والمعراج الاسلامية في تصميمها للعالم الآخر وكثير من مشاهدها وصورها للعالم الاخروي في الفردوس والجحيم .

واننا لا نذهب الى القول بأن قصة المعراج كانت المصدر الوحيد للكوميديا الالهية ، ولا ان مشاهد العالم الآخر في كتبنا الدينية كانت الغذاء الوحيد لخيال الشاعر دانتي وهو ينشيء ملحمته الخالدة ، ولكننا نقول بناء على ما ثبت من نتائج البحث وما كان للثقافة الاسلامية من دور في القرون الوسطى ان مشاهد العالم الآخر في قصة المعراج وتصميمها للعالم الآخر من ناحية ثانية كانتا مؤثرين على نحو قوي في خيال الشاعر . ولقد كانت هناك آداب كثيرة عرفت هذا النوع من الرحلات الخيالية الى العالم الآخر . فقد عرفت ذلك المصريون والبابليون والعبريون . وعرف الفرس في ادبهم مشاهد للعالم الآخر تتألف من عوالم ثلاثة الجحيم والمطهر والفردوس .

وفي تراث الهند نجد صورا شبيهة بهذه الصور المعروفة في الديانات الاخرى وكيف يصعد هيرا من الجحيم الى الفردوس محفوفا بالملائكة الى مقام رب الارباب وفي الادب اللاتيني واليوناني مشاهد غنية الالوان والتفاصيل عن العالم الآخر . وفي تراث القرون الوسطى قديسون وقصاصون تحدثوا عن العالم الآخر من اشهر آثارهم مطهر القديس باتريك .

الا ان قصة المعراج لرسول الاسلام محمد (ص) كانت ابلغ تأثيرا مما عداها ، وربما كان ذلك سبب التطور الكبير الذي بلغته من روعة الخيال والشعر على يد الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي (560 ـ 638 هـ) في كتابه الفتوحات المكية . وهو الامر الذي وقف عنده المستشرق بلاثيوس طويلا في معرض الموازنة بين تصوره للعالم الآخر وتصور دانتي .

والواقع ان هذا المستشرق في كتابه « الاصول الاسلامية للكوميديا الالهية » قد ذهب في الموازنة بين هذه الملحمة في تصويرها وتصميمها للعالم الآخر وفي قصة المعراج غاية بعيدة . وعلى الرغم من أننا لا نقطع برأي في ان قصة الاسراء والمعراج هي التي أوحت الى دانتي بفكرة الكوميديا الالهية لعدة أسباب منها أن الثقافة الاسلامية لم تنفرد وحدها بهذا النوع من القصص ذات الرؤى في العالم الآخر ، ومنها كون دانتي كان متأثرا أيضا بفرجيل الشاعر الكبير صاحب الرؤى الاخروية في ملحمته الانيادة ، الا أننا نقر معه بأن دانتي استأثر بخياله تصوير الصوفية المسلمين لقصة المعراج لا سيما عند ابن عربي في كتابه « الفتوحات » . ولا شك ان قصة المعراج التي كانت من حظ الترجمة الى اللاتينية والفرنسية تحتوي التفاصيل التي انتهت اليها في القرون الوسطى على الرغم من كوننا نجهل نص هذه القصة بالذات .

ولكي نوازن بين الكوميديا الالهية وقصة المعراج يقتضينا الامر النظر في ناحيتين ناحية الاتفاق وناحية الاختلاف .

أما في الناحية الاولى فنجد التصميم الكيفي للعالم الآخر يخضع للشكل الدائري فالعالم الآخر على هيئة قبة الفلك . وهو نفس التصميم الذي نجده عند دانتي ، وفي قصة المعراج كما يصورها ابن عربي ، وكما يصورها صوفي مغربي مغمور هو السيد عبد العزيز الدباغ الذي روى عنه صاحب الابريز . « فاطباق الجحيم ومدارى النجوم ودوائر الوردة الصوفية وجماعات الملائكة التي تحف بمطلع النور الالهي والدوائر الثلاث التي ترمز الى الثالوث عند دانتي كل هذه وصفها الشاعر الفلورنسي كما وصفها الصوفي المرسي .

ويتأثر دانتي بصورة النظام الفلكي التي كانت معروفة في القرون الوسطى ، وهو الذي يجعل الارض مركز العالم وحولها السماوات التسع عبارة عن كرات تحيط بها او دوائر فضائية تغلف الارض ، وتزيد التعاليم المسيحية هذا النظام سماء أعلى هي الوردة

البيضاء اي عرش الله . وهكذا يجعل دانتي جحيمه تسع حلقات متدنية اسفل فاسفل حتى تنتهي الى المطهر وهو مركز الارض وهو مقسم بحكم ضرورة مماثلته لما قبله الى تسعة افاريز ومنه ينطلق الى السماء حيث تتعالى تسع سماوات تنتهي بسماء السماوات وهي المستوى العاشر . ونجد ما يشبه هذا التقسيم للعالم الآخر في قصة المعراج في صورتها المتاخرة ففيها أن عدد المعاريج كانت ليلة الاسراء عشرة ، سبع سماوات . والثامن هو سدرة المنتهى والتاسع المستوى الذي سمع فيه الرسول صرير الاقلام في تصاريف الاقدار . والعاشر هو العرش والرفرف حيث تمت الرؤية وسماع الخطاب والكشف الحقيقي .

اما بداية الرحلة في الكوميديا الالهية فتاتي في اعقاب نوم عميق . وتنطلق من بيت المقدس . ومن موقعه ينزل دانتي الى دركات الجحيم التسع حتى الدرك الاسفل حيث ابليس . وفي المعراج ايضا يبدأ العروج الى السماء بعد الصلاة في البيت المقدس مع جماعة الانبياء . وتأتي صلاة الرسول بعد نومه في بيت ام هانيء بنت ابي طالب . وبينما يرافق الرسول عليه السلام جبريل ملك الوحي يرافق دانتي فرجيل الشاعر رمز الالهام الشعري .

ويعترض سبيل الرسول في رحلته في قصة المعراج كائنات رمزية هي في رواية المراة العجوز رمز الدنيا ، والشيخ رمز الشيطان وفي رواية اخرى المرأة العارية رمز الاغراء الشيطاني ، وفي رواية ثالثة عفريت من الجن يطلبه بشعلة من نار . اما دانتي فيعترضه هو ايضا كائنات رمزية هي الذئبة رمز البخل والاسد رمز الكبرياء ، والفهد رمز الشهوة .

واقسام العالم الآخر عند دانتي تبدأ « باللمبو » وهو مدخل الجحيم ومقر العظماء الذين سبقوا المسيحية او لم يهتدوا الى نورها . ثم الجحيم ذو الدركات التسع ثم المطهر وهو ممر ضروري من الجحيم الى الفردوس ، ثم الفردوس حيث تتعالى تسع سماوات كل سماء مستوى من مستويات الفردوس .

أما تصوير النصوص الدينية الاسلامية للعالم الآخر فهنالك الجنة ذات الفراديس الثمانية وهي دار السلام وجنة النعيم وجنة المأوى ودار الخلد وجنة عدن وجنة الفردوس وجنة عليين ودار المزيد . وفي الحديث الذي اخرجه الطبراني عن ابن مسعود ان للجنة ثمانية ابواب سبعة منها مغلقة وباب مفتوح للتوبة وهي باب الجنة الاولى ، وينتقل المنتقل الى الجنة من اسفل الى اعلى دوما . وهناك النار ذات الدركات السبع . وهناك الصراط المضروب بين ظهري جهنم ، وهو يفضي الى الجنة وهناك تل بين الجنة والنار هي الاعراف مقر خاص للذين لم يستحقوا عذاب الجحيم ولا نعيم الفردوس .

وعند الموازنة نلمح ان الجنة تقابل الفردوس وان الصراط يقابل المطهر ، وأن جهنم تقابل الجحيم وأن الاعراف تقابل اللمبو مقر العظماء والعباقرة الاقدمين .

وبعد ذلك تتعاقب المشاهد في كل من القصة الاسلامية والملحمة الدانتية مشاهد العذاب او مشاهد النعيم فتتقارب تارة حتى تتماثل تقريبا وتختلف اخرى . وفي هذا الصدد يقول آنخل بالنثيا :

« ولا يتوافق الصعودان — الدانتي والاسلامي — في الخطوط العامة فحسب ، بل هناك حلقات ذات صور ملموسة يتفق الاثنان فيها : فالنسر الضخم الذي رآه دانتي في سماء جوبتر وقال انه — اي النسر — يتكون من حشد عظيم يضم آلافا من الملائكة لهم أجنحة ووجوه فحسب ، يشع منها نور باهر وهي تخفق بأجنحتها مرتلة أنغام الترتيلات الانجلية ثم يسكن النسر رويدا رويدا ويحط ، كل هذا ما هو الا تضمين لصورة الملاك المارد الذي رآه محمد (ص) يتحول الى ديك يخفق بجناحيه ويغني ترتيلات دينية ، ثم يحط بعد قليل مع ملائكة تبدو له وكان كلا منها مجموع لا عدد له من الوجوه والاجنحة . » (ص 559)

« وكلا الدليلين اذا وصل بزائره الى سماوات النجوم دعاه الى تأمل الكون المخلوق وصفره . وصفة المشهد الالهي في كلا الحالين واحدة ، فالله مركز أو نقطة من النور الباهر تحيط به تسع دوائر ذات مركز واحد ، وتتألف هذه الدوائر من الملائكة محشودين بعضهم الى بعض في صفوف تنبعث منها اشعة من النور ... والزائر يتأمل هذا المشهد الاروع مرة عندما ينتهي من صعوده ومرة عندما يمثل بين يدي العرش » (الفكر الاندلسي ص 560) .

ومثل هذا التماثل في التصوير نجده في مشاهد الجحيم ، وبشكل يكاد يكون قاطعا بأن دانتي استمد من قصة المعراج في ملحمته ، فالمواصف السود ومطر النار والحركة الدائرية الدائمة لقوم والطعن بدون موت وسحب المدلين وأمعاؤهم متدلية والقوم مقطوعو الايدي ، وعذاب الزمهرير كل ذلك متمثل في الاثرين مع اختلاف اقتضته طبيعة الخلاف بين الشخصين .

واما في الناحية الثانية اي الاختلاف بين الكوميديا الالهية وقصة المعراج الاسلامية فهي ذات وجوه :

منها هذه الدقة والاحكام في التقسيم والتفصيل الموجودين في الكوميديا لانها من وضع شاعر مجنح الخيال افرغ كل عبقريته في صوغ هذه الملحمة صياغة هندسية تخضع لضرورات التماثل والتوازي بين اجزائها وفصولها والتنويع في مشاهدها ، في حين أن قصة المعراج لم تكن الا حديثا نبويا عن رؤيا الرسول عليه السلام تطورت فيما بعد على يد الوعاظ والصوفية الى قصة ذات صور ومشاهد في وضع غير منسق وان كان لا يخلو من روعة التصوير . ان الكوميديا الالهية بناء شامخ الذرى منسق البنيان متكامل الاجزاء قائم على نوع من الهندسة الشعرية القوية التي هي اخص الجوانب في عبقرية دانتي .

وتختلف قصة المعراج ايضا في تصميمها للعالم الآخر عن الكوميديا الالهية لان الاولى وان كانت تخضع العالم الآخر لقانون الزمان والمكان ولكنها لا تعطيه هذا الشكل المادي الصلب . فهي لا تصف لك المعالم وصفا دقيقا ، وانما هي لقطات خاطفة تشير ولا تحدد وترمز ولا تفصح فكأنها ومضات تشرق بغتة على مشاهد تتلاحق أمام مخيلتك بدون أن تترك في نفسك سوى الاطياف ، بخلاف الكوميديا التي تسرف في التصوير والتحديد والتلوين والتأثيث ، وتتعقب المشاهد في نظام وترتيب ، وتكاد تبلور المضمون الميثولوجي للثقافة الانسانية كله . وعندما يعطي دانتي لوصف الجحيم ثلاثة وثلاثين نشيدا تستغرق اربعة آلاف وسبعمائة سطر اذا بقصة المعراج لا تكاد تبلغ في وصف مشاهد العذاب الصفحتين . ويتصل بهذه الهندسة الشعرية التصميم الفني لكل من الكوميديا وقصة المعراج ، فالكوميديا كما قلت بناء متكامل ذو تفاصيل واجزاء ومشاهد تستغرق مئة نشيد وهو العدد الرمزي للوحدة واللانهاية ، وتستوعب ثلاثة وثلاثين ومئتين واربعة عشر الف سطر تستنفذ اكبر طاقة ممكنة لاي انسان من الخيال وقوة التصوير ، اما قصة المعراج فهي بعيدة كل البعد عن صناعة الشعر وبعيدة ايضا عن هذه الهندسة الشعرية .

وناحية ثالثة في تصميم الكوميديا وقصة المعراج للعالم الآخر لا ينبغي الا يفوتنا ذكرها وهي أن هذا التصميم في كلا الاثرين تصميم رمزي ، فالعالم الآخر ان هو الا صراط نحو الخلاص ، خلاص الانسانية من البؤس والخطيئة ، خلاص يقول عنه دانتي انه الخروج بالناس من البؤس في الحياة الدنيا ، وتقول عنه قصة المعراج في مداولها عند الصوفية انه تحقق الرسول عليه السلام مما أمره الله بتبليغه تحققا عيانيا ليجمع بين الايمان واليقين . ومع ذلك فالمغزى في قصتنا الاسلامية اكثر روعة لانه يعني تحقق الانسان الكامل من حقيقته أي صيرورة الايمان عنده معرفة والمعرفة يقينا .

وهناك أمر آخر تنفرد به الكوميديا في تصميمها للعالم الآخر وهو تأثرها بالتعاليم المسيحية المتدعة ؛ فالتصميم الاخروي في الكوميديا يخضع لعقيدة التثليث المسيحي فالاقسام في العالم الاخروي ثلاثة والاقانيم في الذات الالهية ثلاثة ، وتحديد نور الله بانه نقطة مركزية تتداح حولها هالات النور كل ذلك تخلو منه قصة المعراج لانها لا تتقيد بالاشكال التجسيمية الا بقدر ما يقتضيه مقام التعبير بالمقيد عن المطلق .

ان قصة المعراج تظل في سياقها محتفظة بالوحدة والتنزيل للذات الالهية بينما تنحو الكوميديا منحى التثليث والتجسيم .

الدار البيضاء : محمد عبد الملك الكتاني

مصـادر البحث ومراجعـه

الكوميديا الالهية لدانتي الايطالي (ترجمة حسن عثمان) دار المعارف .
قصة المعراج الاسلامية من خلال كتب : تفسير الخازن - الانوار المحمدية من المواهب اللدونية (بيروت 1310 هـ) - قصة المعراج للغيطي - قصة المعراج للكتاني - كتب الحديث النبوي - سيرة ابن هشام - تذكرة القرطبي (القاهرة 1308 هـ) - الفتوحات المكية (القاهرة 1293 هـ) .
منهج البحث في الادب واللغة لانسون (تعريب الدكتور مندور)
تاريخ الفكر الاندلسي لآنخيل بالينثيا (تعريب حسين مؤنس)
معالم الفكر العربي في العصر الوسيط الدكتور كمال اليازجي .

كلمة حول الفقيد العلامة محمد بن عبد الله

للأستاذ : عبد اللطيف خالص

في اليوم السادس من شهر ابريل المنصرم انتقل الى رحمة الله العلامة الجليل شيخ الجماعة برباط الفتح الفقيه سيدي الحاج محمد بنعبد الله . وبذلك فقد المغرب دعامة قوية في ميدان العلم والمعرفة عموما وفي ميدان الفقه والقضاء والتشريع خصوصا .

وقد كان الفقيد عمدة في الحديث النبوي يرجع اليه كل من يهتم بهذا اللون الذي اخذ ينقرض من الثقافة الاسلامية كما كان معروفا بثقافته الاسلامية العربية الواسعة تفسيرا وحديثا وفقها واصولا ولغة ونحوا وبلاغة .

وامتاز الفقيد رضي الله عنه باخلاق كريمة وسجايا جمة وفضائل عظيمة تجعلك تطبق عليه بحق الكلمة المأثورة : ان العلم ثقاف العقل وتربية النفس وتهذيب الذوق . فقد كان الحاج محمد بنعبد الله مثال العلماء العارفين الذين عرفوا مقامهم في المجتمع وادركوا قيمتهم بين اقرانهم وانداذهم ولكنهم ما ارادوا في يوم من الايام ان يطغوا بعلمهم رغم غزارته ولا ان يبغوا بجاههم رغم سعته وشدة سلطانه بل كانوا دائما يحترمون الناس ويقدرون قدرهم ويلزمون سبل الرشاد .

ولم يكن الفقيد ؛ كما قد يتصور بعض الفرانيق، عالما جامدا او نسخة مكررة من الكتب الست كما كان يحلو للامام ابن تيمية ان يقول في بعض الحفاظ لصحيح الامام البخاري ولكنه كان مثال العالم المتفتح الذي يومن بان الدين الاسلامي قابل للتطور حسب الزمان والمكان ووفقا للظروف والبيئات والاحوال .

ولا ادل على ذلك من تتبعه لمختلف الحركات التحريرية الوثابة . التي تغمر العالم الاسلامي في هذا القرن العشرين ومساهمته بالقسط الوافر في كل ما يعود على المسلمين بالنفع العميم والخير الجسيم . او ليس استعداده للتدريس في المدارس الحرة في فجر حياتها بالمغرب دليلا على هذا التفتح وبرهانا على هذا الاستعداد الفطري الذي كان يواكب روح الفقيد في كل مرحلة من مراحل تطوره المعنوي ؟ فهل راينا عبر التاريخ رجلا في هذا المقام علما وقدرا يبدي هذا الاستعداد ويدخل ليعلم اطفالا صغارا ابسط المبادىء في الدين واللغة وهو الذي يتصدى في الدروس التي يلقيها في اكبر مساجد العاصمة الى اسباب الخلاف العالي بين الائمة والى شرح امهات الكتب الاسلامية في التفسير والحديث والتشريع والاصول ؟

وهل سبق لنا ان عرفنا رجلا يفتح قلبه لكل راغب في المعرفة طالب للعلم ليزوده بما شاء من الايضاحات والتفسيرات والمساعدات ولو لاحظ ان في بعض هؤلاء الطلبة تطفلا على المعرفة او انهم لا يتوفرون على قسط من الذكاء يسمح لهم بتطور معلوماتهم ورفع مستواها ؟

لقد تصدى فقيدنا الكريم رضوان الله عليه الى التدريس فكان خير استاذ لمجموعة من الطلبة تعتبر امثل نخبة في الرباط من المثقفين الذين تزودوا بالثقافة الاسلامية ؛ وقد تخرج على يده جيل من الطلبة ما كان نبوغهم ليظهر ومعلوماتهم لتزهر لولا ان هذا الشيخ الوقور المملوء علما ومعرفة والمحشو بيانا وعرفانا تداركهم وفتح قلوبهم للعلم والتقوى بعد ما فتح اذهانهم وفتق مداركهم وتعهدهم بالغرس والتلقيح والري كما يتعهد البستاني حقله وبستانه .

وتصدى فقيدنا للوظائف القضائية الكبرى فكان امثل قاض فى عهد الاستقلال اذ استطاع ان يظهر تفانيا عجيبا فى تحمل المسؤوليات وتقلد التبعات ؛ فلم تستطع ان تتسرب لا الى بيته ولا الى روحه رشوة بل ظل وفيا للشروط المتطلبة فى القضاء من عدل ونزاهة واستقامة حتى لا تؤثر فى نفسه العوامل المادية فتجرفه فى تيارها الذي لا يبقي حرمة لاحد ولا يذر تقديرا لأي شخص .

ولقد كان لي شرف القرب منه فى هذه الفترة الحاسمة من حياته ، وقد كنت اشاهده يتزوى ويضطرب ويزور وينقلب كلما حال بينه وبين معرفة الحقيقة فى احدى النوازل حائل ، وكنت اراه فى هذه الحالة النفسية العصبية يجمع قواه ويصبر ويصابر ويقاوم الى النهاية حتى لا يكون فى حكمه جائرا او فى قراره ظالما قاسطا وكيف لا تكون هذه حالته وهو الذي يدرك قول الله تعالى : (واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) .

وكان الفقيد اذا وجد نفسه امام مشكلة شائكة وكثيرا ما كانت تحدث هذه المشاكل الشديدة الحدة فى بيوتات الرباط — ياخذ مراجعه الاساسية ويضيف اليها مراجع جديدة يدل اختياره لها على اتساع افق مطالعاته حيث كانت الاحكام التي يصدرها رضي الله عنه طريفة من هذا النوع ويلم بالنازلة من جميع الوجوه ويمعن النظر فى الملف حتى اذا ما اصبح على علم بجميع العناصر تروى وتدبر وتلكا وتفكر واذا ما بدا له قبس من الضياء تمسك به واستل بقية خيوطه حتى يتضح له الامر ويظهر له السر فيمسك بقلمه ويكتب نص الحكم او التعليق عليه او القول الفصل فيه .

وكم كان رضي الله عنه فى هذه الاثناء يتعرض الى نوع كبير من المضايقات من بعض الافراد او الهيئات فلا يتردد فى ردها كما لا يحار فى ايقاف سبلها. وكم كان يندس بجانبه بعض الافراد قصد المساعدة والارشاد ليحاولوا التاثير عليه . ولكنه كان كالطود الاشم لا يتزعزع عن مكانه ولا يتضعضع فى موقفه . وانى لهؤلاء ان يؤثروا عليه وهو القاضي الذي لا يخضع الا لضميره ولا يحكم الا عقله ولا يتاثر الا بما تتفتق عنه ذهنيته ولا يعمل الا بما يصل اليه اجتهاده من حلول وما يتوفق اليه من احكام وهو يعبر بالنوازل السبيل . وهيهات ان تنزع من المرء الذي لا يحكم الا العقل والنص اي شيء تريده عن طريق الاغراء والتاثير .

ومن جملة ما يستوقف المتتبع لشخصية هذا الرجل العظيم سلوكه فى هذه الحياة لا بالنسبة لعائلته ولا بالنسبة لاصدقائه ولا بالنسبة للمجتمع .

فقد كان الفقيد الجليل غريبا فى هذا السلوك اذا ما اعتبرنا مكانته الاجتماعية ومقامه العلمي والمنصب السامي الذي كان يحتله فى ميدان القضاء .

لقد كان الفقيد العزيز مستقيما الى اقصى حدود الاستقامة وكان مثاليا فى نزاهته ولكنه كان صريحا لا يداري الكذابين والمنافقين كما كان حادا لا يقبل العبث بالقيم الاخلاقية من مروءة ورجولة ووفاء وصدق . فما كان يحابي احدا من الذين يريدون ان يغرروا بالناس ويضحكوا على ذقونهم كما يقول المثل الفرنسي . وقد كنا نجده دائما يقف موقف الجد والصرامة اذا ما تعرض احد من العلماء او الاصدقاء الى اهانة كما يؤيد ويناصر كل من يسعى لاخذ حقه بالطرق المشروعة كما كان لا يتردد فى الجهر بالحقيقة كلما حاول احد من المدعين ان يزيف حقيقة علمية راسخة واضحة لا تقبل الارتياب والجدال والشك والاحتيال . فما ذا كان يفعل لرد الامور الى نصابها ؟ وكيف كانت تتجلى مواقفه ازاء المزيفين وادعياء العلم ؟ وكيف كان يستطيع ان يجاهر بالحق الصراح ويصرح بالحكم الشرعي ؟

لقد كان هدف فقيدنا الغالي رحمه الله هذه الكلمة التي اثيرت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي :

« يعجبني الرجل اذا اسيم خطة ضيم ان يقول لا بملء فيه » كما كان يردد قولة الامام الزمخشري : « الكريم اذا سيم الضيم ابى » . وهكذا فقد كان الفقيد يومن بضرورة رد الامور الى نصابها اذا ما قلبت الاوضاع ، وكان يرجع اذا كان الامر يتعلق بقضية علمية سببها علماء السوء عن قصد او عن غير قصد الى كتبه ومراجعه فينكب على دراسة الموضوع ويكتب ما تيسر له فيه حتى اذا ما استوعب المسالة ووضح له الحق واليقين من الشك والارتياب اغتنم اول فرصة يتصل فيها باخوانه من العلماء والطلبة فقرا عليهم ما كتب واقنعهم علميا بوجهة نظره دون اي ضغط عاطفي او حماسي حتى اذا ما وقف على راي الجميع فى الموضوع صدع بكلمة الحق فى وريقات معدودات واصبحت هذه الوريقات كالصارم المسلول على خصومه لا يرجع الى غمده الا بعد ان يظهر الحق ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

ولعل نظرة عاجلة واحدة على ما خلفه لنا من مؤلفات وكتب تدل على ما كانت ترمي اليه هذه الكتب والمؤلفات وما تحققه من مرام علمية بعيدة الهدف ويمكن ان نذكر من هذه الؤلفات :

1) الصارم المسلول على مخالف سن الرسول فى الرد على من استحق بدعة الذكر جهرا فى تشييع الجنازة .

2) ونيل السرور والمرح ، بشرح قصيدة ابن فـــرح .

3) اتحاف ذوي الفضل والطرف ، بما للنحاة فى ابي هريرة من ترك الصرف .

4) تقييد فى انتقاد رسالة ابرام النقض : لما قيل من ارجحية القبض .

5) رسالة مختصرة فى العقائد قراها مع طلبة محمد جسوس لما كان مدرسا بها .

6) رفع العتب والملام عمن قال قد قيل بالضحية عنه عليه السلام .

7) تقييد صغير عنوانه بثة مكظوم ونفاثة مصدور على ما آلت اليه الخطابة بالمغرب .

8) تقييد آخر اشتمل على فوائد تتعلق بحديث النبي (ص) وبموطا الامام مالك رضي الله عنه

9) تقييد صغير فى مناسك الحج .

10) تقييد فى بعض احكام الفاظ الشهور العربية والبدر الذي لا يحجبه سحاب فى ان ترجيح السنة على راي الرجال اجدر بالصواب .

11) تقييد املاه عند ختمه لقراءة الفية ابن مالك.

12) تعليق على شرح شيخه سيدي المكي البيضاوي على نظم البيقونية فى اصطلاح الحديث .

13) تفسير سورة ليلة القدر املاه بالمسجد الاعظم فى اواخر رمضان سنة 1380 .

14) شرح لحديث انما الاعمال بالنيات اسماه مبلغ الامنية من حديث الاعمال بالنية .

15) تعليق على نور العيون فى تلخيص سيرة الامين المامون للحافظ ابي الفتح سيدي محمد بن سيد الناس ما زال لم يكمل .

16) شرح عقيدة رسالة ابن ابي زيد القيرواني :

17) شرح على رجز فى تصريف الافعال لشيخنا المولى محمد المدني بن الحسني ما زال لم يكمل ايضـــا .

18) تقييد ضمنه قيمة جعلها مقدمة لدروس الموطاحين شرع فى قراءتها بالمسجد الاعظم

19) وتقييد آخر فى الكلام على الحافظ المحدث والحجة والحاكم والمسند بكسر النون والمسندي بفتحها وزيادة ياء النسب وامير المومنين فى الحديث .

20) تعليق على بلوغ المرام فى ادلة الاحكام للحافظ ابن حجر كتبها حين اقرائه له بجامع عطية بالرباط .

21) واخرى على كتاب التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح للحسين بن المبارك الزبيدي

22) ونيل الارب من مسح الجورب . الى غير ذلك من التقاييد العلمية والفوائد الادبية التي اودعها بعض الكنانيش .

وقد سبق للفقيد ان نشر بعض كتاباته بهذه المجلة « دعوة الحق » فى مواضيع مختلفة كموضوع توحيد رؤية الهلال والامر بالمعروف والنهي عن المنكر كما شارك باحاديث دينية قيمة فى اذاعتنا الوطنية .

وخلاصة القول فان الفقيد الجليل الحاج محمد بنعبد الله كان عالما فذا استطاع ان يجمع بين العلم والعمل فلم يكن جامدا متزمتا سلبيا لا يفيد ولا يستفيد بل كان عالما نشيطا ايجابيا يومن بان رسالة العالم فى هذه الحياة هي رفع مستوى ابناء وطنه ونفض غبار الجهل عنهم واسداء الخير لهم . اما عن طريق العمل المباشر المجدي واما بواسطة دروس العلم وحلقات الوعظ والارشاد واما بمشاركتهم بالقلب وذلك اضعف الايمـــان .

وسوف لا نكون قد وفينا المترجم حقه اذا لم نذكر انه من العلماء العصاميين الذين كونوا انفسهم

بالاعتماد على مجهودهم الخاص ومطالعاتهم ودراساتهم الفردية . فقد ولد الفقيد بالرباط فى سنة 1314 ودخل الكتاب وكان اهم العلماء الذين اخذ عنهم السادة: المحدث الكبير المولى محمد المدني بن الحسني المتوفى عام 1378 هـ والاصولي الجليل سيدي محمد بن السيد عبد السلام السائح المتوفى عام 1367 هـ والشيخ ابو شعيب الدكالي المتوفى عام 1356 هـ كما حضر دروس بعض علماء المغرب والمشرق نذكر منهم العلامة محمد الرونـدي ومولاي احمد بن المامون البلغيثي ومحمد ملين وسيدي احمد بن الفقيه الجريري السلوي (المغرب) ومحمد بدر الدين الحسني شيخ دار الحديث الاشرافية بدمشق والعلامة شمس الدين محمد بخيت المطيعي وشمس الدين محمد السمالوطي بمصر .

تلك نبذة عن حياة فقيد العلم والقضاء العلامة الحاج محمد بنعبد الله تعطينا صورة واضحة عن سيرة هذا الرجل العصامي وسلوكه واخلاقه وتنبهنا الى ضرورة الاهتمام بهذا الرهط الكرام من العلماء الاعلام الذين نفقدهم الواحد بعد الآخر . فقد شاهدت السنة الهجرية 1383 الراحلة وفاة عدد مهم من هؤلاء العلماء الذين ما ذهب واحد منهم الا وترك فراغا كبيرا نرجو الله ان يعوضنا فيه خيرا . لقد فقد المغرب فى هذه السنة وحدها علماء افذاذا امثال محمد المختار السوسي واحمد بن جلون ومحمد بنعبد الله بالرباط والعلامة الزرهوني بمكناس فبمن سنعوض هؤلاء معشر المسؤولين عن مستقبل البلاد ؟ تلك صيحة نرسلها وكل املنا ان تجد من كبار المسؤولين آذانا صاغية وقلوبا واعية . اما علماؤنا الذين التحقوا بربهم فقد ابتدات حياتهم الحقيقية الدائمة بموتهم . فرحمهم الله رحمة واسعة واسكنهم فسيح جناته وانا لله وانا اليه راجعون .

الرباط : عبد اللطيف احمد خالص





مع العقاد في شعره

للأستاذ : محمد عبد العزيز الدباغ

نفس ثائرة وطموح مقرون بعمل وصمود في وجه الاحداث ، واخلاص في الوطنية والكفاح ، وولع بالدراسة عظيم ، وعمق في البحث متزن ، ودفاع عن القيم الصالحة والمثل العليا .

ذاك هو العقاد في حياته منذ الكتابة على تثقيف نفسه الى يوم نعيه .

لقد كان العقاد بطبعه ميالا الى عدم الاستسلام للجمود والتقليد ومباركة الواقع ، بل كان يفكر كثيرا ويقارن بين حياة العرب الواقعية وبين ما يجب ان تكون عليه ، فهو دائما كان يدعو الى المجد والبطولة والعزة والعلم والاستمساك بالاخلاق والعمل على رفع المستوى الاقتصادي للبلاد ، كما كان يدعو الى تحرير العقول من الاستعمار الروحي الذي اصيبت به ، فيشرح تعاليم الاسلام في كتب مختلفة تعتبر من اهم ما كتب عن هذا الدين القويم .

واهم صفة تبرز في حياة العقاد قدرته على تحليل نفوس العظماء وتصوير جوانب العبقرية في نفوسهم ، لذلك نجده اهتم بهذا الجانب في انتاجه سواء كان شعرا او نثرا .

فلقد كتب العقاد عن اهم عظماء العالم كتبا ومقالات وقصائد أفصح فيها عن سر بطولتهم واسباب عظمتهم ، وكأنه باطلاعه على حياة هؤلاء كان يبني حياة نفسه ، فقد اقتبس منهم مقومات البطولة وانتهجها فداب على العمل صابرا ، ووقف نفسه على الدراسة والتفكير حتى أصبح من اساطين العلم والفلسفة والادب في القرن العشرين .

لقد كان العقاد مولعا بالتجديد والابداع والابتكار فدفعه هذا الولع الى الاسهام في خلق مدرسة شعرية تعد اساسا للادب الرومانسي في الادب العربي وسببا في النهضة الادبية الحديثة التي تزعمتها مدرسة ابولو ومدرسة ادباء المهجر .

ان مدرسة العقاد كانت تدعو الى الابتعاد عن التقليد في تصوير العواطف ، والى اجتناب التفكك في القصيدة لانه يفقدها وحدتها ويجعلها مضطربة لايحس القارىء بعد قراءتها بتأثير الموضوع في نفسه ، كما دعت الى توليد المعاني من احداث الحياة في شتى مظاهرها ومن كل شيء عارض ، فهي لا ترى أن مواضيع الشعر محدودة او مظاهر اثارة الشعور منحصرة في بواعث خاصة ، لان بواعث الشعر مرتبطة بنفس الشاعر فاذا كانت تلك النفس رقيقة مرهفة الحس استطاع صاحبها ان يغوص عن المعاني وان يعبر عن خوالجه تعبيرا جميلا .

واهم البواعث عند هاته المدرسة في نظم الشعر ، الحب وصدق العاطفة وجمال الطبيعة وتحبيب القيم المعنوية والاعتزاز بالنفس وتخليد مظاهر البطولة وابراز الخواطر والتأملات ، فهي قد حررت الشاعر من ربقة العبودية وابعدته عن التملق والتكسب واستعمال الشعر في الترفيه على الولاة والحكام والاغنياء ، لذلك قالت الدكتورة نعمات احمد فؤاد عن هاته المدرسة (انها نفت عن الاديب صفة النديم والسمير ، ووضعته في مكانه من القيادة الروحية العاملة على توسيع المدارك وصقل الاذواق) (*) .

* ادب المازني للدكتورة نعمات احمد فؤاد صفحة 39 طبعة 1961 .

ولم تكن هاته المدرسة الابتداعية التي اسسها العقاد مع صديقه المازني وعبد الرحمن شكري سوى دعوة الى نهضة ادبية تبعد الادب العربي عن مناهجه التقليدية وتبعث فيه روحا جديدة تجعله قريب التناول منسجما مع الادب العالمية ، ولقد تأثر اصحابها بالادب الانكليزي كثيرا ، واستوعبوا الادب العربي القديم ، فمزجوا في انتاجهم بين الادبين وجعلوه صورة حية تمثل اسمى ما في نفوسهم من صفات ، واجمل ما في اسلوبهم من روعة وجمال .

الا ان الذي يتتبع شعر هاته المدرسة يرى ان الاوزان الشعرية القديمة قد استعملتها ، كما اباحت استعمال الموشحات والشعر المزدوج وخلق بعض الاوزان الجديدة التي ترتكز على قواعد خاصة ، اما التحرر المطلق من الاوزان والقوافي فان هاته المدرسة لم ترضه ، وكان العقاد يرى ان الثورة ضد الاوزان والقوافي انما هي منبعثة عن الجهل والعجز وعدم التمكن من قواعد اللغة العربية .

ولا شك ان هاته المدرسة وان التزمت هاته الخطط في مناهجها فهي لم تتحكم في شخصية الشاعر وفي فلسفته في الحياة وفي اسلوبه الخاص في التفكير والتعبير ، لذلك اذا ما تتبعنا شعر العقاد فسنجد فيه جوانب فنية خالصة ، فسنحس بالقدرة على التصوير والتعبير وتوليد المعاني ، وسنلاحظ انه كان يعتمد على الفكرة في جل شعره .

لقد كان العقاد يتناول الاغراض الشعرية المتنوعة ، ولكنه كان يبدع في الوصف وفي ابراز عواطف الحب الكامنة في نفسه ، وفي ابداء خواطره الفلسفية التي اقتبسها من تجاربه ومن ثقافته الواسعة التي روضت فكره على التعمق في البحث والامعان في الملاحظات .

لقد تحدث في شعره عن الانسان وعن سر وجوده وعن عجزه عن معرفة سر الكون الغامض وعن حاجته الى الايمان ، كما عبر عن كثير من خوالجه وتأملاته وارتساماته التي كانت مرآة لآرائه في الحياة ومن ذلك قوله .

ما وجدنا من البرية الا
خلقا زائفا وجهلا مبينا (*)
حشرات لا تعرف الخير والشـ
ـر وفيها الهلاك للعارفينا

وقوله :

انصفت مظلوما فانصف ظالما
في ذلة المظلوم عذر الظالم (*)
من يرض عدوانا عليه يضيره
شر من العادي عليه الغاشم

وقوله :

اذا صاحت الاطماع فاصبر فانها
تنام اذا طال الصياح على النهم (*)
وقهر الفتى الآمه فيه لذة
وفي طاعة اللذات شيء من الالم

الا ان الذين يتتبعون شعر العقاد سيجدون طابع التبرم والشكوى متجليا على اغلبه ، يظهر ذلك في جل الاغراض التي نظم فيها ، ولقد كان يحاول ان يخفف بالشعر عن نفسه من حين لآخر ، لكنه لم يزده الورد الا عطشا فهو الذي يقول :

ظمآن ظمآن لا صوب الغمام ولا
عذب المدام ولا الانداء ترويني (*)
حيران حيران لا نجم السماء ولا
معالم الارض في الغماء تهديني
يقظان يقظان لا طيب الرقاد يدا
نيني ولا سمر السمار يلهيني
غصان غصان لا الاوجاع تبليني
ولا الكوارث والاشجان تبكيني
شعري دموعي وما بالشعر من عوض
عن الدموع نفاها جفن محزون
يا سوء ما ابقت الدنيا لمغتبط
على المدامع اجفان المساكين

* عن الديوان الاول صفحة 26 .
* عن ديوانه وحي الاربعين .
* عن الديوان الاول ص 27 .
* الجزء الثاني من ديوان العقاد صفحة 194 .

اســوان اســوان لا صفــو الحيــاة ولا
عجــائــب القــدر المكنــون تغنيتنــي
اصاحب الدهــر لا قلــب فيسعدنــي
على الزمــــان ولا خـــل فياسونــي
يديك فامــح ضنــى يا دهــر فى كبــدي
فلســت تمحــوه الا حيــن تمحونــي

ان هاته القصيدة تعد بحق من اروع قصائــد العقاد ، انها نفثة من نفثاته ، انها عصارة حبه ، انهــا مرآة وضاءة لنفســه الرقيقة الحزينة القلقة .

انه ظمآن حيران يقظان ، انه غصان اسوان حزين، يستعمل الشعر للتخفيف عن آلامه واحزانه ولكـــن الشعر لا يطفيء اواره كما تطفيء الدموع احزان المحبين .

انــه يعيش وحيدا فى هذه الحياة لا يجــد قلبــا يسعده ولا خلا يأسوه .

انه يتمنى ان تنتهي حياته وان يمحــوه المــوت من الوجــود لتفنى حسراته واناتــه .

وهكذا نجد العقاد يصور خوالجه وفيها من رنات الاحزان ما يسترق القلوب ويستجلب المدامع .

ولعل هذا القلق من الحياة هو الذي دفعه الــى الحذر منها والى التفكير فى مصير الطارئين عليها انهــا ما دامت حياة الام واحزان فلماذا يعمل من جديد على ايجاد ابنائه فيها : لهذا آثــر حياة العــزوبة على حياة الزواج لئلا يترك بعده ولدا يشقى ، فهــو مــن هــذا الجانب شبيه بالمعري الذي كان يقول :

واذا اردتــم بالبنيــن كرامــــة
فالحـــزم اجمــع تركهــم فى الاظهـــر

وقد كتب العقاد قصيدة رائعة جعلها حوارا بين المعري وابنه ، الابن يريد ان يخــرج الى الوجــود وان يستمتع بالحياة ؛ فقد ضاق بالعــدم واراد ان يــرى مفاتن الطبيعة وان يستلذ بمحاسنها ، انــه يتــوق الى رؤية الوجوه الحسان ، ويود ان يرى الورود والازهار والفلا والبحار . ولكن الاب يشرح لابنه اسباب اعراضه، فيقــول عــن الحيــاة :

شــرهـا يـــا بنــي شـــر ثقيـــل
خيرهــا يــا بني خيــر قليــل (*)
اهلهــا يــا بنى اهــل حقــود
زعمــوهــا الى الخلـــود تــؤدي
مــا رأينــا ســوى فنــاء ولحــد
فيــه مــود على تجاليــد مودي
قــف ببــاب الحيـــاة لا تدخلنهـــا
واعتصم يــا بنــي مــا استطعت منهــا
سوق الهالك ــ فانتظــر ــ بالوصيد

وكان العقــاد جعــل هاته القصيدة تعبيرا عمــا يحس به ، لذلك قدمها بتعليق وجيــز قال فيــه عــن المعري انه والدرزوف ضد ابنائه عــن الحياة رحمــة بهم ، فيالها من رحمة لا يعرفها له ابناؤه .

انه اذن يرى ان صد الابناء عن الحيــاة ليس الا رحمــة بهم لئلا تدوسهم باعبائهــا وتثقلهم باحزانهــا وترهقهم بما فيها من احداث وطواريء وليسلموا مــن اهلهــا الحاقديــن .

وكاني بالقاريء يتساءل عن اثر هذا التشاؤم فى حياة العقاد . لان التشاؤم غالبا ما يكــون مدعــاة الى اليأس والحرمان والاستسلام وعرقلة فى البلــوغ الــى الاهداف التي يرتجيها الانسان ، وفرارا من الصمود فى وجه المصائب والاستفادة من مدرسة الدهر ، وايمانــا بان الشر اصيل فى هذا العالم وان لا منجــاة منــه ولا منــــاص .

مع اننا اذا تتبعنا الاهداف التي كــان يقصدهــا العقاد من تشاؤمه نجد انه كان يستغله لاثارة غريــزة الخير فى الانسان ، فهو اذا صور الرذيلة فانما يريـــد بذلك ان ينفر الانسان منها ، واذا تضايق من معاملــة البشر بعضهم لبعض فانما يريد بذلك ان يخفف مـــن ســورة الظلم فى النفوس الطاغية عساها ان تشعـــر بالشر الذي ترتكبه فترق اخلاقها وتعمل للمصلحــة الانسانية عامة . وقد حقق بعض الباحثيــن ان الادب كلما كان هادفا الى اصلاح المجتمعات فهو ادب ايجابي ثوري ؛ وان قدم فى صورة تشاؤمية (*) .

---

* الديــوان الثانــي صفحــة 184 .
* لا باس من قراءة مقال فى (المجلة) الســنة الســابعة عدد 81 ســبتمبر 1963 للدكتــور محمد غنيمي هــلال عنوانه : لا تفاؤل ولا تشاؤم بل ثورة او تمــرد .

وكذلك كان ادب العقاد وشعره سواء فيما قدمه من خواطر انسانية او فيما جعله صورة لمجتمعه وبيئته.

وقد استغل هاته الطريقة في شعره الوطني والاجتماعي ، فهو عندما اراد ان يدعو مواطنيه الى العزة والصمود والاستقامة والكرامة لم يقف موقف الواعظ ، ولكنه وقف موقف الاديب الثائر فصور مجتمعه وكانه متشائم من الاوضاع التي يراها ، فالمائعون المتملقون يتولون اسمى الوظائف ، واعيان الدولة جماعة ضعفت نفوسهم وقلت علومهم وفشت خستهم ودناءتهم وكثر نفاقهم وتملقهم وجثوا خاضعين تذللا ، واللئام قد بلغوا اسمى الدرجات فكانهم القرود وقد اعتادوا التسلق ، فهو الذي يقول في قصيدة جعل عنوانها « زماننا » (*) :

فشت الجهالة واستفاض المنكر
فالحق يهمس والضلالة تجهر
والصدق يسري في الظلام ملثما
ويسير في الصبح الرياء فيسفر
انا لفي زمن كان كباره
بسوى الكبائر شانها لا يكبر
من كل ذي وجه لو ان صفاته
تندى لكان من الفضيحة يقطر
بئس الزمان لقد حسبت هواءه
دنسا وان بحاره لا تطهر
وكان كل الطيبات يردها
فيه الى شر الامور مدبر
سبق اللئام الى ذراه فقهقهوا
ان القرود لبالتسلق اخبر
ما نيل فيه مطلب الا له
ثمن من العرض الوفير مقدر
وبقدر ما بذل امرؤ من قدره
يجزى فاكبر من تراه الاصغر

ان هاته الصيحات المدوية لايمكن لاي قارىء ان يتصورها صيحات اليائسين او المتشائمين العابثين ، وانما هي صيحات ثائرة تحاول ان ترفع روح الانسان وان تهديه الى المثل العليا .

انها صيحات تفك القيود وتصل الى اعماق النفس فتحررها من الذل والطغيان .

انها مبدا الانطلاق الى حياة افضل وانسانية سمحاء يرتفع فيها الانسان عن مباذله ويتنزه عن شروره .

انها صيحات منبعثة عن شاعر كان يؤمن برسالة الشعر في الحياة ، شاعر رجانا منذ نشره ديوانه الاول (*) ان لا نبكيه بعد موته وانما نعيد على سمعه الشعر فيطرب ، انه الذي قال في عنفوان شبابه :

اذا شيعوني يوم تقضي منيتي
وقالوا اراح الله ذاك المعذبا
فلا تحملوني صامتين الى الثرى
فاني اخاف اللحد أن يتهيبا
وغنوا فان الموت كاس شهية
وما زال يحلو ان يغنى ويشربا
وما النعش الا المهد مهد بني الردى
فلا تحزنوا فيه الوليد المغيبا
ولا تذكروني بالبكاء وانما
اعيدوا على سمعي القصيد فاطربا

فما على الادباء الا ان يستلهموا من حياة العقاد قبسا ينيرون به الطريق امام الانسان التائه ، فالعالم ما زال في حاجة الى مرشدين مؤمنين ، وشعراء ذوى حساسية رقيقة يجعلون ادبهم هادفا الى اصلاح الانسانية ونشر الوعي بين افرادها .

فهل من مجيب ؟

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ

(*) الجزء الاول من ديوانه صفحة 111 .

(*) اول ديوان نشره العقاد جعله اربعة اجزاء في مجلد واحد وسمي كل جزء باسم خاص : الجزء الاول « يقظة الصباح » ، والثاني « وهج الظهيرة » ، والثالث « اشباح الاصيل » ، والرابع « اشجان الليل » ، وللعقاد دواوين اخرى وهي : هدية الكروان ، وحي الاربعين ، عابر سبيل ، اعاصير مغرب ، ما بعد الاعاصير ، ما بعد البعد .

إحياء التراث

للأستاذ عباس الجراري

التراث هو ذلك الارث الذي وصلنا على مر العصور والازمان والذي لا يزال ماثلا في حياتنا متمثلا في جميع ما انتجته عقول الاجيال السابقة وما اوحت به قلوبهم من علوم وفنون وآداب هي خلاصة حضارة هذا البلد وثمرة عبقرية ابنائه .

وهو نوعـــان :

احدهما معطل في المتاحف والخزائن لا يحيا الا بقدر ما نبعث فيه من روح .

والثاني تضمه العادات والتقاليد والفنون وما اليها من المأثورات الشعبيـة التـي لا زلنا نمارسهـا ونمدها بالحياة .

والتراث بنوعيه في حاجة ماسة الى رعاية من ابنائه تحفظه من الضياع وتصحح النظر اليه . ولن تكون هذه الرعاية غير عملية احياء هي السبيل الى فهم تاريخنا على غير ما فسرته لنا مدرسة الاستعمار، والى معرفة حضارتنا والوقوف على آثارها ومقوماتها واسباب ازدهارها وانهيارها ، وبالتالي ادراك الصلة الحقيقية بين ماضينا والحاضر وتمثل ملامح هذه الصلة وسماتها . والاحياء قبل هذا وبعد صون لوجودنا وفهم لقيمنا وجمع لأشتات كياننا والقوة الدافعة لنا في نهضتنا وبناء مستقبلنا .

والعملية تقتضي منا باديء ذي بدء ان نوضح امــريـن :

أولهما ان التراث مادة غزيرة وخام تحتاج الى كثير من الفحص والغربلة والمناقشة في حذر ويقظة ووعي وتجرد عن الاهواء والميول الخاصة وجرأة لا تتحرج الا مما يمس القيم العلمية والمقدسات الوطنية، اذ ما من شك ان شوائب وخرافات كثيرة داخلت تراثنا على مر العصور المظلمة التي عاشتها بلادنا علينا ان نصفيه منها لنزيل عنه كل آثار المسخ والتزييف ولنأخذ منه ما قد ينفعنا في حاضرنا ونطوره بما يتفق وحياة العصر ونخرج باشياء جديدة نضيفها الى ما نهضم من تراث الآخرين لنخلق لجيلنا والاجيال الصاعدة ثقافة وحضارة تطبعهما روح وطنية انسانية.

الثاني ان الاحياء ليس هدفا في ذاته بمعنى ان نكتفي منه بالتفاخر والمباهاة والقعود عن العمل المثمر الجاد ، وانما هو مجرد حجر اساس ونقطة انطلاق ودافع لنا في تجربتنا الحاضرة وكفاحنا من اجل بناء الغد المنشود .

والعملية بعد هذا تختلف باختلاف نوعي التراث. فبالنسبة للآثار الشعبية ــ وقد سبق ان تحدثت عنها جملة وتفصيلا ــ (*) يتعين اتباع هذه الخطوات :

اولا ــ انشاء معهد للفنون الشعبية .

ثانيا ــ ارسال بعثات دراسية لتكوين خبراء وباحثين متخصصين في علم الفولكلور .

ثالثا ــ حصر مختلف الوان التراث الشعبي .

رابعا ــ تنظيمه وصيانته في الخزائن والمتاحف

خامسا ــ نشره على اوسع نطاق بواسطة اجهزة الاعلام المختلفة .

سادسا ــ القيام بدراسات علمية وفنية تستهدف تحديد خصائصه وتوضيح ملامح الشخصية المغربية من خلاله .

سابعا ــ تطوير الصالح من هذا التراث واستيحاء اضافات جديدة من مادته لخلق الوان جديدة من الادب والفن .

واما بالنسبة للتراث المكتبي ، ونطاقه اوسع من التراث الشعبي الذي يطغى عليه اللون المحلي ، فالامر يختلف بعض الشيء . ومن المعروف ان ما وصلنا منه ليس غير الجزء الذي استطاع ان يقاوم الظروف والاحداث ، اذ لا يخفى ما تعرضت له المكتبة العربية من كوارث اضاعت كثيرا مما انتجه الفكر العربي طوال عصور واجيال . فما اظننا ننسى ما فعله المغول عند استيلائهم على بغداد من احراق الكتب والقائها في نهر دجلة لدرجة اصبح ماؤه أسود من مدادها وتألق، منها

(*) مجلة دعوة الحق . العدد الثاني والرابع والسادس من السنة السادسة .

جسر كان الناس يعبرونه رجالا وركبانا . وما اظننا كذلك ننسى خزانة زيدان السعدي التي كانت موجودة بمراكش والتي كان القنصل الفرنسي كاستيلا ينوي تهريبها الى فرنسا لو لم يخطفها منه القراصنة الاسبان ويحولونها الى الاسكوريال . وغير هذه وتلك خزائن لا حصر لها ذهبت ضحية العدوان او الاهمال فذهب معها جانب من تراثنا لو وصلنا كله او بعضه لافدنا منه الشيء الكثير .

وليس المهم الآن ان تندب الحظ ونبدي الحسرة فما ذرف الدموع بمعيد ما ضاع ، وانما المهم ان نحمي الجزء الذي تبقى من التلف والاهمال والضياع ونبعث فيه من روحنا ما يفيض عليه القوة والحياة ويمدنا بطاقات جبارة للعمل المنتج الخلاق .

والحق ان الجهود التي تبذل في هذا الشان كثيرة لا مجال لحصرها في هذا المقال ، خاصة وان مراتب اهميتها متفاوتة — ولست اعني الجهود الفردية والعفوية التي يغلب عليها طابع المساومة والتجارة ، وانما اعني جهود الهيئات العلمية التي تعتمد على التنظيم والتخطيط .

فقد دعا المجمع العلمي العربي بدمشق المنشا سنة 1919 الى النظر في اللغة ونشر آدابها واحياء مخطوطاتها ، كما دعا المجمع العلمي العراقي المنشا سنة 1947 الى حفظ المخطوطات والوثائق العربية النادرة واحيائها بالطبع والنشر . وكذلك فعلت وزارة الثقافة في سورية ووزارة التعليم في مصر ووزارة الشؤون الاسلامية في المغرب ووزارة الثقافة والانباء في الكويت وغيرها من الهيئات المسؤولة في مختلف البلاد العربية واهمها جميعا معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية .

انشيء هذا المعهد بقرار من مجلس الجامعة سنة 1946 وتحددت مهمته كالتالي :

اولا — جمع فهارس المخطوطات العربية الموجودة في دور الكتب العامة والخاصة وفهارس المخطوطات التي يمتلكها الافراد لتوحيدها في فهرس عام .

ثانيا — تصوير اكبر عدد ممكن من المخطوطات العربية القيمة .

ثالثا — وضع هذه المصورات تحت تصرف العلماء بعرضها لمن يطلبها للاطلاع عليها بواسطة الآلات العارضة المكبرة او باعطاء صور مكبرة منها باسعار مناسبة او باعارة نسخة ثانية منها للعلماء الذين يطلبونها من البلدان الاخرى عن طريق المؤسسات العلمية او بارسالها راسا اليهم باسعار مناسبة .

رابعا — طبع صور المخطوطات القيمة التي نصها صحيح وخطها مقروء ونشر نصوص المخطوطات ذات الاهمية الكبرى .

خامسا — تنظيم التعاون بين العلماء والمؤسسات العلمية في سبيل نشر المخطوطات وتزويد الناشرين بالمعلومات اللازمة عن المخطوطات التي يعنون بها واعلامهم باسماء من يعني بمخطوطات مماثلة لمخطوطاتهم او مشابهة لها .

وقد اوفد المعهد بعثات لتصوير القيم من المخطوطات التي تحتويها خزائن الكتب في مصر وسورية والاردن وتركيا والهند وايطاليا وايران ولبنان والسعودية وتونس والمغرب . ولمنظمة اليونسكو فضل كبير في تصوير المخطوطات ، فقد انشات وحدة متنقلة للتصوير بدات عملها في المغرب ، حيث صورت الفا ومائتي مخطوط اي ما يقرب من مليون ورقة ، وهي تتابع الآن نفس العمل في ليبيا ومصر . وقد عقد اتفاق بين الجامعة واليونسكو سنة 1961 حصل المعهد بمقتضاه على معونة عينية من اليونسكو تتضمن المواد اللازمة لمعمل التصوير الخاص بالميكرو فيلم والمعهد الى جانب هذا يصدر فهارس للمخطوطات ظهر منها حتى الآن ثمانية اجزاء كما يصدر مجلة تعرض نشاطه وتعرف بالمخطوطات العربية وتبحث شؤونها سواء في البلاد العربية او غيرها ، ينتظر ان يظهر عددها التاسع هذه الايام .

ويعتبر مشروع المكتبة العربية الذي اعده المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في الجمهورية العربية المتحدة اهم مشروع بعد معهد المخطوطات يعني بشؤون التراث . وهو مشروع كبير يتضمن تحقيق التراث العربي ونشره وترجمة مختارات من نتاج الفكر العربي الى اللغات الاجنبية الحية وترجمة مختارات من نتاج الفكر الاجنبي الى اللغة العربية ووضع مؤلفات في الموضوعات التي لا تزال المكتبة العربية بحاجة اليها .

وبالنسبة لتحقيق التراث وضع المجلس قوائم تتضمن اسماء المخطوطات التي اقترحت اللجنة المختصة تحقيقها ونشرها واسماء مؤلفيها وبيان النسخ الخطية التي يمكن الاعتماد عليها في التحقيق

والامكنة المحفوظة بها هذه النسخ . واقترحت اللجنة ان يراعى في اختيار الكتب التي تحقق ان تكون الاولية فيها للمخطوطات التي لم يسبق نشرها او نشرت غير محققة ثم الكتب التي نشرت محققة في نطاق محدود او يتعذر تداولها في العالم العربي لقيود مالية او نحوها ثم الكتب التي نفدت طبعاتها ، وعند توافر كتب متعددة في موضوع واحد تكون الاولية للكتب الاصلية في الفن او الجامعة فيه . ويستوفي البحث عن جميع الاصول المخطوطة والمطبوعة ان كانت تمثل اصلا للكتاب المزمع نشره .

هذه هي اهم مشروعات صون التراث واحيائه، فما مدى النجاح الذي حققته او ينتظر منها ان تحققه ؟

الواقع انه بالرغم من الجهود الضخمة التي يبذلها معهد المخطوطات في النطاق العربي الواسع والمجلس الاعلى لرعاية الآداب والفنون في نطاقه المحلي الضيق ، فاني اخشى الا تكون النتائج مرضية على الوجه المطلوب . فعدم تنسيق العمل بين معهد المخطوطات والهيئات العلمية الموجودة في البلاد العربية تنسيقا يوحد الخطة ويوفر الجهد ، وعدم اشراك البلاد العربية اشراكا فعالا في الاعمال العلمية ، وعدم توفر الروح العلمي اللازم لهذه الاعمال ، كل هذه عيوب تجعل المشروع – اي مشروع – كيفما كانت ضخامة الجهود التي تبذل لتحقيقه ، عاجزا عن حمل عبء حماية التراث العربي واحيائه على مستوى عربي كبير . فالاسف شديد ان النزعات المحلية والاهواء الخاصة ما تزال مسيطرة على العقول . وحتى لا يظن بي ميل من هذا النوع ارى ان اوضح كلامي بمثالين ملموسين :

الاول ان الكتب التي اقترح مشروع المكتبة العربية تحقيقها وتعد بالعشرات اسندت جميعها الى عدد معين من المحققين المصريين بالرغم من ان جزءا منها يهم بلادا عربية اخرى قد يتوفر من الكفاءات ما لا يتوفر لغيرها .

الثاني اني حين اطلعت على مشروع المكتبة العربية ووجدت ضمن قوائمه رحلة العبدري المغربية اتصلت بالمسؤولين واطلعتهم على اهتمامي بهذه الرحلة التي انوي تقديمها اطروحة تكميلية لدكتوراة الدولة الفرنسية ، فاقتنعوا بضرورة اسناد تحقيقها الي لا بصفتي مهتما بها فحسب ، وانما بصفتي مغربيا كذلك . ولكني فوجئت بعد ذلك حين اخبرني مسؤول كبير ان اللجنة المختصة لا توافق على نشر هذه الرحلة لما فيها من نقد لاذع لمصر والمصريين .

واذن فلا سبيل الى حماية التراث واحيائه غير قيام كل دولة عربية بوضع تخطيط خاص لمعرفة تراثها المكتبي وصيانته وتحقيقه ونشره ثم اجراء تنسيق على نطاق عربي واسع للتعرف على ما في كل قطر من مخطوطات وتبادل النسخ المصورة منها وتوحيد قواعد التحقيق او التقريب بينها على الاقل .

ونظرا لما هي عليه حالة التراث في كل اركان الوطن العربي ، ونظرا لما تتطلب حمايته من تخطيط وتنظيم ، فاني ارى ان تمر العملية بالمراحل الآتية :

اولا – انشاء هيئة علمية عليا لحماية التراث واحيائه تكون مهمتها الاشراف والتنظيم .

ثانيا – تكوين لجنة فنية متفرعة من هذه الهيئة لو ضع قواعد تحقيق المخطوطات .

ثالثا – انشاء معهد او شعبة دراسية بكلية الآداب للتخصص في فن تنظيم المكتبات وصيانة المخطوطات .

رابعا – حصر المخطوطات ، ويحتاج الى بحث في كتب الفهارس والبرامج وغيرها من المؤلفات التي تعني بذكر الكتب والتعريف بها .

خامسا – جمعها وينبغي ان يكون شاملا مستقصيا لكل المخطوطات لا فرق بين التافه منها والمهم . ويقتضي بادىء ذي بدء ان تمنع الدولة خروج اي مخطوط وان يعلن اصحاب المكتبات الخاصة عما لديهم من مخطوطات يكون للدولة حق تصويرها واقتناء النادر منها مقابل تعويض يرضي اصحابها .

سادسا – فهرستها وتنظيمها .

سابعا – تحقيقها على اساس من الدرس والبحث لاستخلاص المعاني الكامنة التي تربط قديمها بالحديث

ثامنا – نشرها ، وهي مرحلة ختامية تقتضي ان تعني الدولة بنشر الكتب المتعلقة بها على ان تكلف هيئة التنسيق – ولكن معهد المخطوطات – بنشر المعاجم والكتب الضخمة التي تحتاج الى وسائل وامكانيات كبيرة .

القاهرة : عباس عبد الله الجراري

مع ابن الفارض في غزله

للأستاذ عبد الكريم الكتاني

ما اكثر ما يطلقها الناس احكاما قاسية ظالمة عن علم او عن جهل على ((التصوف)) و ((المتصوفين)) . ونحن ها هنا ((مع ابن الفارض في غزله)) لا نحب ان ننصفه من هؤلاء الناس ولا ان ننصف الناس منه ، ولكنا نود ان نعرضه لهم كما هو ادبا رفيعا وذوقا جميلا وحساسية مرهفة وفنا رائعا ونفسا صافية محلقة في عالم الادب والفكر والذوق . اذ ما اسهل ان نمدح الرجل في سطور فترفعه الى القمة بكلمات ... او نذمه في سطور فننزل بدرجته الى الحضيض في كلمات ... ولكن الصعوبة كل الصعوبة في العرض والتحليل وبيان مواطن المذمة او اماكن المدحة والثناء .

بين ايدي اولئك وهؤلاء ازجي هذا العرض .

*

تعريف وتحديد :

التصوف حركة فكرية اسلامية قامت على اساس من عبادة الله وطاعته وتقواه ، ثم اخذت تتطور — مع الايام — حتى اصبحت مذهبا من مذاهب الفكر في الاسلام ، وطريقا من طرق التفكير في الحياة يهدف الى محبة الله والفناء فيه ، في صبر وثبات واخلاص ووفاء وشوق .

واذا ما اتيح لنا هاهنا ان نجانب الكلام عن فلسفة التصوف ، ونعتزل اقوال المتصوفين في نظرية ((وحدة الوجود)) امكننا ان نرى في التصوف تعبيرا عن تجربة وجدانية عاطفية ، موضوعها حب الانسان المتصوف لله .

وانا لنلمس في هذا التعبير روحا جمالية مشرقة، وذوقا فنيا مرهفا لا نملك معهما الا ان نعتبر آثار المتصوفين في هذا الموضوع من رائع تراث ادبنا الاسلامي

حب ابن الفارض :

وابو حفص عمر بن الفارض احد هؤلاء الذين عاشوا هذه التجربة الوجدانية في اواخر القرن السادس الهجري واوائل القرن السابع قبل سقوط بغداد .

وهو ينتمي الى اسرة شامية كانت تسكن حماه ، فهو على ذلك قد ورث عن ابيه واسرته صفاء الطبع الشامي ورقة المدرسة الشامية في الادب العربي . وبالقاهرة ولد وفيها تلقى دروسا في الفقه الشافعي وفي الحديث ، وبها اصاب ميلا الى التصوف ثم رحل الى الحجاز (*) الارض التي جعلها موطن غرامه بالجمال ومعراج حبه المقدس للذات العلية .

ولا ندري كم مكث في تلك الربوع الحجازية ، وان كنا نرجح انه قضى فيها معظم ايام حبه ، وبها غنى اروع اناشيد عشقه وغرامه ثم عاد بعد ذلك الى مصر ليقضي فيها بقية حياته والها مشتاقا .

بين حبين : عاش ابن الفارض زهاء اربعين سنة يقول شعره من وحي الحب (*) ولكن اي حب

(*) دائرة المعارف الاسلامية ص 1047 مجلد 3 .

(*) « التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق » لزكي مبارك مطبعة الرسالة ص 291 .

هذا الـذي ملـك على صاحبنـا قلبـه ؟ هـل كـان حبا انسانيا حسيا أول الامر ثم حال بعد ذلك حبـا الاهيا رمزيا ؟ ان قارىء ديوان ابن الفارض يستطيع ان يزعم لنفسه أن الرجل قد بدأ حياته بحب انساني طبيعي غناه في اكثر من قصيدة ثم سما في بعض قصائده القليلة الى حب الاهي قدسي وذلـك ما فعله بعض الادباء (*) ولكنا اذا ما قرأنا قصائد الديوان حالـت بيننا وبين اعتقاد هذا الرأي أناشيد الحب الالاهي فيه، وموسيقى إيباتهـا الداخليـة ، والحانها القدسيـة ، ونفحاتها العلوية ، مما يجعلنا نعتقـد أن شعـر ابـن الفارض ملحمة غزلية في تمجيد الله .

حب الذات العلية : عاش ابن الفارض تجربة المتصوفين بحسه وروحه عذبة مرة ، وقاسى فيهـا ضروبا من المشقة والاهوال ، وتفيأ فيهـا ظـلالا من الامن والاطمئنـان واجـدا في أحوالـه كلها السعـادة الروحية ـ هدفه الاول من حبه الالاهي ـ فتغنى بهذه التجربة في نفس ملحمي قوي : غنانا مذهبه في حبـه للذات العلية ، وسلك بنا مراحل حبه الخالد الـذي انتهى به الى عشق الجمال المطلق في هذا الوجود .

مذهبه في الحب : كـان ابن الفارض عالمـا بمذاهب الحب المختلفة ، وبمبادئه الشاقـة الصعبـة ، ومن ثم كان من مذهبه فيـه ان الحـب كبيـر الا على المتصوفين ، الصابرين على مهاناته واهواله ، القادرين على مراسه ، الذين يرون موتهم فيه حياة يهبها المحب لهم ، والشهادة في سبيله سعادة ينعم بها عليهم :

هو الحب ـ فاسلم ـ بالحشا ما الهوى سهل
فمـا اختـاره مضنـى بـه ولـه عقـل
وعـش خاليـا ، فالحـب راحتـه عنـا
واولـه سقـم ، وآخـره قتـل
ولكـن لـدي المـوت فيـه صبابـة
حيـاة ، لمن أهـوى علي بهـا الفضـل
نصحتـك ، علمـا بالهـوى ، والـذي ارى
مخالفتي ، فاختـر لنفسـك مـا يحلـو
فان شئت ان تحيـا سعيـدا ، فمـت بـه
شهيـدا ، والا فالغـرام لـه أهـل (*)

ذلك مذهب الرجل ما يفتأ يذكرنا بـه ويقرره في كل مناسبة ، مذهب أخذ عليه حسه وروحه ، وسـره وجهـره :

وعن مذهبي في الحـب ما لي مذهـب
وان ملـت يوما عنه فارقـت ملتـي
ولـو خطـرت لـي في سـواك ارادة
على خاطري سهوا ، قضيت بردتي (*)

مراحـل حبـه : بدأ هذا الحـب عن ابن الفارض عنيفا في ظروف يأبى الشاعر ان يصـرح بها ، وليس لنا ـ معها ـ ان نزعم ان اول مرحلة في هـذا الحب كانت انسانية ثم اتجهت بعدها الى الذات العلية . ان ابن الفارض يريد ان يجعل حبه هذا أزليا قديما ، حتى ليحلو لنا ان نتخيل ـ معه ـ انه قد خلق محبا :

فاجـر من قـلاك فيـك معنـى
قبـل أن يعرف الهـوى يهواكـا

ومن هنا كانت مراحل هـذا الحـب غامضـة مضطربة ، متداخلة يزحـم بعضهـا ، ومـا من شـك في انه احب في مرحلة أولى الذات العلية في فترات لينعم بحبه لها ، ثم سما بحبه ، فاحب الله تعالى لذاتـه في مرحلة ثانية على حد قول رابعة العدوية :

احبك حبيـن : حـب الهـوى
وحبـا لانـك أهـل لذاكـا

ثم عرج بحبه في مرحلة ثالثة الى اسمى مرحلة بلغها ابن الفارض في حبه للذات العلية ، هذه المرحلة هي مرحلة حبه للجمال المرحلـة التي بلغ فيها ذروة الفن الشعري ، ونطق فيها بالعبقرية الادبية والسحر الحلال . عند هذه المرحلة وقف ابن الفارض طويـلا فتحدث عنها وأبان . . .

حبـه للجمـال : وكان في بدء هذه المرحلة الثالثة السامية من حبه للجمال يرى المحبين جميعـا ماخوذين بجمال الله الأزلي ـ اصل كل جمال ـ مـذ كان قيس ولبناه والمجنون وليلاه وكثير وعزته :

---

*) « التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق » لزكي مبارك ـ مطبعة الرسالة ص 292 .
*) الديوان ـ الصفحات : 83 و 28 .

فكل مليح حسنه من جمالها
معار له ، بل حسن كل مليحة
بها قيس لبنى هام قبل كل عاشق
كمجنون ليلى او كثير عزة

وانتهى به الامر الى ان يرى حبيبه في كل شيء جميل في هذا الوجود ؛ ويبصره في كل معنى لطيف : في نغمة العود ورنة الناي ، في مراعي الغزلان ومساقط انداء الغمام ، في برد الاصباح والاصيل وفي النسيم العليل ، في رشفة المدامة وفي المقام وفي الرحيل :

تراه ان غاب عني ، كل جارحة
في كل معنى رائق بهج
في نغمة العود والناي الرخيم اذا
تالفا بين الحان من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل ، في
برد الاصائل والاصباح ، في البلج
وفي مساقط انداء الغمام ، على
بساط نور من الازهار منتسج
وفي مساحب اذيال النسيم ، اذا
اهدى الي سحيرا اطيب الارج
وفي التثامي ثغر الكاس مرتشفا
ريق المدامة في مستنزه فرج
لم ادر ما غربة الاوطان وهو معي
وخاطري اين كنا غير منزعج

هنا تبدو لنا نفس الشاعر الذواقة للجمال حقا ، وهي تنطق فنا ، وتصف فنا ، وقد لطف فيها الحس ، وصفت فيها الروح ؛ حتى تسامت عن الزمان وعن المكان وعن المعاني ؛ فاذا آيات الجمال في الكون قد تكشفت لخيال الشاعر ، واذا هو ينقلها لنا امينا عليها كما رآها في آيات من الشعر والبيان والتصوير الرائع الدقيق .

واذا فقد احب ابن الفارض ربه حتى عرفه ، فعرف مكانته منه ، فادل بنفسه وبحبه لله في تضاعيف شعره على ربه وعلى الناس . فبينا هو يلاحظ آيات جمال الله في هذا الكون ، اذا لسانه ينطق مناجيا رب الجمال :

تـه دلالا فانـت اهـل لذاكـا
وتحكم فالحسن قد اعطاكا

ويضيف مدلا على الناس :

كل من في حماك يهواك لكن
انا وحدي بكل من في حماكا

وكذلك كانت منزلته في حب الجمال فوق كل منزلة، فكان امام المحبين في الوجود وسلطان العاشقين كما دعاه الناس بعد ذلك :

يحشر العاشقون تحت لوائي
وجميع الملاح تحت لواكا

ذلك حب ابن الفارض ليس فيه ـ كما راينا ـ من شطحات ولا خروج عن الملة كما يزعم الزاعمون ، وخاصة اذا علمنا ان الرجل كان يتحدث عن حبه في روح قوية ونفس ملحمي مغرق في الرمز واللمح الى حد الغموض .

الرمز عند ابن الفارض :

لم يكن ابن الفارض اول من كنى عن حبه للذات العلية ، ولكنه ـ مع ذلك ـ كان امام الرامزين في الادب العربي ذلك انه كان له في الرمز مذهب وطريقة قبل ان تعرف مذاهب الرامزين في الآداب العالمية : وما من شك في انه كان مسبوقا الى ميدان الرمز من المتصوفين قبله ، كما كان الرامزون في بداية هذا القرن مسبوقين بشعراء آخرين ، وكان ظهوره في القرن السادس للهجرة ـ مع نهاية الدولة العباسية ـ ردة فعل وجدانية ضد ما شاع في ذلك العصر من ترف ومجون واستهتار تماما كما كان مذهب الرامزين الغربيين حركة ادبية معاكسة للمذاهب « الواقعية » و «البارناسية» المغرقة في المادية مع نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن العشرين (*) . وكما قامت العبارة عنده على اللمح والاشارة ، وتحويل الوضع اللغوي للالفاظ الى وضع معنوي خاص بالمتصوفين ، كذلك اسس الرامزون مذهبهم على تحريف الوضع اللغوي للالفاظ

(*) انظر ص 404 :

الى وضع رمزي Transposition وعلى اللمح والاشارات Allusion (※)

وليس من شأننا هاهنا اثبات نقاط الالتقاء او الاختلاف بين ابن الفارض والرامزين ولكنا نريد ان نقرر ان الرجل لم يتخذ الرمز مذهبا في الشعر كما يفعل شعراء اليوم ، ولم يرد بشعره نصرة هذا المذهب او ذاك على غيره من المذاهب المختلفة في الادب والشعر، وانما كان ـ بطبعه ـ مدفوعا الى هذا الرمز دفعا ؛ وكان في اندفاعه هذا يعرف ما يفعل وما يقول . وجد طريق الرمز مفتحة ابوابها بين يديه ، فجعل يعبر عن مواجده باللمحة العابرة ، ويومىء اليها بالاشارة اللطيفة، حفاظا عن سر الهوى وامعانا في كتمان العشق ويتعمد الاغراب فيها حين يريد الاعراب عنها :

سأجلو اشارات عليك خفية
بها كعبارات لديك جلية
وأعرب عنها مغربا حيث لات حيـ
ـن لبس بتبياني سماع ورؤية

وهو يلوح بمعانيه تلويحا ، لانه في الناس من ذوي الحس المرهف والفهم السليم والذوق الرفيع من يفهم عنه ما يقول :

وعني بالتلويح يفهم ذائق
غني عن التصريح للمتعنت
بها لم يبح من لم يبح دمه وفي الا
شارة معنى ما العبارة غطت

وهو في « عباراته » وفي « اشاراته » هذه مدفوع اليها دفعا لظروفه الدقيقة التي تقتضيه التلميح عوضا عن التصريح :

اشرت بما تعطي العبارة والذي
تغطي ، فقد أوضحته بلطيفة

ثم يحاول ابن الفارض بعد ذلك ان يمحو اوهام الناس بآيات الهامة :

فدونكما آيات الهام حكمة
لاوهام حدس الحس عنك مزيلة

فهل بلغ من ذلك بعض ما يريد ؟ ذلك ما سيكشف عنه القسم الثاني من هذا العرض ...

ـ يتبع

عبد الله الكامل الكتاني

(※) انظر ص 30/752

حملات السعديين الى الغرب الافريقي

بقلم : الأستاذ محمد أحمد الغربي

ان من يتصور ان الحملة العسكرية التي ارسلها المنصور الذهبي الى مملكة (مالي) كانت بدافع التوسع الامبرطوري او الحصول على الذهب والفتيان السود لتربيتهم في ديوان الجند يكون قد اهمل بعض الجوانب المهمة التي حركت السلطان واذكت همته ودعته الى ركوب هذا المركب الصعب المحفوف بالمخاطر والمغامرات .

وهناك جملة من المبادىء يجب ان تضعها نصب اعيننا عند اصدار اي حكم في هذا الموضوع . وبعض تلك المبادىء يرجع الى عمق مستلزمات الخلافة الاسلامية وامارة المؤمنين ، كما ان بعضها الآخر يتصل بالاحوال العامة التي كانت تسود المغرب واقاليم افريقيا الغربية . ومنذ صدر الاسلام كانت شروط الخلافة تنحصر في الاسلام ، والعقل ، والعدل والرشد، والبيعة ، النسب القرشي ، ولم تغير خلافات الازد والخزرج والمهاجرين والانصار اي شرط منها ، واذا كان الامويون في الشرق والاندلس ثم العباسيون والعثمانيون قد حذفوا شرط النسب الهاشمي وتجاوزوه واضطرتهم القلاقل السياسية الى مقاومته، مما لا شك فيه ان موقعة (فخ) التي نتج عنها هرب بعض اقرباء علي ابن ابي طالب وحفدة فاطمة الزهراء بنت (الرسول) الى المغرب قد زرع في نفوس المغاربة قدسية هذه الاسرة وجعل المسلمين في الاندلس وشمال افريقيا يتسابقون الى (تامير) عترة النبي والالتفاف حولهم ، وجعل هؤلاء يتشبثون بهذه الطاعة وينفونها عمن لا ينتسب للبيت القرشي الهاشمي . ولا بدع ان تتحول اسرة محمد بن محمد بن عبد الرحمن من بني سعد ، من بيت للتبرك والعلم الى بيت مالك ينضوي تحته نصف العالم الاسلامي . وتتحول اسرة المولى حسن بن القاسم التي اتت من (ينبع) بارض الحجاز الى اسرة مالكة هي الاسرة العلوية الشريفة .

فالسعديون والعلويون من بعدهم لم يستميتوا في فرض طاعتهم ودعوتهم على اقاليم السودان ولم يطمعوا في اعفاء الخلفاء العباسيين والعثمانيين عن مهمة النيابة عن الرسول الاعظم في قيادة المسلمين وحكمهم لم يفعلوا ذلك او يطمعوا منه عبثا ولكنهم كانوا مدفوعين بتقليد يرجع الى السنوات الاولى من عهد الخلفاء الراشدين وبحديث نبوي صريح يقول « الائمة من قريش » .

وزيادة على ذلك فان الكيفية التي كان يعيشها المسلمون بالسوادين ويزاولون بحسبها فروض دينهم ، والزاوية التي كان ينظر من خلالها امراؤهم الى شؤون الدين ، كانت تلح على السلاطين القرشيين في المغرب في التماس الوسيلة لتغييرها ولكن المنصور لم يكن يقتنع ـ كما فعل غيره ـ بارسال الواعظ والدعاة والمقرئين ، ومن هنا بالضبط تطل علينا الاسباب الوقتية التي كانت تحرك المنصور وتداعب قلبه الطموح .

ويخطىء من يظن ان المنصور كان لا يضع في حسابه سوى الفوائد الاقتصادية والمجد العسكري ، او كان يتوق فقط الى اضافة القاب جديدة الى لقبه الذي ورثه من ابنائه واجداده الاقربين . وهناك من المؤرخين من يرونه محقا في عمله بل ومضطرا اليه

بحكم الواقع الدولي التي كان يحيط به ، وبعضهم الآخر لم يلتمس عذرا في استنزاف القوة المالية والعسكرية للدولة واستخدامها في عملية لم تكن رابحة بالشكل المرغوب . وبطبيعة الحال ، فان هذه النظرة الاخيرة التي يتضح فيها التركيز المادي لا نجدها الا عند المؤرخين الاوربيين الذين جعلوها مقدمة لكتاباتهم في الاستعمار الغربي في افريقيا . ونحن لا نخاف من هذه الايحاءات المقصودة التي يراد استغلالها هذه الايام بالذات ، لاننا نورد الى جانبها التاريخ المسنود والحقائق الدامغة لكل تعرض .

ويظهر ان السبب الوقتي المباشر الذي عجل بتحقيق الخطة وتنفيذها يمكن في الاطماع التي بدات آنذاك تراود اذهان دهاقنة المغامرين الاستعماريين البرتغال والاسبان والانجليز فبعض الرحالة الجغرافيين الذين اطلعوا على كتب ابن بطوطة والبكري وليون الافريقي السبيتي ، تحولوا الى كشافين استعماريين حملوا السيف في يدهم اليمنى وراية بلادهم في يدهم اليسرى وركبوا البحر باتجاه افريقيا الغربية التي كان انتشار الاسلام فيها جزئيا وهذا امر لم يعجب المنصور وبعث فيه روح التسابق والرغبة في قطع الطريق على التوسع الذي سينتج عنه زيادة على خطره على الاسلام تقلقل التوازن ورجحان التفوق الاروبي .

ثم ما هي الجهة التي كانت تدخل في دائرة البرنامج البرتغالي الاسباني ، انها بدون شك تضم منطقة واسعة من موريطانيا اي تضم جزءا تدخل اعتباريا وماديا تحت نفوذ السعديين . ومن التنكر للواقع التاريخي والجغرافي والبشري ان يقع فصل ثلث موريطانيا عن بقية هذا الاقليم الذي لم يتوقف المغرب حتى في اوقات ضعفه واعلاله عن التذكير بدخوله في نطاق (ارض البيعة) .

واخيرا فان هذه الانحاء التي كانت كل المؤامرات الخارجية المدبرة من اطراف الاتراك تنصب على سلخها عن المغرب وشحنها بالفتن والثورات قد اصبحت تبدو وكانها كالسيف ذو الحدين ، وجه الى ظهر المغرب في السابق ويمكن توجيهها الى صدر المتآمرين عليه بشكل غير مباشر . فالاموال التي تجني من تعدين الملح الموريطاني ، والمحاربون الشجعان من ابناء موريطانيا والسودان هم الذين علق بهم التفكير عند تصور الطرف الثاني من السيف .

ويستوقفنا هنا حادث لا يخلو من طرافة ، ذلك ان المنصور لماهم بارسال رسوله الى الملك اسكية اسحق الثاني رغب في استشارة (مجلس الملأ) ويظهر ان القوم لم يفهموا جيدا تعقيدات المشكل ولا اوجهه الاستراتيجية او السياسية ، بل انهم استبعدوا ان يطمع النصارى في تلك الغابات التي لا تضم سوى الحيوانات المفترسة والحميات الوبائية ، ولذلك فانهم الحوا على المنصور ان يكتفي بطلب البيعة من الملك اسحق ، ويقنع بالدعاء على منبر مدينة (غاو) .

ولكن قضية استغلال المعادن وترتيب الزكوات عليها ، وتخصيص القسط الشرعي لبيت المال في مراكش كانت من الامور التي لم يتردد المجلس في التاكيد على احقية السلطان بها لانه امير المؤمنين وخليفة لهم بدون منازع . وقد صيغ ذلك على شكل فتوى عامة وارسلت الى الملك اسكية .

ويذكر بعض الفقهاء ان استغلال المعادن والنظر فيها انما هو للامام دون غيره ولم يكن لاحد مطلقا منذ عهد الرسول ان يتصرف فيها الا عن اذن الامير او نائبه وتم ارسل المنصور امره لاسحق الثاني ان يأتيه بالزكوات المرتبة على معدن الملح الموريطاني لتنفق على (جيش الاسلام) وحيث امتنع عن ذلك وما طل لم يبق من عذر للسلطان ان هو تاخر عن اقامة الحدود والزام الملك الزنجي طريق الشرع .

وكثير من المؤرخين الاجانب ومعظم المؤرخين العرب توجههم في كتاباتهم حول اعمال السعديين في السودان وحول الحملات العسكرية التي غزت فيما وراء الصحراء احكام قاسية على تلك الاعمال والحملات، ومن واجبنا تجاه الحقيقة ، ومن التاريخ الافريقي علينا ان نمضي في كشف الدوافع والملابسات ثم النتائج والمعقبات مما ستجعلنا حتما امام عمل ايجابي مهم لا يظهر في كسر جيش او تقويض امبراطورية او هدم مدينة ولكنه يظهر في تدشين عهد من التواصل بين الافريقيين : افريقيا البيضاء وافريقيا السوداء . قد تكون الممالك القديمة في غرب افريقيا ادت في عهد المنصور ثمنا باهضا مقابل ذلك التواصل ، وقد يكون قواد الجيش المغربي قد اساءوا التصرف مع اخواننا فيماوراء الصحراء . ولكن امتزاج الثقافة بين شقي القارة، وزيادة فرص تعارف الاشقاء فيما بينهم ، يرجحان كفة الفائدة على كفة الثمن وهذا جانب له خطورته عند دراسة تاريخ افريقيا كمجموعة من الاجناس والاقاليم والثقافات والمصالح .

وما دمنا نعتبر انه لا توجد سوى افريقيا واحدة، وان تجاوز شعب على شعب آخر ، او استعداء دولة على دولة ثانية او مهاجمة جيش لجيش معاد مما تفرضه طبيعة النزوع السياسي والمطامح المختلفة ؛ فان حملة المنصور لا يمكن تمييزها عن حملة امبرطورية مالي ضد غانا او مملكة سرغاي على مالي او هذه الاخيرة على امارة بورنو . ان السياسة والطموح يفسران كل شيء وان الاتصال والامتزاج هما النتيجتان والحاصلان دائمـــا .

ولكن السؤال الذي لا زال يحير الكثيرين هو : ما ذا كانت الغاية من ارسال زهرة الجيش المغربي الى جهات نائية والى حرب ليست مضمونة ولا معروفة النتائج . ان الكثيرين يجيبون بان الذهب والمحاربين السود هما الغاية الرئيسية رغم ان ذلك لم يكن سوى احدى نتائج الحملة لا سببها والدوافع اليها . الواقع ان المنصور الذهبي الذي رايناه يهوى الجنوب ويهيم بالصحراء ويتطلع الى العالم الذي يقع فيما وراءهما والذي لم يكن يضيع اية فرصة للاطلاع على احواله ذلك الرجل فكر في ان يعيد خلافة الراشدين والامويين ، وان ينهض – باسم خليفة النبي – بحمل راية الاسلام من جهة واقامة امجاد سادات مكة ودمشق وبغداد وقرطبة على ربوع القارة التي بدا الظلام ينزاح عنهـــا .

ولكن الظروف لم تكن كظروف القرون الاولى للهجرة ، فالتقارب بين الشعوب وتعقد المصالح بين الدول ، واختراع الاسلحة النارية الفتاكة وتصارع الامم على مناطق النفوذ باتت تلعب ادوارا لا يمكن اغفالها . وهاهنا نعثر على شخصية المنصور العجيبة شخصية الخليفة الهاشمي الذي يعيش وينشط في كواليس القرون الوسطى .

لقد لعب الرجل جميع اوراقه قبل ان يعبىء جيشه الكثيف ويبعث به الى المجهول ويضعه بين كفي القدر . والاوراق التي لعبها يصح ان تكون تجارب في سير الركب التاريخي ، وقد تكون ذات فوائد اذا ما قدر لها ان تبحث البحث الكافي وتجلي جوانبها ومعطياتها الدفينة .

ان المنصور كان وهو يقدم على عمليته الضخمة يتصور العقبات والاخطار تصورا جديا فلم يكن يخشى جانب العثمانيين بعد ان حصل على تطمينات الباب العالي وامن تدخل الحاكمصدار في الجزائر . ولم يكن يخشى ردود فعل الامبرطورية العظيمة التي كانت تقوم على حدود مالي ، اي امبرطورية بورنو بعد ان وقع الامير ادريس صك البيعة التي اشرنا اليها سابقـا وقراه على منابر ايالته والزم به عماله وقواده وسواد رعيته . ولم يكن يخاف من البرتغاليين الذين كانوا يضمدون جراحات وادي المخازن والاسبانيين الذين كانوا يشغلون انفسهم في مشاكل الوراثة والوصاية على العرش ، او الانجليز الذين ارغمتهم مشاكل اوروبا على الاهتمام بحروب العائلات الحاكمة . ولكنه كان يخاف – وهذا شيء ليس من الصعب الاتيان بالبرهان عليه – من ان تعصف المغامرة القوية التي دفع فيها بجميع قواته بهوايته العجيبة ، هواية الصحراء والجنوب والسودان

ولننتقل الى يوم السادس عشر من شهر ذي الحجة من عام 998 للهجرة قضى المنصور سحابة اليوم الذي قام فيه بجميع ما يملك لقاء ان يصعد ميولـه . ولنترك الحكم عليه الى حين .

لقد كان ذلك اليوم السادس عشر من ذي الحجة من ايام الربيع ، وكانت مدينة مراكش تشهد ساعات مشحونة بالجلبة والنشاط ، ولما يجد السكان مكانا يقفون فيه لمعاينة هذه الامواج الهائلة من الجنود الذين تجمعوا داخل المدينة وتحلقوا حولها في نظامهم البديع ينتظرون خروج الموكب السلطاني الذي كان عليه ان يسافر مع العسكر الى مشارف المدينة ويزود قائده جودر بآخر نصائحه وتوجيهاته . والوثائق المحفوظة لبعض المخطوطة النادرة لا تبخل علينا بوصف وداع السلطان لجيشه المتحرك نحو السودان .

ربما كان المنصور في غنى عن هذا الوداع الصاعق الحامل على الهيبة والرعب ولكنه لم يكن يريد ان يحرم السفراء والمراقبين الاجانب من مثل تلك الصور . فهي في الواقع من صلب الاوراق التي لعبها طيلة نصف قـــرن .

يتبـــع

سـلا : محمد احمد الغربي

البصرة ودورها الثقافي

للأستاذ: إبراهيم حركات

كان اختطاط البصرة على يد عتبة بن غزوان احد قواد العرب (*) تحت امرة سعد بن ابي وقاص . وكان عتبة قد لفت نظر عمر بن الخطاب الى ضرورة انشاء مركز تجمع للجيوش العربية الغازية بالعراق ، ويكون في ذات الوقت مقرا لحياتهم المدنية ، وكان من الطبيعي ان يبحث عتبة بن غزوان عن المرعى والماء الذي كان اول ما يتجه اليه اهتمام العرب عند الاستقرار بمكان ما . وقد بنيت مساكنها الاولى بالقصب وكانت مياهها تتكون من الانهار وحدها . وتقع في منبسط من الارض بعيدا عن الجبال وتتخللها الانهار والنخيل ، وقد كونت جيوش عتبة النواة الاولى لسكان المدينة .

وكانت البصرة بطبيعة اهميتها الجغرافية واتساع عمرانها منذ القرن الثاني الهجري ، تشكل مركز كورة عظيمة ، اي مقاطعة او عمالة . وكان ضمن المدن الملحقة بها الابلة وعبادان والمفتح والمدار (*) .

وقد تم اختطاط البصرة سنة 14 ه . وفي عهد الحجاج تم هدم دار الامارة بالبصرة ، وكان زياد بن ابيه قد بناها منذ توليته . وكان سبب الهدم ان الحجاج كره ان تحمل دار الامارة اسم زياد ، والواقع ان العقلية العربية كانت تكره ان تحمل المؤسسات العمومية اسماء اشخاص (*) الا اذا دعت الظروف الى ذلك تلقائيا .

ولم تكن ارض البصرة قبل سنة 14 ه خالية من كل اثر للفرس ، ذلك ان قصرا شهيرا للاكاسرة يعرف بقصر قباذ كان يوجد بها حيث يخرج اليه امراء الفرس في منتزهاتهم . وكان قد تهدم بعد دخول العرب ، ثم جدده الحجاج بن يوسف (*) .

وكان اول مكان نزل فيه عتبة ، يسمى الخريبة ، وهو مركز حربي منذ عهد الاكاسرة الذين اتخذوا منه خطا دفاعيا لصد هجمات العرب المحتملة .

ولم يتبوأ الامويون عرش الخلافة ، حتى كانت البصرة قد اخذت تستبحر عمرانا اذ ارتفع ثمن الدور بها ، وكانت الدولة هي التي تتصرف مباشرة في بيع الاراضي (*) بها ، وقليلون جدا اولئك الذين تم اقطاعهم بعض الاراضي دون مقابل . وبلغ من اهميتها العمرانية في هذا الوقت ان الحمامات بها كانت لا تبنى الا باذن الوالي اذ كانت تغل اموالا كثيرة .

وقيل في سبب تسمية البصرة بهذا الاسم ان جنود عتبة بن غزوان عند ما كانوا مشتغلين بفتح العراق بلغوا مكان البصرة فقالوا هذه ارض بصرة (اي غليظة لكثرة طينها وحصاها) .

ومن المؤكد ان العرب لم يفكروا في انشاء البصرة لتكون ميناء تجاريا او حربيا اذ لم تكن لهم سفن تجارية في المحيط الهندي ، كما انهم كانوا يتحاشون

(*) اصطخري 56 والبلاذري 383 و 8 .
(*) اصطخري 57 .
(*) الكامل 2 ــ 369 ــ ابن الاثير
(*) مسالك العمري 1 ص 248
(*) بلاذري 490 .

القتال بحرا في بداية دولتهم . وهذا لا يمنع من وجود سفن قادمة من الصين والهند عبر المحيط الهندي ، وكانت تنزل بمرفأ كان يوجد هناك قبل بناء المدينة(*)

وقد عمد العرب الى تحويل انهار البصرة وترعها الى حيث يستصلحون توجيهها حتى كانوا يزيدون في الانهار او ينقصون منها مسافات طويلة (*) بل ان الانهار والترع المحولة بدات تحمل اسماء حافريها عن غير قصـــد .

وقيل ان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عامل يزيد بن الوليد على العراق شكا اليه اهل البصرة ملوحة مائهم ، واشاروا عليه بتحويل ماء البطيحة الى البصرة . والبطيحة تبعد جدا عن البصرة ، وقد كلفت هذه العملية ما يقرب خراج العراق عن سنة كاملة ولم يتردد يزيد في تنفيذ الفكرة بالرغم من فداحة النفقات المطلوبـــة .

ولم تكن عملية تنظيم الري وتحويل المياه بشيء جديد لدى عرب اليمن الذين جند مهندسوهم وخبراؤهم لهذا الفرض .

وكما كان موضع البصرة معسكرا في ايام الاكاسرة ، فان العرب قد ضربوا فيه محلتهم كذلك منذ سنة 14 (635م) .

ومما يرويه ياقوت (*) ان عمر بن الخطاب اراد ان يتخذ للمسلمين مصرا ، فلما فتحوا البحرين وبعض بلاد فارس كتبوا اليه : انا وجدنا بطاسان مكانا لا باس به ، فكتب اليهم ان بيني وبينكم دجلة . لا حاجة في شيء بيني وبينه دجلة ان تتخذوه مصرا ثم قدم عليه رجل من سدوس يقال له ابو ثابت فقال يا امير المؤمنين اني مررت بمكان دون دجلة فيه قصر وفيه مسالح للعجم ، يقال له الخريبة ويسمى ايضا البصيرة بينه وبين دجلة اربعة فراسخ ، به خليج يجري فيه الماء الى اجمة قصب فاعجب ذلك عمر .

وتقول بعض الروايات (*) ان اختطاط الكوفة والبصرة تم في سنة 17 هـ ولم يمض وقت قصير حتى بدا العرب يغرسون حولها النخيل ، وكان اول من دشن هذه العملية ابن ابي بكرة احد وجوه الجيش العربي تحت قيادة عتبة ، وكان ذلك بمناسبة ازدياد ولده عبد الرحمن ولقد اصبح لنخل البصرة شأن فيما بعد ، الشيء الذي لفت نظر الجغرافيين والرحالة الاولين(*) بل روي ان الرشيد قال : نظرنا فاذا كل ذهب وفضة على وجه الارض ، لا يبلغ ثمن نخل البصرة (*) .

ولقد شهدت البصرة اول موقعة بين المسلمين ، وهي وقعة الجمل سنة 36 هـ وقد اشترك فيها كل من عائشة وطلحة والزبير الذين هزم علي جيشهم . ولا يزال اسم الزبير يطلق على مكان قريب من البصرة الحديثة ، اذ يبعد عنها نحو ساعتين (*) وقد يكون هو الموضع الذي دفن فيه الزبير .

وفي سنة 50 للهجرة قدر سكان البصرة بنحو ثلاثمائة الف ، وكان من بينهم على الخصوص قبيلة الازد التي هاجرت عناصر كثيرة منها الى البصرة في اواخر عهد معاوية وتحالفوا مع ربيعة ضد تميم وقيس، وكانت دسائس الخوارج من دواعي النزاع القبلي في البصرة (*) ولقد استغرب المقدسي في رحلته من كثرة فتنهـــا (*) .

واذا كانت البصرة في ذات الوقت مدينة تجارية علمية ، فقد اشتهر اهلها بانهم كانوا ابعد الناس نجعة في الكسب ، حتى لقد كان يوجد من بينهم من يتاجر

(*) الكامل 2 ــ 338 لابن الاثير .
(*) بـــلاذري 497 .
(*) معجم البلدان ــ البصرة
(*) البلدان ص 235 ــ اليعقوبي
(*) ابن خرذاذبة ص 61
(*) معجـــم البلــــدان
(*) دائرة المعارف ــ البصرة
(*) دائرة المعارف ــ البصرة .
(*) المقدســـي 117 .

بالسوس الاقصى (*) وكان يوجد في البصرة من كل شيء شيء ، اذ كانت ميناء وملتقى للتجار من اجناس مختلفة ، فكثر تمرها وماشيتها ومنتجات مزارعها (*)

ومن الطريف ان تكون البصرة موضعا للمدح والذم على اختلاف في الآراء وحسب الظروف حتى قيل ان عليا بعد ان دخل اليها ذم اهلها في خطبة له ، ثم خرج منها وقال : الحمد لله الذي اخرجني من شر البقاع ترابا واسرعها خرابا .

ولاحظ الجاحظ ان من عيوب البصرة اختلاف هوائها في اليوم الواحد (*) « لانهم يلبسون القمص مرة ، والمبطنات مرة ، لاختلاف جواهر الساعات » .

كما وصفها البعض بالرعناء ، فقال عنها الفرزدق :

لولا ابو مالك المرجو نائله
ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا

وقال عنها اليعقوبي : انها كانت مدينة الدنيا ومعدن تجاراتها واموالها . وقال ابن الفقيه عن عائلاتها:

بالبصرة اربعة بيوتات ليس بالكوفة مثلها : بيت بني المهلب ، وبيت بني مسلم بن عمرو الباهلي (من قيس) ، وبيت بني مسمع من بكر بن وائل ، وبيت آل الجارود بن عبد القيس .

وقال المقدسي حول عظم مساحتها :

كنت بمجلس جمع فقهاء بغداد ومشايخها ، فتذاكروا بغداد والبصرة فتفرقوا على انه اذا جمعت عمارات بغداد لم تكن اكبر من البصرة .

ونلاحظ انه من القرن الاول الهجري بدأ تدفق الفرس على البصرة حتى بلغ من تاثيرهم ان سميت القطاعي والانهار بالبصرة بأسماء عربية الحقت بها علامات فارسية كالمهلبان وعبيد اللهان والجعفران والخالدان .

ولقد كان تخطيط مدينة البصرة طبق نظام محكم، فان المشرف البلدي كان غير الوالي العسكري (*) وهو الذي كان يشرف على نزول السكان الوافدين ، من مختلف الاماكن كما حددت الازقة من طرف المشرف بسبع اذرع سعة ، والمناهج اي الشوارع باربعين ذراعا سعة (*) .

وقد لعبت البصرة منذ عهد الخلفاء الراشدين ، دورا سياسيا واقتصاديا هاما فضلا عن دورها الثقافي وهكذا احدثت ثورة حقيقية بها منذ عهد عثمان سنة 35 هـ (656م) حيث رفض اهلها ولاية عبد الله بن عامر الذي كان من اقرباء عثمان .

وبعد مضي اقل من سنة واحدة على هذا التاريخ حدثت موقعة الجمل التي حضرت فيها عائشة زوجة الرسول محمد (ص) ، مطالبة بالاقتصاص لعثمان .

وفي ايام الامويين كانت البصرة مسرحا للعصبيات القبلية بحكم كثرة القبائل التي كانت ممثلة فيها .

وفي عهد العباسيين حدثت بها ثورة الزط الشهيرة . والزط هم قوم من السند (*) كانوا في جنود الفرس ثم اسلموا بعد ان دالت دولة هؤلاء ولكن الزط تكاثر عددهم تناسلا وبمن انضاف اليهم من الموالي والعبيد ، وتكون منهم جماعة من الارذال وقطاع الطرق وكانوا يمثلون خطرا حقيقيا على الدولة، وقد تمكن المعتصم في النهاية من القضاء عليهم بعد ان قطع عنهم الماء بتحويل مجاريه .

ولكن العباسيين دهوا مرة اخرى بالزنوج الذين ثاروا بقيادة شخص اسمه علي بن محمد وكان يدعي انه من سلالة الامام علي فقاد هؤلاء الزنوج في ثورة عارمة تمكن خلالها من بسط نفوذه على جزء كبير من العراق. واستمر سبع سنوات الى 874م يقهر جيوش العباسيين الى ان استطاع الموفق اخو الخليفة المعتمد يومئذ ان يضع حدا لهذه الثورة وقام ببناء مدينة صغيرة قرب البصرة التي تخربت بسبب الثورة المذكورة .

(*) ابن الفقيه 191 .
(*) المقدسي 118 .
(*) معجم البلدان « البصرة » .
(*) الكامل 2 368
(*) الكامل نفس الصفحة والجزء
(*) السند يطلق اليوم على قسم من باكستان الغربية ، وعدد سكانها قريبا من ستة ملايين .

وتوالت الهجمات بعد ذلك على البصرة الثانية التي خلفت البصرة القديمة واتسعت كسابقتها فغزاها القرامطة في نهاية القرن الثامن ثم المغول في القرن الثالث عشر .

وبعد ان خضعت البصرة للترك بضعة قرون ، دخلت تحت السيطرة الانجليزية ضمن سائر بلاد العراق اثناء الحرب العالمية الاولى .

العراق والحياة العلمية :

لم تحتل العراق مكانتها العلمية عبثا ، ولم تبلغ هذه المكانة لوجود الخلفاء العباسيين بها ، وانما كان ذلك :

1 ــ لان العراق مهد الحضارات العريقة من اشورية وبابلية وغيرها ، كما ان الفرس ساهموا في تحضيره ونشر الثقافة به .

2 ــ لان السريان الذين ساهموا في نقل علوم اليونان كانوا يقطنون به .

3 ــ لان كثيرا من الوافدين على الهند من العلماء كانوا ينزلون به .

4 ــ لان احتكاك عدة ثقافات « عربية هندية يونانية فارسية » افاد العلم بهذا البلد من حيث لم يفده في بلد آخر محروم من هذا التلاقح .

اما في الميدان اللغوي بما تضمنه من ادب ونحو وقصص وامثال ، فانما كان العراق مركز اشعاع فيه ؛ لان اللغة اقبل على دراستها الاعاجم الذين لم يكونوا يتحدثون العربية سليقة والذين كانوا احوج الى اتقان اللغة من غيرهم .

ومن الملاحظ ان العناية برواية اللغة ودراستها وحتى التاليف فيها بدات في وقت مبكر نسبيا ، وقبل نشاة الدولة العباسية .

وكان دور العباسيين في هذا الميدان هو دور التشجيع المادي والمعنوي . وجلسات الاصمعي مع الرشيد ومناقشاتهما اللغوية مثال واضح في هذا الباب كما تشهد بذلك قصص الاغاني .

فدراسة اللغة او روايتها على الاقل بدات في عهد الامويين ثم تطورت وتركزت في عهد العباسيين ، والتطور طبيعي في اللغة اكثر من اي ميدان ثقافي آخر .

وقد سهل تكاثر العناصر غير العربية بالعراق امكانية تمييز الالفاظ والتراكيب التي دخلت العربية من لغات مختلفة حتى امكن للمحققين الذين تلقوا دراستهم بالعراق ان يردوا كثيرا من الالفاظ العربية الى اصول غير عربية . كما فعل الثعالبي في فقه اللغة « فصل في سياقة اسماء فارسيتها منسية ، وعربيتها محكية مستعملة » حيث امكنه ان يرد الى الفارسية امثال هذه الكلمات : الخراط ، الخياط ، الصندوق ، الكرسي ، المشجب ، الجربة ، الازرار ، البخور البرقع، الهريسة ، الحلال ، الحرام ، الساقي الشرب ، التصبحة ، الوسوسة ، الحسد ، الصواب ، الخطاء .

ولعبت البصرة بسوقها المربد دورا هاما ليس في النشاط اللغوي فحسب ، بل في كثير من فروع الثقافة ، وفيها نشات مذاهب ونزعات مختلفة في ميدان الفكر والسياسة ، وهكذا نشط فيها مذهب المعتزلة والاشعرية ، كما كان لاخوان الصفاء فيها دور ملحوظ .

والى البصرة ينسب الحسن البصري راس قراء البصرة (*) ، كما ينسب اليها واصل بن عطاء راس مفكري المعتزلة وفيها تلقى دراسته الجاحظ ، كما ولد فيها ابو الحسن المدائني في منتصف القرن

(*) المربد في الاصل محبس الابل ، ومنه اخذ اسم مربد البصرة الذي كان في الاصل سوقا للابل ثم محلة عظيمة للسكنى ، وكان يبعد عن مركز البصرة بنحو 3 اميال كانت تمتد كلها عمارة وكانت تثار فيه مفاخرات الشعراء وتعقد مجالس الخطباء ، وقال عنه ياقوت : هو الآن خراب فصار كالبلدة المفردة في وسط البرية . وينسب الى المربد عدد من الرواة كعباس بن عبد الله مولى بني هاشم وسماك بن عطية المربدي .

(*) يعد ايضا بين رجال العلوم الدينية ، والمتصوفة.

التاسع م (840 او 845 م) وهو من المؤرخين الاولين في الاسلام ومن رجالاتها كذلك ، الاحنف بن قيس وطلحة بن عبد الله وابن سيرين ، ومالك بن دينار (*) .

وقد ظهر اخوان الصفاء في اواخر القرن الرابع ه وكانت جمعيتهم سياسية دينية تميل الى الاخذ بمذهب الاسماعلية ، ولكن نشاطهم الثقافي كان اكثر وضوحا من نشاطهم السياسي وهكذا انشاوا حوالي 52 رسالة تضمنت اغراضا وعلوما مختلفة تتلاءم ومذهبهم المتسم ببعض الغموض ، وكان اسم اخوان الصفاء يمثل مجموعة تهدف الى الاخذ بالمثل العليا في تضامن علمي متين . ومن هذه الجماعة زيد بن رفاعة وابو سليمان محمد البستي المعروف بالمقدسي وابو الحسن علي بن هرون المعروف بالزنجاني .

واساس مذهبهم فكرة الاصل السماوي للانفس وعودتها الى الله ، وهكذا انبثقت النفس البشرية في رايهم عن وحدة الله تدريجيا بواسطة العقل فالنفس ثم المادة الاولى فعالم الطبائع ثم الاجسام ثم عالم الافلاك ثم العناصر وما يتركب منها ، وهي المعادن والحيوان والنبات .

وكان من الطبيعي ان يأولوا آيات القرآن تأويلا رمزيا يتفق وافكارهم كما فعل سائر الشيعة على اختلاف نزعاتهم وتتحدث احدى رسائلهم عن نظام الجماعة وتكوينها واغراضها واسلوبهم يسوده التلميح وبعض الغموض وهو على العموم يعمل على توجيه النفس نحو الفضيلة وقد كان مركز الجماعة بالبصرة كما تقدم .

ولقد اتسعت دائرة الثقافة بالبصرة ، بفضل التيارات المختلفة التي كانت تتجاذبها وكانت السريانية من اهم وسائل نمو الحضارة العربية ، بل كان لها تاثير حتى في الفارسية

(*) ابن الفقيه 190

(*) بروكلمان 35 Précis linguistique

(*) فهرست ابن النديم 171

وكما ساهمت البصرة باوفر نصيب في بعث اللغة وجمعها ، كذلك شاركت كمركز ثقافي في ميدان الدراسات التاريخية فهذا ابو عبيدة يضع لنا عدة كتب ن اخبار القبائل كاخبار عبد القيس ومثالب باهلة ومناقب باهله ، والاوس والخزرج وكتاب بني مازن وايادي الازد ، كما وضع كتاب اخبار الحجاز ومسلم بن قتيبة ، وغارات قيس واليمن وفتوح ارمينية وخوارج البحرين واليمامة وقضاة البصرة ، وهذا الكتاب يعتبر من اوائل كتب الطبقات ، وفي تزكية ساممة لقوي البصرة في الدراسات التاريخية يقول المستشرق جب . ان ميدان الاخبار القبلية الذي ظل الى وقت قريب ميدانا موقوفا على الرواة والنساب قد غزاه فقهاء اللغة الذين بمحاولتهم جمع وكشف كل ما تبقى من الشعر القديم قد قدموا للتاريخ خدمة جلى ، وذلك بجمعهم ونخلهم هذه الكميات الهائلة من المواد .

ومن علماء التاريخ بالبصرة كذلك ، آل داب ومنهم عيسى بن داب واخوه ثم الحارث بن ابي اثامة المشهور بالمدائني وقد وضع كتبا كثيرة في اخبار النبي وقريش واخبار الخلفاء والفتوح والاحداث السياسية على العموم حتى ان مصنفاته تعد بالعشرات ، ومن مؤلفاته :

1) مفاخرة اهل البصرة والكوفة
2) القيافة والزجر
3) المراعي والحبال
4) فتوح مصر
5) اخبار الفرزدق
6) خصومات الاشراف
7) القلاع والاكراد
8) فتوح الحيرة الخ ..

ومن اللغويين الذين ساهموا في التاريخ ايضا ابو عبد الله بن سلام الجمحي الذي وضع كتاب بيوتات العرب وطبقات الشعراء الجاهليين (*) الخ .. وابو

سعيد عبد الله بن شبيب الربعي البصري صاحب « الاخبار والاثار » الذي رواه عنه ثعلب (※) وعمر بن شابة تلميذ ابن سلام (262 ه) وقد وضع بدوره عدة مصنفات تاريخية منها :

1ـ امـراء الكوفـة
2ـ امـراء البصـرة
3ـ اخبـار المنصـور
4ـ مقتـل عثمـان

واخيرا الفضل بن الحباب الجمحي قاضي البصرة (305 ه) وهو صاحب كتاب طبقات الشعراء الجاهليين وكتاب الفرسان .

على ان اقدم كتاب معروف فى التاريخ الفه بصري هو ابو اسماعيل محمد بن عبد الله الازدي مؤلف كتاب فتوح الشام الذي تم طبعه بالهند (1854 م) .

اما فى العلوم الدينية فقد نبغ فى البصرة عدد من المحدثين كسفيان الثوري (161) صاحب الكتاب الجامع الكبير والجامع الصغير وحفص الضرير وعبد الله بن مسلمة وانس بن مالك (91 ه) ومعقل بن يسار (60) والحسن البصري (110) ومسلم بن يسار (100) وحماد بن سلمة (156) وهو صاحب كتاب السنن .

كما ظهر عدد من المفسرين كابي العالية (90) وسعيد بن بشير ومحمد بن ثور (117) وعلي بن عيسى الرماني الذي اشتهر باللغة ايضا (351 ـ 962) وقد سئل الصاحب بن عباد : هلا صنفت تفسيرا فقال : وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئا ؟

وفى علوم القراءة التي ترتبط من قريب بالدراسات اللغوية ، كان دور البصرة ذا اهمية لا تنكر. ومن نبغاء هذا الفن من رجالات البصرة يعقوب بن اسحق الحضرمي (205) وابو عمرو بن العلاء (154) وهو الذي درس عليه اغلبية القراء وكذا الحسن البصري الذي فاقه تأثيرا فى هذا الباب ابو عمرو المذكور .

وفى الفقه ظهر عدد من العلماء كابي الهذيل زفر ابن الهذيل (158) وقد غلب عليه الراي كما يقول ابن النديم ثم ابو بكر يحيى المشهور بهلال الراي (245 ه) وهو صاحب تفسير الشروط وكتاب الحدود .

اما فى الصوفية فيكفي ان نذكر اسم الحسن البصري وهو احد التابعين ومن اوائل رجال التصوف فى الاسلام ، وقال عنه بعض الادباء : جمع كل شيء من علم وزهد وورع وعبادة (※) وقد قيل انه تأثر باستاذه صفوان بن محرز المازني المتوفى سنة 74 ه وابوه هو مولى زيد بن ثابت الانصاري ، وامه خيرة مولاة ام سلمة زوج الرسول .

وقد تتلمذ على الحسن البصري جماعة كبيرة من المريدين كمالك بن دينار (131) وابن يعقوب السبخي (131) .

ومع ان الحسن البصري كان راس مدرسة التصوف بالبصرة فانه كان مجرد داعية الى الزهد والورع فى ابسط مظاهره دون ان يتخذ مذهبا محددا. على ان تلاميذه امكنهم ان يبلوروا مذهبه عن طريق الاغراق فى حب الله ومبدا التجلي مع المناداة جهرا وبدون تحفظ الى ترك اعراض الدنيا والاعداد للآخرة

ودور البصرة فى باب الاعتزال اشهر من ان يذكر . فمن شخصياتها ومؤسسي الاعتزال ابو محمد بن الهذيل المعروف بالعلاف ، واحمد بن ابي دؤاد (240) وهو الذي كان له تأثير قوي على المأمون ثم محمد بن عبد الوهاب المعروف بأبي علي الجبائي وهو الذي ذلل الكلام وسهله ويسر ما صعب منه ، واليه انتهت رئاسة البصريين فى زمانه لا يدافع فى ذلك (※) وابو عمر بن الخلال القاضي صاحب كتاب الاصول وكتاب المتشابه وابو عبد الله الحسين المعروف بالجعل وهو تلميذ ابي الحسن الكرخي (399) ومن كتبه فى الاعتزال : 1)الايمان ـ 2) خلق الخلق ـ 3)كتاب لا يجوز ان يفعل الله بعد ان كان غير فاعل ـ 4) الكلام فى ان الله تعالى لم يزل موجودا ولا شيء سواه .

ودخل الى البصرة الى جانب مذهب التصوف والاعتزال مذهب الجبرية الذي يمكن ان يكون قد دخل

※) ابن النديم 163 .
※) ابن خلكان 1 ـ 160 .
※) ابن النديم 256 .

على يد احد تلاميذ أبي الهذيل العلاف وهو حفص الفرد الذي قدم من مصر (*) وله كتب احدها في الرد على النصارى وثان في الرد على المعتزلة .

اما في الادب فقد خلدت البصرة صفحات خالدة شأنها في ذلك ، كباقي العلوم الاخرى ، ومن اوائل رجالاتها ابو الاسود الدؤلي واسمه ظالم بن عمر جندل، وهو يمثل طبقة الشعراء الذين دافعوا عن آل البيت والذين كانوا في الواقع منبثين في مختلف اجزاء الوطن الاسلامي وعلى العموم فقد كانت العراق مركز الصراع بين المذاهب المتناحرة .

وفي سوق المربد تجلى الاحتدام بين الفرزدق وجرير اللذين يمثلان النزعة القبلية الضيقة في ابرز مظاهرها ، بالرغم من انهما ينتميان معا الى تميم .

وشهدت البصرة ظهور بعض كبار شعراء الرجزيها كالعجاج وابنه رؤبة اللذين تحزبا للدولة العباسية بعد ان كانا نصيرين لبني امية كما تفتحت فيها قريحة شعراء موهوبين من المولدين الذين اضفوا على الشعر العربي طابعا جديدا تحرريا . ومع الاسف فان اثر الموالي في الادب العربي لم يحظ بعد فيما اعلم بدراسة خاصة وعميقة من شأنها ان تقدم لنا أثر هؤلاء في مختلف فنون الادب العربي . وما من ريب في ان هذه النزعة التحررية قد صادفت رواجا واسعا في مركز البصرة التي فتحت الباب على مصراعيه لمختلف الاتجاهات والمذاهب . وهكذا بدأ شعر الخمرة والغزل والشعوبية يفتح افقا واسعا في هذه المدينة العظيمة على يد شعراء امثال بشار بن برد وابان بن عبد الحميد وابي نواس وعبد الله بن عبد الحميد اخي ابان المذكور الذي عرف بتهتكه واقذاعه في الهجاء .

وليس من اليسير ان نحدد متى بدات شعلة هذا المركز الكبير في الانطفاء ولكن من المؤكد ان البصرة بدات تشهد منذ القرن الخامس الهجري تحولا خطيرا في اهميتها بسبب الوضع السياسي . وفي هذا الوقت بل قبله بكثير كانت بغداد قد تركزت شخصيتها قوية في ميدان المعرفة ، مع ضعفها بالتدريج في ميدان السياسة .

اكادير : ابراهيم حركات

(*) ابن النديم 269



حول اختراع الشطرنج والنرد

للدكتور : عبد اللطيف السعداني

لعل اهم المراجع التي يمكن الاعتماد عليها للحصول على قبس نستطيع ان نتفقد به اشارة او دليلا من امر الشطرنج والنرد هي النصوص الفهلوية الضاربة في القدم والتي يرجع تاريخ كتابة بعضها الى زمن بعيد قبل الاسلام . فهي اذ تتحدث عن فارس وعظمائها ومدنيتها تحمل خلالها بديع الاخبار . غير ان الحيرة تكاد تواجهنا اذ نرى هذه الكتب ذاتها وقد صبغت قصة الاختراع العجيب بصبغة الاسطورة شانها في ذلك شان الانسان مع كل الاشياء من عجائب الطبيعة في نفسها وفي مولدات العباقرة . اندهش لها واحتار في تعليلها فاطلق لخياله الواسع عنان حياكة القول الموشح عساه يتخلص من عناء اعمال الفكر القاصر . فلا يلبث ان يومن بذلك ثم لا يلبث ان يرويه على انه القول الحق وهكذا نجد هذه الكتب المعتبرة تحبك الاخبار او تنقلها بلا دقة وعناية . وقد زاد من صعوبة تمييز امر الشطرنج والنرد ما امتزج به من النعرات القومية . فكان مظهرا للصراع والمنافسة والتفاخر في ميدان الثقافة والتمدن بين حضارتي الشرق القديمتين . الهند وفارس .

جاء في كتاب « كارنامه اردشير بابكان » : « كان اردشير (راس الامبراطورية الساسانية 226 ميلادية) بتوفيق الآلهة ابرع الناس وابرزهم جميعا في لعب الصولجان والفروسية والشطرنج والنرد والمعارف الاخرى » فاذن كان الشطرنج والنرد معروفين عند الايرانيين القدماء وقد برعوا فيه حتى فاقوا غيرهم . وهذا اسم النرد كما ورد في تلك النصوص يدل على « نيوا ارتشير Nevvart Shir » فهو ماخوذ من اسم اردشير ومن اجل ذلك فان اختراعه منسوب اليه . والكلمة لا تزال معروفة في اللغة العربية قريبة من شكلها الاصلي فقيل مجازا « تردشير » بمعنى يبدق اللعب واختصرت للدلالة على المعنى الاصلي فقيل « نرد » (*) . ثم عرف اللعب بعد ذلك بهذا الاسم في العربية والفارسية سواء .

وارجعت بعض النصوص الاخرى اختراع الشطرنج والنرد الى زمن اقرب الينا . فنسبت اختراع النرد الى الايرانيين (بزرجمير الوزير الحكيم للملك العادل خسرو انوشروان) ونسبت اختراع الشطرنج الى الهنود (ملك الهند ديب سرم) على عهد انوشروان (531 – 578 ميلادية) كما يرى ذلك في كتاب « ما يكان شطرنج » وكتاب « جزارش شطرنج وويتردشير » ثم بعدهما في « الشاه نامه » لابي القاسم الفردوسي (329 – 411 هجرية) وهو مرجع مهم للاساطير الايرانية القديمة واخبار الفرس قبل الاسلام . (*)

ولننقل هنا نموذجا لما جاء في هذه النصوص . يذكر كتاب « جزارش شطرنج و ويترد » ان ملك الهند « ديب سرم » اخترع الشطرنج وارسله الى الايرانيين ليختبر به ذكاءهم ثم كتب الى « انوشروان » يقول: « انكم بفضل لقبكم « شاهان شاه » ملكا على الملوك جميعا . فيجب ان يكون علماؤكم اعلم من علمائنا . لذلك عليكم ان تبينوا قاعدة هذا الشطرنج او ترسلوا الخراج » . وينادى في البلاد وتوضع الجوائز لمن يحل اللغز . فلا يستطيع احد . غير ان النبوغ الايراني لا يعدم في الاخير من ينقذ الشرف بل ويعد باختراع

* Supplément aux Dictionnaires Arabes, R. Dozy, T. 2, p. 655

* الـ « شاهنامة » . الجزء الثامن الصفحة 2461 وما بعدها . تصحيح : اقبال . مينوي ونفيسي طبع طهران 1313 شمسي هجري .

شيء يردع ذلك المتحدي ويحيره . وكان هذا النابغة هو « بزرجمهر » وكان اختراعه هو النـرد . » وبعـد يومين استدعى الـ « شاهان شاه » « بزرجمهر » وقال لـه : « اي بزرجمهر ! اي شـيء ذاك الـذي وعـدت باختراعه وارساله الى ديب سرم ؟ » فاجاب بزرجمهر: « ان اعقل واعلم ملوك العالم في هذه الالف (دورة الالف سنة) لهو اردشير واني جاعل رقعة النرد على صفين باسم اردشـير . . . » . وبعد ان تم ذلك ارسله ملك الملوك الى الهند مرفوقا بالهدايا القيمة . وهناك لا يوجد بين علماء الهند ودهاتها من يعرف سبيلا الى حله . وهكذا تنقضي اربعون يوما ، الاجل المضروب ، يرجع بعدهـا « بزرجمهر » زعيم القافلة محمـلا بالهدايا والخـراج مزهوا بالانتصار .

ففي هذا النص كما راينا دليـل صريـح على ان الشطرنج اخترع في الهند وان النرد اخترع في ايران . غير ان نسبة اختراع النرد الى « بزرجمهر » بعيـدة عن الصحة . ذلك انه رغم ما ذكر في القصص الايرانية عن شخصية « بزرجمهر » في بلاط « انوشروان » مـن دهاء وحكمة وعلم ورونة وما نقلت في شانه من الروايات العديدة حتى انه اعطي منصب الوزارة العظمى لملك الملوك . فان التاريخ لم يعرف لهذه الشخصية وجـودا . ولا تعدو ان تكون خيالية (※) . ثم ان وضع النـرد باسم « اردشير » لا باسم « انوشروان » الذي اخترع فـي عهده لا يتناسب مـع اصول الادب واللياقـة لسنن البلاط . واخيرا فاننا نلمس في هذه الاسطورة الكثير من الغرور كما اشرنا سابقا الـى ذلك . الا يستبعـد ان لا يوجد هندي يفهم معنى النرد واساس وضعه وهو اقل تعقيدا من الشطرنج الذي اخترعه الهنود وحيـر جميع الايرانيين الا حكيمهم الكبيـر ؟ .

اما المسعودي فيفهم من كلامـه ان النـرد كـان موجودا قبل الشطرنج وان هذا قد اخترع في الهند . اذ يقـول : « ثم ملك « بلهيت » (على الهند) وصنعت في ايامه الشطرنج فقضى بلعبها على النرد » (※) .

نستطيع ان نستخلص من كل هذا مدى ما يدعو الى الاختلاف قديما وحديثا في ربط اختراع الشطرنج والنرد بتاريخ معين وعدم الاطمئنان الى ما يـروى في ذلك رغم قدم عهده . مما يحتم علينا ان لا نستعجـل بالاخذ براي ونحن نرى انتساب اختـراع الشطرنـج ينسب الى شخصيات هنديـة مختلفـة مثل الحكيـم « داهـر » او ابنه او « لجاج » او « صهصه بن داهر بن فيلسوف » . او نجد من يرجـع اشتقـاق كلمـة الشطرنج ـ كما سنرى ـ الى اصل فارسي . بل يجب ان نتاكد ان هذه كلها افتراضات لا تدعمها حجة قوية . والذي يقبله العقل هو انه لا يستبعد ان يكون النـرد اخترع في ايران ولكن يجب ان يعتبر نتاجا فكريا ومظهرا ثقافيا لكل من الامتين لا لافراد معينين . ويجعل نصب الاعين ان الشطرنج والنرد تخطيا مراحل مختلفة على مر الزمن حتى وصل اختراعهما الى ما عرفـا به الـى اليوم . وبهذا نستطيع ان نتخلص من البحث الزمنـي لاختراع هاتين اللعبتين .

اما ان اردنا ان نتلمس الـدليـل على اختـراع الشطرنج في الهند من اشتقاق الكلمة ذاتها نجد انهـا شطرنج . وشطرنجي (لاعب الشطرنج) بكسر الشين المعجمة كما وردت في اغلب كتب اللغة وكما هي عليـه الآن في اللغة الارمنية Shintranj والفتـح ضعيف اذ لم يرد وزن فعلل بالفتح في كلام العرب (※) . ولكنه صحيح . وقد وردت الكلمة في الكتب الهندية القديمة مثـــل « Maha-Bharata » الملحمة الهندية الكبيرة بمعنى المعدات الحربية القديمة في الهند المركبة مـن اربعـة اقسام . ـ 1 ـ الفيـل . ـ 2 ـ العـربـة . ـ 3 ـ الفرسان . ـ 4 ـ المشاة . فهي اذن ـ هندية الاصل على غرار هذا المعنى بقول صاحب معجم « بهار العجم » انهـا معربـة « جترنكـا » Catur-anga « جتـر » (※) بمعنـى « اربعـة » . « انكـا » (※) بمعنى « عضـو » واستعملت مجازا بمعنـى الركـن . فمعناها ماله اربعة اطراف او ما تحده اربعة حدود . او بعبارة اخرى ما له اربعة اركان معتمدة ـ 1 ـ الفيل ـ 2 ـ الرخ ـ 3 ـ الفرس ـ 4 ـ المشاة . وقـد

※ راجع التعليق الاول من صفحة 251 لترجمة قسم من كتاب « تاريخ الرسل والملوك » لمحمد بن جريـر الطبري . باسم :
Geschichte de Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden by Theodor Nöldeke, Leiden, 1879

※ مروج الذهب : المسعودي : ص 80 ـ 81 طبـع مصـر .

※ معجم آنندراج و المعرب من كلام العجم . الجـواليقـي .

※ Catur

※ Anga

تضاف الى Catur-anga كلمة « Krida » فيصبح معناها لعبة « Catur-angakrida » الشطرنج (*) . وافترض آخرون انها معربة « شترنك » الهندية كذلك التي معناها « ذو الالوان الكثيرة » والتي اصبحت في الفارسية « صدرنك » بمعنى « مائة حيلة » . وبمعنى « نوع من الزرابي » . وجعل بعضهم الكلمة فارسية فقال انها معربة « سترنك » الفارسية التي هي اسم لنوع من النبات على هيئة الانسان (يبروح الصنم) لان اكثر قطع هذا اللعب على القاب الانسان فدلت مجازا عليه .

يقول المسعودي ان ملك الهند « بلهيت » جعل الشطرنج « مصورة تماثيل مشكلة على صورة الناطقين وغيرهم من الحيوان مما ليس بناطق » . وتقل معجم رشيدي ان « شطرنج » هي اقسام الفلة المختلطة مع بعضها عربت واطلقت على هذه اللعبة لاختلاط انواع واقسام بيادقها مع بعضها . ومن القائلين بان اصلها فارسي من افترض انها معربة تركيب فارسي : « شدرنج » اي (انجلى الكرب) .

اما عن المعنى الرمزي لهاتين اللعبتين فقد نقل كتاب « جزارش شطرنج ونهادن وبنردشير » شرحا النرد على لسان « بزرجمهر » . واذا لم يكن هذا الكتاب قد حدد لنا تاريخ ومخترع اللعبتين فان فيه نظرية صادقة لحقيقة النرد اذ انها تربطه بعقائد دينية تتوافق مع ما كان عليه القدماء من تسخير كل حياتهم للتوجه الى الخالق وعبادته . « ... واضع رقعة النرد على منوال الارض المقدسة وثلاثين بيدقا مثالا الثلاثين يوما وليلة وخمسة عشر بيضا مثالا للايام وخمسة عشر سودا مثالا لليالي . واجعل دوران الكعبين مثالا لحركة النجوم ودوران الفلك » ثم اشار الى ما ترمز اليه الاعداد الناتجة عن رمي الكعبين « الواحد مثالا لوحدانية الله (اهورا مزدا) وانه هو الذي اعطى كل خير . الاثنان اجعلهما مثالا لعالم المعنى وعالم الحس . الثلاثة اجعلهما مثالا للفكر الطيب والقول الطيب والعمل الطيب . النية والقول والعمل . الاربعة اجعلهما مثالا للعناصر الاربعة (اخشيجان) الهواء والماء والنار والتراب التي يتكون الانسان منها . ومثالا لجهات العالم المشرق والمغرب والشمال والجنوب . الخمسة اجعلها مثالا للانوار التي تاتي من السماء الشمس والقمر والنجم والنار والبرق . الستة اجعلها مثالا لخلق المخلوق على الجهات الست والايام الستة (*) . واضع اساس النرد رمزا لـ « اهورا مزدا » الاله الذي اوجد المخلوق . واجعل دوران الكعب الناتج عن القائه مثالا للناس المتمسكين بالحياة وهم على اتصال دائم بعوالم المعنى كدوران السيارات السبع والبروج الاثنى عشر تدور وتهتز وكانما تتضارب وكذلك الناس في الدنيا يضرب بعضهم بعضا . وعندما تجمع تلك البيادق بعد دورانها فانها تشبه الناس وقد كتب عليهم جميعا ان يتركوا هذه الدنيا . واذ يعاد صفها من جديد ثم يبتدىء اللعب من الاول فانها تشبه الناس الذين سيحيون من جديد يوم البعث » .

ويشير اشارة بسيطة الى معنى الشطرنج فيقول: « ان ديب سرم وضع هذا الشطرنج على غرار ساحة الحرب ونصب في الصدر ملكين عن اليمين وعن الشمال فالفرزين قائد المحاربين والفيل خلف الحراس قائدا والفرس قائد الفرسان والبيادق كالمشاة في مقدمة المعمعة » (*) .

وهذا هو الرمز الحربي للعب اذ انه قد وضع لطبقة الامراء والاشراف الهنود

يقول المسعودي في مروج الذهب « ... ومثل الشاه بالمدبر الرئيس وكذلك ما يليه من القطع ... واذا كان عدو من اعدائه فوقعت منه حيلة في الهروب نظروا من اين يأتون في عاجل او آجل » .

اما الرمز الزمني للشطرنج فهو في نظرية التقسيم الرباعي والثماني للفضاء . التي تلخص جميع مظاهر الكون معبرة عنه تبعا لتربيع وتثمين الجهات الاصلية ($4 \times 4 = 8 \times 8$) جامعة لحركة الدورتين الكبيرتين المتكاملتين للشمس والقمر . والبروج الاثنى عشر والثمان وعشرون منازل قمرية في شكل مبلور . ويشبه الفضاء في بعض النصوص البوذائية بلوحة من 8×8 مربعا مثبتة بحبال من ذهب وهذه المربعات

* Sanskrit English Dictionary, Sir Monier. Monier Williams, Oxford Clarendon Press, p. 384

* جاء في كتب سنة الزردشتيين ان الله «اهورا مزدا» خلق هذا العالم في 365 يوما فاقيمت في الدنيا ستة اعياد شكرا له على ذلك وهي : 1 ـ ميديوزرم 2 ـ ميديومشهم 3 ـ بتشهيم 4 ـ ايسريم 5 ـ ميديارم 6 ـ همسبتمدم .

* « جزارش شطرنج ونهادن وبنرد شير » ترجمة عن الفهلوية الى الفارسية لملك الشعراء « بهار » . مجلة « مهر » السنة الاولى العدد السابع نومبر 1933 . المجلد الاول صفحة 537 .

تشير الى 64 Kalpas البودائية (أحد ادوار العالم الكبرى وهي عبارة عن 1 000 Mahayaga الزمان الكبير) . وتصف (Remayana) مدينة **الآلهة** المنيعة (Ayodhya) بمربع له بيوت من كل جهة . وفى المعتقدات الصينية القديمة نرى 64 علامة الناتجة عن الثمان (Trigrammes) كتاب (I-King) موضوعة بشكل مطابق للجهات الثمانية للفضاء .

ويقول المسعودي فى مروج الذهب « وللهند فى لعب الشطرنج سر يسرونه فى تضاعيف حسابها ويتغلغلون فى ذلك الى ما علا فى الافلاك وما تنتهي اليه العلة الاولى » وبعد ان يذكر اعداد اضعاف الشطرنج يقول : « ثم لها عندهم معان يذكرونها فى الدهور والاعصار وما تقتضيه سائر المؤثرات العلوية فى هذا العالم لارتباط النفوس الناطقة بها » .

ويشير « الفانصو » الحكيم فى كتابه (Libros de Acedrex) الى نوع قديم جدا للعب « لعبة الفصول الاربعة » التي يشترك فيها اربعة لاعبين بحيث تصف البيادق فى اربعة اركان الشطرنج وتتحرك بشكل دولابي يشبه حركة الشمس ويجب ان تكون 4 × 8 بيدقا ملونة باللون الاخضر والاحمر والاسود والابيض التي تشير الى الفصول الاربعة : الربيع والشتاء والخريف والصيف . كما تشير الى العناصر الاربعة : الهواء والنار والتراب والماء والى الاخلاط الاربعة الاصلية : الصفراء والسوداء والبلغم والدم . وترمز حركتها من الجهات الاربعة الى التغييرات الزمنية . وان الشبه العجيب بين هذه اللعبة وبين بعض الطقوس والرقصات « الشمسية » لهنود امريكا الشمالية ليوضح الاصل العميق للشطرنج ، والدورة الكاملة للعب الشطرنج التي هي فى حد ذاتها نموذج لـ (Mandala) : دورة الزمن فى العرفان الهندي والبودائي) بالاضافة الى البيدق ، يمثلان معا رمزين مختلفين ومتكاملين للكون . وتدل بيادق لعب الشطرنج على معان عرفانية كذلك (※) فالملك هو القلب والباطن وباقي الاشكال تشبه القوى النفسية التي تعمل حركاتها بوسائل مختلفة على تحقيق الامكانيات الكونية المتمثلة فى لعب الشطرنج . فهناك الحركة المحورية للعربة الحربية وحركة الفيل المائلة التي ينحصر مسيرها فى لون واحد وهناك الحركة المعقدة للفرسان . فالمسير المستقيم الذي يخطو مارا بجميع الالوان ذا اثر فعال فى حين ان المسير المائل يؤدي الى استمرار (ثابت) وبالتالي غير فعال . ويشير وثب الافراس الى البصيرة .

اما نظرية الاختيار التي يظهر ان الشطرنج يرمز اليها فيروي « الفانصو » الحكيم فى كتابه السابق الذكر ان ملكا للهند اراد ان يعرف لايهما ينقاد العالم هل للذكاء او للحظ ؟ فاجابه مستشاراه الحكيمان اجوبة متضادة . واختار احدهما الشطرنج للتدليل على وجهة نظره حيث ينتصر الذكاء على الحظ . واختار الثاني النرد مثالا للقدر .

ولكن هذه العلاقة بين ارادة الانسان والقدر التي تمنح اللاعب اختيار الاساليب والطرق المؤدية الى النصر ليست فى الحقيقة الا علاقة بين الحرية والمعرفة اذ ان اتخاذ القرارات محدود بالامكانيات الخاصة لمقتضيات الحركة والتي تبدو فى الاخير وكأنها ليست حرية . وهذا يرى بالمثل فى ادارة العالم الخارجي او الداخلي للانسان اذ انهما خاضعان لقوانينهما الخاصة. وموهبة الادارة تستخدم التدبير الذي هو معرفة الامكانيات المحفوظة بشكل ائتلافي فى العقل الكل . والتدبير الحقيقي هو التجانس الكامل نسبيا مع العقل . وهو المرموز له بالشكل الهندسي للشطرنج ، اثر الوحدة الاساسية للامكانيات الكونية . فالعقل هو الحقيقة التي يكون الانسان بها حرا وبدونها عبدا للقدر وهذه هي الروح التعليمية للشطرنج (※) .

الدكتور عبد اللطيف السعداني

※ للعارف الكبير الشيخ « علاء الدولة السمناني » (659 ـ 736 هـ) رسالة باسم « الرسالة الشطرنجية » وضح فيها جميع المعاني العرفانية لبيادق الشطرنج . المخطوط رقم 435 بمكتبة آستانه قدس رضوى بمدينة مشهد فى ايران .

※ Le symbilisme du jeu des échecs. Titus Burchardt. Etudes Traditionnelles, octobre-novembre 1954

الأوضاع التخلفية في العالم وسيكولوجية الشعوب المختلفة

للأستاذ المهدي البرجالي

لماذا كانت مشكلة التخلف متميزة في شكلها وموضوعها عن مجمل المشاكل الانسانية الاخرى التي يواجهها العالم الحاضر ؟ الشعوب المتخلفة ، هل تتميز بالفعل عن غيرها من الشعوب ، وذلك سواء من الناحية السيكولوجية او التقديرية ؟ هل من الممكن اتخاذ النظريات المدلى بها في هذا المضمار ، على انها ذات قيمة علمية حاسمة ؟ ما هي الظواهر الملاحظة بهذا الصدد ، كما تبينها بعض المحللين الاجانب من جهة ، وكما تبدو عواملها واتجاهاتها من جهة اخرى ، وذلك على ضوء حياة الشعوب المتخلفة في الحاضر ، وما لهذا الحاضر من تفاعل مع ماضيها القريب ؟ بعض الجوانب الايجابية والجوانب السلبية في هذه الظواهر ـ الاتجاه الحتمي الذي يجب ان تسير نحوه الامور في هذا المجال .

يسود الاعتقاد في كثير من اوساط الفكر والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، في مختلف انحاء العالم ، وداخل الاجهزة التابعة للامم المتحدة بصورة اخص ، ان المشكلة الاساسية التي تستقطب بقية المشاكل الاخرى، ذات الصبغة السياسية والديبلوماسية والعسكرية وغيرها ، التي يعاني منها العالم المعاصر ، ليست هي المشكلة الماثلة في النزاع القائم ـ منذ نهاية الحرب ـ بين الكتلتين التقليديتين في الشرق الشيوعي والغرب الاوربي ـ الامريكي ، اذ ان هذا النزاع ـ ولو كان ينطوي على احتمالات انفجارية هائلة ، من شانها ان تعم العالم كله ـ الا ان عددا محدودا جدا من الاقطار في آسيا واوربا وامريكا هي التي تتمرغ في بؤرته وتتأثر بمقتضياته عمليا وبصورة دائمة ومباشرة ، وليست المشكلة الاساسية تكمن كذلك ، في وجود صراع حاد وحاسم بين بقايا النظام الاستعماري التقليدي والشعوب التي ما فتئت تحاول الاجهاز على مظاهر ارتباطه بها مباشرة او بكيفية غير مباشرة ، فهذا النظام يوشك عهده ان ينقضي بصورة جازمة ، وتصفيته النهائية قد اصبحت مسالة وقت قصير نسبيا لا يمكن ان يمتد بتاتا بالشكل الذي يترجاه المستفيدون منه داخل افريقيا او غيرها ، بل ولا يتركز صميم المشكلة كذلك في تطور الاسلحة ذات المفعول الشامل وتوسع الاجهزة الناقلة لها عبر الاجواء الارضية او الفضاء الكوني ، وذلك على اعتبار ان المدى الشامل المطلق الذي بلغته هذه الاسلحة والذي يقدر لها ان تبلغه في الاجل القريب او البعيد ، ليس من شانه ان يشجع على الاقدام على اية بادرة تؤدي الى الحرب ، ولهذا فان المستوى الذي عليه التسلح النووي والصاروخي اليوم يمكن ان يعتبر بالفعل عامل وقاية ضد الحرب اكثر مما يمكن اعتباره احدى دواعيها الاصلية او المترفة ، ليست المشكلة الاساسية اذن ـ في هذا او ذاك ، بقدر ما هي كامنة في وجود هذا التخلف المريع الذي يمتد على جميع مرافق الحياة من اقتصادية وفكرية واجتماعية وغيرها ، والذي ياخذ ـ على نحو متفاوت ـ بتلابيب اغلبية المناطق الارضية الآهلة بالسكان من الاقيانوسية الى جنوبي امريكا عبر آسيا وافريقيا ، وحتى بعض اقطار الجنوب الاوربي ايضا . فهذا التخلف ـ كما يبدو في نظر الكثيرين ـ هو ـ لا غير ـ المظهر الحقيقي والكامل ، للازمة العالمية المعاصرة ، التي يتفرع عنها مركب متشابك من الازمات والمشاكل ، ما يكاد بعضها يتخذ اي سبيل للتصفية الجزئية حتى يظهر البعض الاخر بشكل اكثر تعقدا ، واشد استعصاء على الحل ، ولعل من بين الاسباب

الموجبة لتقدير الاشياء على هذا النحو ، وتركز الاعتقاد هكذا حول التخلف وصلته بنشـــوء الازمة العالميـــة وتطورها ــ لعل من بين الاسباب الموجبة لذلك :

1) **ما يلاحظ من علاقة بين وجود التخلف، واستفحال الفقر :** هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، الصلة بين وجود الفقر ، وكثير من الاضطرابـــات الدوليـــة والعالمية، التي تميز عصرنا الحاضر، والتي ــ وان كانت تشتد عادة في مختلف العصور السابقة ، الا انهـــا ــ لاعتبارات حضارية مادية وانسانية ــ لم تكن تتخذ مثل هذا الشكل الحاضر البالغ درجة قصوى من الشمول والتشعب .

2) **ما يبدو من تعقد هذه المشكلة الناتجة عن وجـود التخلف :** ومما يضاعف من ازمان هذا التعقـد انه ليس ناجما فقط عن عوامل ظرفية ، يمكن ان تزول بين وقت وآخر ، او يمكن ازالتها بتدخل ما على وجه او آخر ، انه نابع من طبيعة القضية القائمة، ومن جوهر وجودها نفسه ، المستقل عن مؤثرات الزمان او المكان ، اي ان التخلص من تعقيدات الحالة الناتجة عن التخلف ومضاعفاته يقتضي لا مجرد العمل على التخفيف من بعض العوامل الهامشية سواء على الصعيد النفساني او القانوني او البيئي او غيره ، بل يستوجب اكثر من ذلك ، العمل على اقصاء التخلف من اساسه، واستئصال شأفته استئصالا قد يكون تدريجيا ، ولكنه يجب ان يكون على اي حال شاملا ونهائيا ، فمشكلة التخلف في جوهر امرها ، ليست كالمشاكل السياسية ــ مثلا ــ التي يمكن تذليلها عن طريق التحايل والتوافق ، سواء من جانب او آخر ، ولكنها مشكلة واقع متشعـــب المناحي ليس فيه للتحايل من غناء ولا تجدي في نطاقها اساليب التوفيق والتلاؤم على النحـــو المعـــروف في السياسة ، حقا ان للعنصر الانساني في هذا المضمار ، اهمية لا يمكن نكرانها ، اي ان الامر ليس دائما امر مادة صماء ، وارقام مجردة ، وتخطيطات واعمال وانجازات، بل ان الامر يتعلق كذلك باتجاهات الفكر عند المجتمع المتخلف ، ودرجة العواطف الايجابية التي تعتمـــل في محيط هذا المجتمع ، كالحماس الصادق ، والاخلاص العميق ، والرغبة القوية المتبصرة ، وهنا نلتقي ببعض اوجه التشابه مع الاحوال المؤدية الى حل المشاكـــل السياسية ، وما في حكمها ، الا ان الامر يختلف بعد ذلك في القضيتين اختلافا بينا ، ذلك ان الفكر الانساني في ميدان السياسة ، يمكنه ان يكون اكثر تحررا وانطلاقا ما دام الامر يتصل بموضوع العلاقة بين الافراد بعضهم مع بعض ، او الكتل والطبقات كل واحدة تجاه الاخرى،

فقد تكون الامور في هذا المجال بالغة الصعوبة والتعقيد، ولكن المرونة الانسانية التي تؤثر في تكييفها مجمـــل العواطف والنزوات والاغراض التي تؤثر كثيرا في الفكر، وقد تتولى تلوينه وتوجيهه ــ هذه المرونة ، قد تساعد في المحيط الاخير على ايجاد حلول معينة لبعض المشاكل العارضة من هذا القبيل ، وهناك في الواقع العالمـــي القديم منه والحديث كثير من الامثلة التـــي يمكـــن الاستدلال بها حول هذا الموضوع ، لكن الامر يختلف عن ذلك كثيرا بالنسبة لموضوع التخلف ، والتخلـــف الاقتصادي بصورة اخص ، هذا النوع من التخلف الذي يؤدي عادة الى حالات تخلف كثيرة ومستعصيـــة في ميادين الفكر والاجتماع وغير ذلك ، ولا يمكن ان يؤثر في حل تعقيداته مجرد توافر الممكنات العقلية والعاطفية المجردة ، وخاصة اذا كانت هذه الممكنات تنحصـــر في النطاق المحلي فقط ، المستقل ــ في كثير من تفاعلاته ــ عن البيئة العالمية الواسعة ، فثمة على العكس من ذلك ــ مجال بهذا الصدد ــ لمراعاة كثير من العوامـــل والاعتبارات ، والحاجيات المتشابكة والمتناقضة في بعض الاحيان سواء مادية ، كتوافر الوسائـــل والممكنـــات المختلفة ، او انسانية كوجود قدرات واستعـــدادات ونوازع خلاقة منها ما قد يكون طبيعيا ومنها ما قـــد يكون مكتسبـــا ، كل هذا علاوة على الاعتبارات الموضوعية اي التي تتعلق بجوهر موضوع الحالة التخلفية القائمة وهل هي ممكنة المعالجة او عسيرتها ، فطبيعة التخلف المراد لمعنى البدائية ، والملحوظ مثلا في غينيا الجديدة او بعض مناطق استراليا ــ هو ــ بدون شك ــ شيء آخر غير حالة التخلف الموجود ، في اقطار تتوافر لهـــا بذور نهضة انسانية بسيطة كالبلاد العربية مثـــلا ، والحالة التخلفية الموجودة في بعض اقطار الجنـــوب الاوربي الامريكي هي ــ اما من الناحيـــة الماديـــة او الانسانية ، اخف وطأة مما يوجد عليه الامر مثلا في اغلبية مناطق القارة الافريقية والاكثرية الساحقة من اقطار الشرق الاقصى وجنوب شرقي آسيا ، وهكذا ، وايضا فهناك ضرورة لاعتبار الظروف العالمية المحيطة بحالة التخلف الموجود هنا او هناك ، فهل تتوافـــر للدولة المتخلفة مثلا الاحوال المناسبة التي تمكنها مـــن الاستعانة بالمساعدة الخارجية سواء في نطاق دولـــي ثنائي او جماعي او غيره ، ولا يقصد بالمساعدة الخارجية مجرد الحصول على القروض ، والهبات والتقنييـــن ، والآلات التجهيزية المختلفة ، بل يراد بذلك ايضا انفتاح المجال امام الدولة المتخلفة لممارسة تجارة خارجيـــة مربحة ، وتوافر قدر من المرونة والنظرة الواسعة عند الدول ذات العملة الصعبة ، مما يمكن ان يساهم في

تحقيق اوضاع معقولة من هذا القبيل ، ويساعد – في نفس الوقت – على زوال القيود ، والتقاليد ذات الاثر السلبي في هذا المضمار ، وذلك بشكل يكيف مجموع الاقتصاد العالمي تكييفا جديدا ويجعل مصادره وموارده في مختلف انحاء القارات الخمس ، تتفاعل تفاعلا حيا ومثمرا ، يؤدي الى اشاعة التقدم والرخاء النسبي بين الجميع ، ومن الخيال ان يعتقد المرء بان امكانيات تطورية من هذا النوع هي موجودة الآن بالصورة المطلوبة ، وهذه احدى العوامل التي تجعل من امر مشكلة مستعصية في طبيعة وجودها ، لان حلها على المستوى العالمي العام ، يتوقف – كما راينا – على جملة اعتبارات وممكنات مادية وانسانية في داخل البلد المتخلف وعلى تطور الاحوال الدولية تطورا يكيف عقلية الدول الاكثر تقدما او يؤدي بها الى قبول الاسهام بنصيبها الضروري في هذا السبيل .

3) وعلى الرغم من اهمية التعقيدات التي تنطوي عليها طبيعة وجود التخلف من اساسه فان هناك عوامل اخرى تتجدد باستمرار وتؤثر في زيادة هذه التعقيدات ، وتكاد تجعل من مفعولها ونتائجها المشكل العالمي الاكثر استعصاء على الحل والتذليل ، ومن بين هذه العوامل الاضافية: العامل الديموغرافي الذي تشخصه حالة تكاثر السكان وتضخم حجم الشعوب والجماعات الانسانية الموجودة بشكل يتجاوز كل التخطيطات الاقتصادية والاجتماعية الموضوعة من قبل ، والواقع ان الظاهرة السكانية هذه التي هي – بحق – من مميزات عصرنا الحاضر ، هذه الظاهرة هي من الشمول العالمي بحيث لا يختص بها قطر دون آخر ، او تتميز بها منطقة ارضية غير الاخرى ، وان كان الملحوظ ان آسيا والشعوب الصفراء ترتفع نسبة التزايد السكاني في حظيرتها ، اكثر مما تسجله القارات والعناصر الانسانية الاخرى في العالم ، وعلى اي ، فبغض النظر عن نسبة التزايد الديموغرافي واهميته في كل منطقة ارضية ، فان الامر الثابت – على اي حال – ان قضية التزايد هذا ، هي قضية عامة ومشتركة ، بين شعوب الارض جميعا ، لا تختلف في في ذلك الامم المتخلفة عن المتقدمة ، او الشعوب الصغيرة عن الكبيرة ، او المناطق الباردة عن الحارة لكن الملاحظ من جانب آخر، تاثير هذا التزايد السكاني، والمضاعفات الاجتماعية والاقتصادية الناشئة عنه ، كل ذلك يختلف كثيرا بين ما هو عليه الامر عند الشعوب الناشئة من جهة ، وما هو عليه الامر كذلك في الامم الاكثر تقدما ، وذلك اولا باعتبار كمية التزايد التي هي اكثر ضخامة عند الشعوب المتخلفة ، وثانيا بالنظر لضعف مواردها وطاقاتها القابلة لمواجهة نتائجه ، والاثار المترتبة عنه في مختلف الميادين .

هذا واذا اضفنا الى ذلك عامل السرعة البالغة التي يسجلها التطور الحضاري المعاصر باستمرار وما ينتج عن ذلك بالطبع ، من ازدياد الفروق الشاسعة التي تفصل بين المتقدمين والمتخلفين ، واتساع المسافة التي يتحتم على هؤلاء ان يقطعوها للحاق بقافلة التطور والنمو والثراء – اذا وضعنا كل ذلك في موازين النظر والتقدير فانه قد يسهل علينا حينئذ ان نهضم الفكرة القائلة بان قضية التخلف هي القضية الاولى والاساسية في العالم ، وان ما عداها هو مجرد تفرعات عنها ، ومضاعفات ناشئة عما تنطوي عليه هذه القضية من تعقيد بالغ ، يسري مفعوله على مختلف مناحي الحياة الانسانية وتنعكس عواقبه على افق العلاقات الدولية والعالمية في نطاق غير محدود .

وعلى اساس هذه الفكرة – ولاسباب اخرى تتصل بها من قريب او بعيد – فقد اصبح هذا الموضوع – موضوع التخلف والمتخلفين موجب عناية قائمة من الجميع ، ومن احدث مظاهر هذه العناية ، المؤتمر التجاري العالمي الذي انعقد خلال ربيع هذه السنة في جنيف ، وضم ممثلين عن كافة مناطق الارض تقريبا ، وذلك لبحث مناهج التبادل التجاري بين الدول ، والمبادىء والمقاييس التي يجب ان تتحكم في ممارسة هذا التبادل في المستقبل ، والمقاصد التي يجب توخيها من وراء كل ذلك ، وقد كان انعقاد هذا المؤتمر – بحق – مظهر انقلاب مهم في طريقة التفكير واساليب التعاون الدولي في عالم اليوم ، ولا تعود اهمية هذا الانقلاب الى مجرد انعقاد مؤتمر من هذا النوع ، وطبيعة القضايا التي كان عليه ان يعالجها خلال جلساته ، بل ان هذه الاهمية تعود اكثر من ذلك ، الى الفكرة التي كانت من بين العوامل الرئيسية الداعية الى انعقاد المؤتمر ، هذه الفكرة التي تنص اساسا على ان منح الهبات والقروض والاعانات العينية او التقنية ، لم يعد كافيا – بمفرده – لمساعدة دول العالم الثالث على مكافحة التخلف الذي يجثم عليها بكامله ، بل ان من اجدى الطرق واضمنها، لتحقيق بعض النتائج في هذا المضمار ، هو التعاون مع الدول المتخلفة على تنظيم التجارة العالمية على اسس جديدة ، وكفيلة – في الاساس – بمساعدة هذه الدول على تكوين موارد وطنية صحيحة ، تعينها على انجاز البرامج التطورية التي تتوخاها ، وليس من المعقول ان

ينتظر المرء من هذا المؤتمر مبادرات اخرى تماثله ، ليس من المعقول ان ينتظر المرء من ذلك تطورا عالميا سريعا يؤدي الى اصابة وجود التخلف فى الصميم ، فالعقبات والمصاعب المختلفة التي من المتوقع دائما ان تواجه نهضة عالمية من هذا النوع ، هي من التكاثر والتنوع بدرجة كبيرة جدا ، ولعل من اخطر هذه العقبات ، واشدها مناعة وتعنتا هي العقلية التي يمكن اعتبارها ضيقة ، والتي تسود تفكير كثير من الاوساط الاحتكارية العالمية هذه الاوساط التي تهيمن بشكل او آخر ، على كثير من مقاليد الانتاج والتبادل العالمي ، ولا تنظر الى هذه الامور (امور الانتاج والتبادل) الا من خلال الارباح القياسية التي تنالها والاسواق الجديدة التي تفتتحها ، بغض النظر عن صلة ذلك او عدمه ، بمعطيات الازدهار العالمي العام ، وحالة التخلف او التقدم ، التي تتوزع مناطق العالم توزعا غير منطقي وغير عادل .

ومثل هذه المؤاخذات — التي لا يمكن انكار صحتها — تتردد دائما على السنة الشعوب المتخلفة التي ترى ان الاحتكارات العالمية المتسترة وراء ما يدعى بالاستعمار الجديد ، تقف باستمرار حجر عثرة امام تطور اقتصاديات الاقطار الفتية ، وذلك كنتيجة لما ترفضه هذه الاحتكارات من تنازل عن امكانياتها الضخمة فى الاسواق العالمية ، وخاصة الاسواق الافريقية والاسيوية التي يراد لها ان تبقى مجال انتاج للخدمات المختلفة ، وميدان استهلاك للمواد المصنوعة فى الاقطار المتقدمة ، وكم تكاثرت الاراء والتحليلات بهذا الشان ، فى مختلف المؤتمرات الاقتصادية وحتى السياسية التي عقدت باسيا وافريقيا خلال السنوات الاخيرة ، سواء على مستوى الحكومات المسؤولة ، او على مستوى اقل أي فى نطاق المؤسسات والهيئات المعنية بمثل هذه القضايا اما تحت اشراف الامم المتحدة ، واما برعاية منظمات جهوية كالجامعة العربية ، او منظمة الدول الامريكية واما كذلك فى ظل تجمعات حزبية او مهنية كالتجمعات التي يعقدها بين حين وآخر محامون او مسيرون سياسيون على مستوى العالم العربي ، او الكتلة الافريقية الاسيوية او غير ذلك ، فهل كل ما تحمله هذه المؤخذات هو صحيح دائما والى اقصى الحدود ؟ وهل واقع حقا ان استمرار التخلف بل واستفحاله يعود — فى الدرجة الاولى الى السياسة التجارية التي تسود العالم ، ولا تترك للشعوب المتخلفة سبيلا لتحقيق التطور المنشود ، وذلك بالصورة السريعة والفعالة ، التي تاملها اقطار العالم الثالث ؟ ان التساؤل حول مسائل بديهية ((من هذا المستوى قد يعتبر فى نظر الكثيرين سواء فى حظيرة العالم المتخلف ، او اقطار العالم الشيوعي من باب توضيح الواضحات او تحصيل ما هو حاصل بالفعل ، ولا غرو فى ان هناك نصيبا من الواقع ملحوظا فى مثل هذه التقديرات ، لكن هل يبدو الامر على هذا النحو ايضا ، فى نظر الاخرين ممن لا ينتسبون الى الامم المتخلفة او العالم الشيوعي — وان كان ليس من الضروري ان يكونوا دائما من رؤوس الاحتكارات العالمية الكبرى او من كبار المسيرين لـ ((التروستات)) و ((الكارتيلات)) الضخمة هنا او هناك ، وقد القى الى فى الايام الاخيرة بحث يتصل بالموضوع نشرته احدى المجلات الفرنسية Revue Economique بقلم M. Nicklauro يتضمن آراء ونظريات تثير الالتفات ، وتتركز كلها حول نفسية الشعوب المتخلفة وما تتميز به هذه النفسية — على حد اعتبار الكاتب — من التواء وتعقيد بالغين ، وما يتحكم فى تكيفها وتوجيهها من مركبات نقص او كمال مزمنة : تذهب فى المفارقة والاغراب الى مدى بعيد جدا .

وقد ذكر الكاتب فى مطلع الموضوع الذي عالجه ، ان المشكلة النفسانية عند الشعوب المتخلفة ، لا تقل اهميته واثارة للنظر ، من المشاكل التقليدية التي تعاني منها هذه الشعوب على المستوى الاجتماعي والاقتصادي وما فى باب ذلك ، وقد غدت هذه الشعوب بالفعل شديدة الشعور بحالتها المتخلفة ، اكثر من اي وقت مضى ، ويرجع ذلك — ولا شك — الى ما اصبح عليه الامر من شدة الاتصال بين الامم والشعوب واتساع وسائل التوجيه والاعلام وانتشار الافكار والمبادىء والنظريات المختلفة ، وتفاعل كل ذلك فى حظيرة المجتمع الانساني المعاصر ، غير ان شدة الشعور بالتخلف بين الاقطار ((العالم الثالث)) لم يدفع هذه الاقطار — كما يعتقد الكاتب — الى تقدير احوالها ، والحقائق المحيطة بها تقديرا موضوعيا سليما ، بل ان جملة من المشاعر السلبية ، قد استطاعت على العكس من ذلك — وكما يرى الكاتب دائما — ان تتسرب الى ذهنية شعوب هذه الاقطار ، وتوجهها توجيها فيه كثير من الزيغ والمغالاة التي لا يبدو وانه يوجد ما يبررها دائما بحسب المقاييس المنطقية العادية ، ان حالة حقيقية من التعقيد النفساني قد أصبحت تميز على هذا النحو — كثيرا من مناحي التفكير والتقييم عند عدد من الامم المتخلفة هنا وهناك فى آسيا وافريقيا وغيرهما، ويقوم هذا التعقيد النفساني بوجه اخص على ازدياد الحساسية المتطرفة ، واستفحال الاحساس بالغرور القومي المغالى فيه ، بكل ما يجر اليه ذلك من انسياق وراء الفخر الذاتي الذي لا

يعرف حدودا وانصياعا لدواعي التعلق بمآتي الماضي وامجاده واعتقاد جازم فى قيمة العبقرية الوطنية التي قد تصل فى تقدير البعض من هذه الامم الى درجة اعتبار نفسها على انها ذات الفضل العريق فى تقدم الحضارة الانسانية وصاحبة الاثر البالغ فى اهتداء الرواد الاول ، الذين قادوا مشعل هذه الحضارة من منابعها الاولى ، ويذكر الكاتب بهذا الصدد قصة طابع بريدي اصدرته الحكومة الغانية للتداول العام بعد ان سجلت عليه صورة تمثل بعض الاغريق والرومان يتلقون اصول العلم والتحضر من ابناء افريقيا ذوي البشرة السوداء ، ولهذه الحساسية القومية المرهفة مؤثراتها على سلوك الاقطار المتخلفة ، وما لهذه الاقطار من مفاهيم ونظريات فى موضوع التعاون الدولي وظروفه ومقتضياته ويذكر الكاتب بهذا الصدد ان مثل هذه الحساسية هي التي تقود كافة الدول المتخلفة تقريبا الى وضع الشروط الكثيرة امام امكانيات استفادتها من مجمل الاعانات الاقتصادية والثقافية وغيرها التي تتلقاها من الخارج ، فان من اوائل الشروط التي يضعها البلد المتخلف فى هذا المضمار قبل ان يتقبل الاعانة الخارجية المقدمة له الا تكون هذه الاعانة مشفوعة باية شروط من اي نوع كان ، والا تكون خاضعة لاية اعتبارات سياسية او ستراتيجية او ديبلوماسية او حتى ما هو ادنى من ذلك ، اي ان الشعوب المتخلفة ـ كما يؤكد الكاتب ـ تود دائما ان تكون محبوبة لذاتها، لا لاي غرض آخر مصلحي ، او ممتزج مطلقا باية اعتبارات مصلحية ، بل ان شدة الحساسية التي تتحكم فى نفسية هذه الشعوب ما برحت تدفعها الى المغالاة حتى فى بعض المسائل الثانوية كالاسماء والنعوت التي يمكن ان تطلق عليها لتميزها عن بقية المجموعات الدولية التي تختلف عنها فى الظروف والاحوال والصفات ، فالكثير من الشعوب المتخلفة لم تعد تتقبل دائما ان يطلق عليها نفس لفظ ((التخلف)) اي بما يؤديه هذا اللفظ من مفهوم مطلق لا تخفف من وقعه محسنات لغوية او صياغة ديبلوماسية ، ولذا يقول ـ الكاتب فان الامم المتخلفة قد اصبحت توثر تعبيرات اخرى تطلق عليها غير هذا التعبير مثلا كدعوتها ب ((الامم ناقصة التطور)) ، او افضل من ذلك ((الامم النامية)) ، او كما اقترحه البعض اخيرا ((الامم الاخذة فى التطور السريع)) وحتى المساعدات الاقتصادية التي يتلقاها المتخلفون سواء عن طريق الامم المتحدة او عن طريق الاتصالات الدولية المباشرة لا يستطيعون ان يتقبلوها ـ كما يؤكد الكاتب ذلك ـ محفوفة باعتبارات التفضل عليهم او الاحسان اليهم كيفما كانمفهوم هذا التفضل او الاحسان بل انهم لا ينون فى التاكيد بان مثل هذه المساعدات التقنية وغيرها ان هي الا واجب محتوم تؤديه الاقطار الاكثر تقدما ، وليس لها مناص من ادائه فى ظل الظروف الجديدة والمتطورة التي يعيشها العالم المتحضر .

الملاحظات هذه ، وغيرها ، التي ساقها (م . نيكلوس) فى معرض الحديث عن نفسية الشعوب المتخلفة فى افريقيا وآسيا وغيرهما ـ هذه الملاحظات لا تساعد ـ كما هو واضح ـ على تحديد اطار علمي حقيقي تتبلور من خلاله ـ بحق ـ مختلف المظاهر السيكولوجية عند هذه الشعوب، وما يكمن وراء المظاهر هذه من عوامل وملابسات ، وحقائق اساسية ، لها تاثيرها فى تكييف الامور على النحو الذي هي عليه بالفعل ، وقد يعرض كتاب آخرون لهذا الموضوع من جديد، فيتناولون نفسية الشعوب المتخلفة كما يتصورونها مترعة بعوامل الحرص ، والاثرة ، والاستعلاء السلبي بمختلف مظاهره وصوره ونتائجه ، وقد يتصدى بعض ((المتخلفين)) من جهتهم للموضوع من الجانب المعاكس فيتناولون الدول الصناعية كدول ، (ولا نقول ((التروستات)) الاحتكارية العالمية ، والاوساط المرتبطة بها) يتناولون هذه الدول من وجهة نظرهم الخاصة ، اي من وجهة النظر القائلة بان الدول الصناعية تسيرها انانية مادية عمياء تقودها الى الحرص على ابقاء الاوضاع الاقتصادية التقليدية فى العالم على ما كانت عليه منذ بدء النهضة الصناعية الحديثة وغداة سيطرة النظام الاستعماري القديم على اسيا وافريقيا والاقيانوسية وغير هذه المناطق ، ومما لا مشاحنة فيه ان قدرا من التبصر عند هؤلاء واولئك ، عند المتخلفين من جهة ، وبعض الدول الصناعية من جهة اخرى ، لا شك ان هذا التبصر كان من بين العوامل التي قادت الجميع الى التغلب على الصعوبات النفسانية القائمة وعدم الانسياق المطلق وراء المصالح القومية الخاصة ، فكان من ذلك هذه المبادرة التقاربية الدولية التي يمثلها كما تقدم ـ مؤتمر التجارة العالمي فى جنيف ، حيث اصبح المجال متفتحا امام الاطراف الدولية المعنية لعرض وجهات نظرها حول المشاكل الاقتصادية العالمية الموجودة وحيث اصبحت هناك امكانية متوافرة ـ وهذه احدى النتائج المنتظرة على الاقل ـ لتحقيق نوع من التقارب بين المصالح الدولية المتناقضة ، وفسح المجال امام تفاهم من هذا القبيل تقل اهميته او تكثر ، والمأمول من هذا التفاهم ان يؤدي الى ازاحة الاساطير التي تعلق باذهان الكثيرين حول نفسية الشعوب المتخلفة ، والعقلية الخاصة التي يعتقد انها تسود هذه الشعوب ،

وتكيف وجهتها وسلوكها على نحو معين ، فالامم المتخلفة التي تمثل اكثر من ثلثي سكان العالم ، وتعمر معظم انحاء القارات الاربع (افريقيا وآسيا وامريكا والاقيانوسية) تعاني بالفعل جملة من التناقضات السيكولوجية التي تتشعب احيانا الى مدى بعيد ، فاكثرية هذه الامم هي ـ على العموم ـ حديثة عهد بالمسؤوليات الداخلية ، والدولية المستقلة ، ولم تصل فعلا الى درجة الاضطلاع بهذه المسؤوليات الا بعد صراع طويل مع القوى الدولية الكبرى في العالم ، وقد كان هذا الصراع يكتسي ـ في كثير من الحالات ـ مظهر حدة بالغة ، كان من شانها ان تترك الكثير من الاصداء السيئة في الاذهان لكن الظاهرة الايجابية التي يلحظها المرء بهذا الصدد هي ان اكثرية العواقب النفسانية التي كان من الممكن ان تخلفها عهود الصراع الطويل بين الشعوب المحكومة والشعوب الحاكمة سابقا ـ هذه العواقب لم يكن لها في كثير من الحالات تاثير مهم جدا ، ولم تصد الشعوب المستقلة حديثا عن اغفال الاحداث السابقة والاتجاه اتجاها حاسما الى انشاء علاقات تعاونية جديدة سواء في المستوى الاقليمي الدولي او على الصعيد الدولي العام ، ومن ثم ، فاننا نلحظ ان اكثرية الاقطار الناشئة في آسيا وافريقيا قد آثرت منذ تقلدها مسؤوليات السيادة ـ جانب الحياد وعدم الانحياز ، اي ان خط الصراع الحاد الذي كانت تنهجه غالبا في مجال سعيها الى استرجاع السيادة قد اخذ يفقد في اعتبارها قدرا كبيرا من جاذبيته ومبرراته ـ وان كانت بعض الدواعي القومية توجب احيانا الاستمرار في هذا الصراع على صورة تختلف عما يكون الامر عادة في مرحلة ما قبل الاستقلال بحيث يتدخل العامل الديبلوماسي الدولي اكثر من غيره وذلك بصدد السعي مثلا الى استرجاع اجزاء ترابية ضائعة ، او الحرص على الغاء قواعد ومحطات اجنبية قائمة ، او تصفية امتيازات واوضاع تعتبر غير مشروعة ، على ان هناك ايضا ـ الى جانب الاقطار الحديثة التي آثرت جانب الحياد ، اقطارا اخرى تعتبر هي ايضا اقطارا ناشئة ومتخلفة ، وينطبق عليها ما ينطبق على مجموع البلدان النامية ، وحديثة العهد بالاستقلال ولكنها ـ مع ذلك ـ لم تكتف بمجرد التزام الحياد والتعاون مع القوى الدولية التي كانت حاكمة من قبل ، بل انها سارت ـ لاسباب داخلية وعالمية ـ تعتبر وجيهة في نظرها ـ الى درجة الانخراط في احلاف سياسية وعسكرية ، تضم بينها وبين الدول التي كانت تصارعها بالامس ، اي ان مثل هذه البلدان المتخلفة والمنحازة ـ في نفس الوقت ـ قد استطاعت ان تتخلص من العواقب النفسانية الناشئة عن صراعها السابق مع المستعمر القديم ، كما هو الشان بالنسبة لاكثرية الدول المحايدة ، واستطاعت ان تزيد على ذلك بان تسير وهذا المستعمر في خط واحد ضمن اهداف سياسية وعقائدية تصل بين الجانبين على اساس ما بينهما من تحالف وتكتل كحلف شمال الاطلسي والحلف المركزي وغيرهما .

ولهذا فان الملاحظ على وجه العموم ، ان الكتلة الشيوعية قلما تضم في حظيرتها المستعمرات والمحميات الغربية السابقة ، على الرغم من ان اكثرية هذه المستعمرات والمحميات قد اصبحت على درجة من الاستقلال في وجهتها السياسية الخاصة وفي السلوك الذي تؤثر اتخاذه على صعيد الحياة الدولية والعالمية ومثال الفيتنام الشمالي ، والصين ايضا هو من بين الامثلة القليلة ، التي تكون نوعا من الشذوذ في هذا المضمار ، ولا يعني كل هذا ان دول العالم الثالث ، قد اختارت فعلا سلوك هذا السبل لمجرد تاثرها بنوع من الشعور الطيب او النية الحسنة ، او ما هو من باب ذلك ، وانما الامر في هذا المجال يعود في كثير من عوامله الى عناية هذه الدول بتقدير الواقع العالمي ، كما تحدده الحقائق الحضارية والدولية الحديثة ، ثم استنتاجها من الاحتكاك بهذا الواقع جملة من المناهج السياسية والاساليب العلمية هي التي تؤثر اليوم على الستراتيجية التي تتخذها في المضمار الديبلوماسي وتحدد سلوكها في كثير من الميادين الدولية والعالمية ، وان اول ما تقتضيه هذه المبادىء والاساليب المنبثقة عنها : نبذ الانفعالات السلبية ، مزمنة او طارئة ، وتكييف المرحلة النضالية الجديدة من اجل التحرر الاقتصادي والاجتماعي بحسب المقاييس والمعطيات العلمية والموضوعية ، والاستفادة من اجل هذا ـ من شتى الامكانيات الدولية التي يمكن الحصول عليها ، بما في ذلك سبيل التعاون مع قدماء المستعمرين الذين يهيمنون ـ بحق ـ على مقاليد الصناعة ومصادر الانتاج العالمي الحديث ، ان الاقطار المتخلفة لا تسير كلها على خط واحد حيث الوسائل والمناهج التي تتبعها في هذا المضمار ، لكن هناك فكرة تكاد تكون عامة ومشتركة تقضي بالفعل على مختلف هذه الدول باتباع سبيل التعاون الدولي في اكثر صوره مهادنة ووداعة والتقرب بسبب ذلك ـ من مجموع الكتل الدولية القائمة ، بما فيها من شيوعية او راسمالية ، بل والعمل ايضا من اجل التقارب بين الشرق والغرب ، اي السعي الى توفير اكبر حظوظ ممكنة لسيادة السلام ، واضعاف شان العقد والانفعالات الدولية الموجودة ، على ان هذه العقد والمعضلات الكثيرة

التي يزخر بها الجو الدولي الحاضر ، لا تساعد في جميع الحالات على اقامة حياة دولية سليمة ، وايجابية المقاصد ، ومن الطبيعي ان تتأثر كثير من اقطار العالم الثالث بمؤثرات جو من هذا القبيل ، اذ ان هذه الاقطار ولو انها تتميز بسمات عامة تميزها عن غيرها في كثير من الاشياء الا انها تشكل — مع ذلك — جزءا من الحياة العالمية متفاعلا مع الاجزاء الاخرى ، مؤثرا فيها ومتأثرا بها على نحو او آخر ، ومن ثم نلاحظ — بحق وجود انفعالات حادة وعميقة الاثر احيانا ، تضطرم في نفسية بعض الشعوب المتخلفة ، وتنال من استعدادها التلقائي للتعاطي الايجابي الحر مع بعض الجهات والقطاعات الدولية الاساسية في العالم ، وثمة مثالان بارزان يحسن الاتيان بهما في هذا المقام :

1) **بالنسبة للعالم العربي :** هناك مثلا مشكلة اسرائيل التي لاشك انها كانت تكون اقل تشعبا وتعقيدا ، لو لم يكن هناك تدخل دولي سافر ومقنع لصالح الدولة الصهيونية ولضمان استمرار بقائها على حساب المليون من اللاجئين الذي يتيهون هنا وهناك في شتى انحاء الشرق الاوسط ، وعلى الرغم من ان العرب يوجدون اليوم من اقل الشعوب تأثرا بالعقد النفسانية التي تنشأ عادة عن مراحل الصراع مع المستعمر القديم ، فان المشكلة الاسرائيلية ، وخاصة نوع الملابسات الدولية التي تحيط بها كل ذلك من شأنه ان يخلق حالة ما من التعقد في النفس العربية ، ويحول دون تخلص العرب من كافة الرواسب السيكولوجية التي كانت في اذهانهم ضد القوى التوسعية التقليدية منذ نهاية الحرب العالمية الاولى .

2) **بالنسبة للقارة الافريقية :** تقوم مثلا معضلة اخرى تماثل المأساة الفلسطينية في بعض الجوانب وان كانت لا تشبه تلك المأساة في كل مظاهرها وتفاصيلها ، والمعضلة الافريقية هذه ، تتمثل في النظام القائم بجنوب افريقيا وما يسلكه هذا النظام من نهج يعتبره الافريقيون وغيرهم كاشد ما تكون المناهج الحكيمة نشوزا وايغالا في الشذوذ ويعيش النظام الجائر على ((بريطوريا)) بالفعل حالة من العزلة الدولية المحكمة ، توشك ان تجعل منه صورة خاصة ومفردة في جميع انحاء العالم ، وقد لفظه ((الكومونولث)) ويكاد ينبذ من حظيرة الامم المتحدة ، بعد ان اصبح يعاني من شتى المصاعب في داخل المنظمات والهيئات التابعة لها غير ان طبيعة النظام الجنوبي الافريقي ثم شدة التصادم الموجود بين الحالة القائمة هناك وبين الراي العام الذي يسود القارة الافريقية شمالا وجنوبا كل ذلك لم يعد يترك المشكلة تجري مجراها السهل كما كان الشان في السابق اي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بل اخذ يخلق مضاعفات ومصاعب دولية حقيقية توشك ان تخلق نوعا من التباعد في الفكر والنظر بين دول المجموعة الافريقية من جهة وبين بعض الدول الاخرى غير الافريقية والتي تعنى بشؤون القارة من جهة اخرى ، وقد كان مؤتمر لندن الذي عقد اخيرا حول موضوع المشكلة السلالية بجنوب افريقيا ، وما تضارب فيه من وجهات نظر حول امكانية فرض حصار شامل ضد نظام ((بريطوريا)) او عدم جدوى ضرب هذا الحصار — كان كل ذلك مظهرا دوليا مثيرا له اهميته فيما يدل عليه من صراع فكري ونفسي ، لم يزل يشتد كنتيجة حتمية لاستمرار المشكلة القائمة في جنوب افريقيا وينال بالتالي من استقرار الصلة الايجابية بين بعض الاقطار المتقدمة ومجمل بلدان العالم الثالث والشعوب الملونة .

❊

على ان القضايا السياسية مهما تباعدت الاراء في محيطها وحولها ليس من شانها ان تحول دائما دون وجود مبادرات للتعاون بين كافة اعضاء الاسرة الدولية خاصة في الميدان الاقتصادي والانساني والحضاري بوجه عام ، انما الحقيقة التي لا يمارى فيها ان تصفية قضايا من هذا القبيل ، بما تساعد عليه من محو عدد من العقد والمركبات النفسانية التي تنال — بالفعل — من حظوظ الثقة بين المتقدمين والمتخلفين ، كل هذا من شانه ان ينمي ممكنات التعاون المنشود اكثر مما هي عليه الان نسبته وكيفيته ، ويزيح عن الجو الدولي عددا من المضاعفات السلبية التي تثقل الحياة الدولية في كثير من الحالات والتي قد تؤدي احيانا الى اضعاف بعض عوامل الثقة المتبادلة بين الجماعات الدولية المتعايشة في الارض كما يعكس ذلك بعض الاراء التي ساقها ((م . نيكلوس)) بصدد كلامه عن نفسية الشعوب المتخلفة وكما تقدم من قبل فان من بين الملاحظات التي تكتسي صبغة المؤاخذة والتي توجه الى هذه الشعوب، حنينها الدائم الى الماضي السحيق، وتهربها من الحاضر الى رحاب التاريخ البعيد واشراقاته الوهمية اللماعة ، ودؤوبها الشديد على استذكار كل خرافات الاجداد ونزواتهم وانحرافاتهم ايضا وادعاؤها ان ذلك يمثل قمة الامجاد والمفاخر ، وجليل العظائم والمآثر ، بل وذهابها الى حد الزعم احيانا بانها هي نفسها كانت — تاريخيا — منبثق الحضارة ومعلمة الشعوب ومنطلق الوعي والتقدم منذ فجر الانسانية الاول ، ومما لا مراء فيه ان هناك الكثير من المغالاة في اطلاق تقديرات من هذا النوع ،

يمكن اعتبارها في بعض الاحيان ذات قيمة اعتباطية لا غير ، ومما لا مراء فيه ايضا ان عددا من الشعوب المتخلفة او المعتبرة في حكم المتخلفة ، لا تفتأ تثير الكثير من القضايا التاريخية بمثل هذه الروح ، واستنادا الى بعض المدعيات التي قد تدل عليها بعض الاثار المعزولة التي يمكن ان تكون قد اكتشفت هنا او هناك ولكن مثل هذه المكتشفات المبعثرة والمشكوك في قيمتها العلمية احيانا ، لا تمكن دائما من تكوين استنتاجات ثابتة ، وذات شمول علمي حقيقي تساعد على اطلاق تاكيدات من هذا النوع بصورة لا تقبل المراجعة ، وعلى اي فاننا اذا ما تجاوزنا الموضوع من ناحيته العلمية ونظرنا فيه خاصة من حيث الملابسات السيكولوجية التي تحيط به فاننا سنلاحظ حينئذ ان ليس هناك ما يدعو الى الاستغراب من وجود احوال على هذا النحو يتبين من خلالها شدة حنين الشعوب المتخلفة الى ذكريات الامس الغابر والتنقيب عن كل ما يتوهم ان التاريخي القومي يحويه من امجاد مشرقة، بل واللجوء ايضا الى اصطناع هذه الامجاد عند الاقتضاء . ان الواقع الذي لا يقبل المكابرة ان هذه الظاهرة (ظاهرة العناية بالامجاد التاريخية) ليست خاصة بالمتخلفين وانما هي كثيرة الشيوع في العصر الحاضر لا تختلف في ذلك الامم المتقدمة الا من حيث درجة الالتزام العلمي في البحث وتوافر الوسائل التنقيبية والاستنتاجية عند هؤلاء اكثر من اولئك ، وجدير بالاعتراف ايضا ان هناك في بعض الشعوب المتخلفة مغالاة متزايدة في الاهتمام بالماضي الى درجة الهوس احيانا ، والى حد يوشك ان يمس بالطاقة التي يجب ان تصرف في العناية بالحاضر تفكيرا وتخطيطا وتشييدا ، لكن مهما كان هذا الهوس ((التاريخي)) شديدا عند البعض من شعوب العالم الثالث ، فانه يعتبر في جميع الحالات اقل مما كان من الجائز ان يكون عليه ، اذا ما نظرنا الى الامر من الناحية السيكولوجية الصرفة فثمة على الاقل امكانية لتفسير ذلك وتبريره على اساس تقدير الحقائق والمعطيات الخاصة التي ما برحت تحيط بهذه الشعوب منذ افول نجم حضارتها العتيقة ، ووقوعها بالنتيجة لذلك تحت طائلة الحكم الاجنبي مباشرا وغير مباشر ، لقد كان عدد مهم من هذه الشعوب يعيش فيما قبل التاريخ الميلادي او اثناء العصر الوسيط — كان يعيش في ظل حضارة مادية ومعنوية لا حاجة الى التذكير بمقوماتها وخصائصها من نهضة عمرانية وزراعية وفكرية وغيرها

لكن هذه الخصائص والمقومات قد وجهت فيما بعد أي غداة سقوطها امام الغزو الجديد الاتي من الغرب — ووجهت بنوع من التحدي المقصود او غير المقصود ، ولا نقول المناواة التي كانت هي الاخرى موجودة في اكثرية الحالات ومع بزوغ الوعي فيما بعد — عند مختلف الشعوب المحكومة وخشيتها من اضمحلال شخصيتها وذاتيتها في حالة استمرار هذا التحدي او هذه المناواة التي تمس الحقائق التاريخية التي تتعلق بهذه الشعوب ومالها من صلة بالمقومات والاسس التي لا يزال لها مدلوليا قدر من الفاعلية الحية ، مع كل ذلك كان لابد من بروز نوع من الاهتمام بالحقائق القومية بما فيها التاريخ القومي ، واشتداد هذا الاهتمام وتبلوره في اشكال مغالية ومتحمسة تقارب معنى الهوس احيانا ، وعلى هذا فهناك في هذا المجال اذن مجرد حالات من رد الفعل النفساني تبدو — عند الفحص — معقولة بل وضرورية كذلك ، ضرورية كعامل من عوامل الحفاظ على ((بقاء النوع)) القومي والحضاري لامة من الامم كيلا تفقد استمرار شخصيتها من هذه الناحية وتتعرض لحالة ما من ضعف الاصالة القومية ، الامر الذي من شانه ان يحدث لها اضرارا مهمة سواء من الناحية النفسانية او السياسية او الاجتماعية ، حقا ان المفاهيم في هذا الموضوع وغيره تتغير باستمرار وليس من اللازم فعلا ان يكون هناك ارتباط حتمي بين العناية بالتاريخ وبين القدرة على اثبات الوجود الحاضر ، اي ان قدرة امة على تاكيد وجودها والحفاظ عليه لا يتوقف دائما — وبصورة حتمية — على ما تبديه هذه الامة من عناية بماضيها التاريخي الخاص الا ان ذلك لا يجب ان يمنع الشعوب المتخلفة من الاستجابة لرد الفعل — كما تقدم — وهو ظاهرة طبيعية سواء بالنسبة للافراد او الجماعات والواقع ان هذه الشعوب لا تمارس عمليات رد الفعل بالكيفية التي يمكن ان يمارس بها عند الامم الاخرى التي تتوفر لها الممكنات اللازمة في هذا المجال، والا فماذا هو معروف مثلا عن الانسان والمجتمعات الانسانية في افريقيا القديمة ؟ وكذلك الامر ايضا بالنسبة لعدد من شعوب الشرق الاقصى ؟ وما درجة الاشعاع الحضاري الذي انبثق في هذه المناطق وغيرها من زوايا العالم القديم ، حقا ان هناك بالفعل نوعا من الاهتمام ، مجرد الاهتمام بالمقومات التاريخية الخاصة عند عدد من الشعوب الناشئة ، لكن ليس هناك في جميع الحالات وعي تاريخي حقيقي يستوعب القضايا التاريخية

بجميع ابعادها المادية والانسانية وبشكل يعتمد دائما الروح العلمية والمختبرة التي تستبعد في الدرجة الاولى النوازع العاطفية والمغالاة الهوجاء في العرض والاستنتاج والتقييم ، ولا جدال في ان مرحلة رد الفعل النفساني هذه كلما قل تاثيرها مع مرور الزمن كلما قلت كذلك نوازع المغالاة هذه واصبح التفكير التاريخي اكثر علمية وبالتالي اقل رومانسية مما يمكن ان يكون عليه الامر الان في بعض اقطار العالم الثالث ، على ان هناك – مع كل ذلك – ملاحظة في هذا المضمار لها اهميتها الخاصة، وهي انه مهما تطور موقف الانسان من التاريخ ومهما امتزج موضوعه بالعقلانية والديالكتيكية فان محتوياته لابد ان تبقى في كثير من الحالات – وبالنسبة الى اية امة – مصدر عظمة من جهة ، ومن جهة اخرى منبع اعتزاز قومي يجب – على اي حال – ان يكون هادئا ورصينا ولاشك ان هذا الاعتزاز يوجد من بين الدواقع المهمة التي تدعو الشعوب النامية اليوم للغيرة على واقعها المستقل ووضع الشروط امام اية مساعدة خارجية لكي لا تنال من هذا الاستقلال على اي وجه من الوجوه ، وليس من الضروري ان يعتبر هذا من قبيل « الشوفينية » او ما في حكمها كما انه ليس من اللازم ان يعتبر دائما كاثر من آثار « شدة الحساسية » التي هي حالة سيكولوجية غير عادية سواء بالنسبة للافراد او الجماعات ، ان سياق الموضوع الذي عرض له « م . نيكلوس » بصدد الكلام عن نفسية الشعوب المتخلفة يومىء بشيء ما من هذا المعنى ، اي على اعتبار ان ثمة صلة من الصلات بين شدة الحساسية القومية وبين الاشتراطات المسبقة التي تضعها الشعوب النامية قبل تسلم اية مساعدة خارجية، والواقع انشدة الحساسية المجردة هذه ليست – كما تقدم – هي العامل الرئيسي الدائم في وجود مواقف من هذا النوع تتخذها شعوب العالم الثالث تجاه سياسة المساعدة الدولية ، فان المنطق السياسي والديبلوماسي الذي يسود الحياة الدولية اليوم والذي هو منبثق عن شتى الخبرات والتجارب المكتسبة هنا وهناك في كافة انحاء العالم خلال العصور وخاصة منها العصور الحديثة ، هذا المنطق له قوته الاقناعية في الوقت الحاضر بحيث ان من شانه ان يدعو الدول كلها سواء منها المتخلفة او المتقدمة الى ايثار الحذر المتبصر في مختلف العلاقات الدولية ولو كانت تكتسي صبغة علاقة تعاون وتضامن ، اننا نعتبر هنا موقف الدول التي تلتزم جانب الحذر المعقول الذي لا يصل الى درجة العزلة والانطواء على النفس كما تنهجه بعض الدول النامية في آسيا بصورة اخص، فباستثناء مثل هذه الدول التي قد تكون تعاني فعلا من شدة حساسية ربما تعتبر مرضية احيانا ، فان الحذر المتزن والمتفتح على العالم والذي تسلك سبيله اكثرية الدول النامية الاخرى يجب الا يعتبر – بدوره – كظاهرة سلبية ومرضية ناشئة عن حالة مراهقة كما يخاله البعض ، بل ان هذا النوع من الحذر – بالاضافة الى كونه – كما تقدم – ظاهرة عامة ومشتركة وثمرة خبرة انسانية طويلة فانه يساعد كذلك على خدمة الاستقرار الدولي وتامين التوازن الذي هو من عوامل هذا الاستقرار وضماناته ومن موجبات ذلك :

1) ان هذا الحذر من شانه ان يقف كعرقلة شديدة واساسية امام تزايد توسع الاستعمار الجديد ، وامكانية تبلوره في اشكال جديدة اكثر دقة ونفوذا .

2) انه يحول دون انزلاق كثير من الدول النامية الى الوقوع في مدار التكتلات المتنافسة في العالم ، وبالتالي فانه يعوق عددا ، من الامكانيات الدولية التي قد يكون من نتائجها ان تؤدي الى تضخيم صفوف هذه الكتلة او تلك ، او تقوية جهاز هذا الحلف او الاخر .

3) اضف الى ذلك انه قد بدا يساهم في تنمية الاعتبار الدولي للاقطار النامية ، وفي اضفاء قدر من الاحترام النسبي على مركزها في العالم وعلى سلامة علاقتها بمختلف الدول الكبرى في الشرق والغرب ..

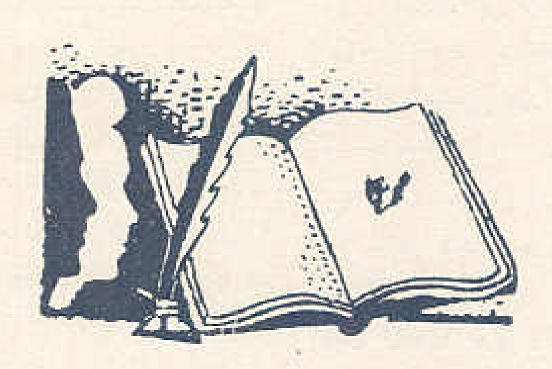
4) انه قد اعان على تحديد حدود للنتائج السياسية التي تسفر عنها سياسة الاعانات الخارجية للدول المتخلفة ، وحال دون ان تصبح هذه الاعانات وسيلة لارباك الجو الدولي ، واثقاله بالمصاعب ، التي يمكن ان تنتج عن استغلال المساعدات الدولية سياسيا ، واتخاذها اداة لممارسة التدخل على نحو مباشر او غير مباشر .

*

هناك – على اساس هذا الاعتبار – فرق ملحوظ بين رغبة كثير من الدول المتخلفة في ان تحافظ على

سيادتها من ان تنال منها مساعدة خارجية مثقلة بالشروط السياسية وغيرها ، وبين ما يقال من ان هذه الدول ، تريد بذلك ، ان تكون محبوبة لذاتها او محبوبة حبا عذريا ليس له ـ في الواقع ـ من معنى عملي على صعيد الحياة الدولية المعاصرة التي تتحكم فيها ـ بحق ـ الاعتبارات الموضوعية والمصلحية على اوسع نطاق واشمله ، على انه اذا كان لموضوع الحب والمحبوبية من معنى في هذا المضمار فانه لابد ان يستند لذلك ـ على منطق الاشياء ذات الوزن الحيوي في حياتنا العالمية الراهنة ، ومن ذلك قضية السلام الدولي المشترك ؛ اي ذلك النوع من السلام الاساسي الذي ينسحب مفعوله ومدلوله ، على مختلف الميادين من اقتصادية واجتماعية ونفسانية بصورة تمتد ابعادها على مستوى جميع العالم ، لا على مجرد مناطق معينة، تعتبر في العرف السياسي مناطق حساسية شديدة وذات قابلية للتوتر السريع ولا في نطاق علاقات دولية محدودة ، كالعلاقة بين الشرق والغرب ، ان السلام من هذا النوع ، لا تتحكم فيه الاعتبارات السياسية والايديولوجية ، التي يمكن التخفيف من حدتها عن طريق انتهاج سياسة ما للتوافق والتقارب ، وانما السلام بهذا الاعتبار ، هو ايضا ـ في الدرجة الاولى ـ السلام الاقتصادي والاجتماعي العالمي ، الذي يقتضي تحقيقه ـ قبل كل شيء ـ تحقيق نوع من التقارب في المستويات الاقتصادية الدولية ما كان منها متخلفا او متقدما ، واقرار سياسة دولية شاملة ، تقوم على نوع من التكافل والتعاون ، يستهدف ـ في جوهره اقصاء التخلف الموجود من الاساس وكما تقدم في مطلع هذا الموضوع فان هذه القضية ـ كما تراها الامم المتحدة ، ومختلف الاوساط الدولية المسؤولة ـ تعتبر القضية الاولى والرئيسية في العالم الحاضر ؛ وما من شك في ان على حسن معالجة هذه القضية ، على اساس عالمي شامل وتصفية المحاذير الكثيرة الكامنة فيها باستمرار ـ يتوقف الاتجاه التي تتخذه المشاكل الدولية في مختلف الميادين ويتوقف بالتالي نوع المصير الذي تتخذه الحياة الانسانية ، وآفاقها في المستقبل القريب والبعيد

سلا ـ المهدي البرجالي



الفكر الفلسفي والفكر الوجودي
حكمة وفلسفة عند اليونان

للدكتور نجيب بلدي

كان دافعنا الاساسي في الكتابة عن « الفكر الفلسفي الوجودي » ، الشعور بخطر داهم على الفلسفة ، وما تمثله من قيم اولاها الحرية الفردية ، خطر صادر في نظرنا عن طلوع مذهبين من مذاهب الفكر واجتماعهما في التأثير على العقول في وقت واحد . اتفاقيا اكان هذا الطلوع ام مقصودا ، نعني انبثاق «الوجودية» في اللحظة التي تم فيها انشاء «الماركسية» وبدا انتشارها في العالم الغربي . ويقوم هذا الخطر على الفلسفة في الاعتقاد السائد بضرورة الاختيار بين فكر وجودي لا تنطبق حقيقته الا على حياة الفكر الوجودي ذاته ، وبين فلسفة ترمي الى القضاء على الفرد والشخصية ، باعتبار هذه الشخصية من بقايا اوهام المرحلة البورجوازية للمجتمع . وقد عملت هذه الفلسفة الاخيرة على انشاء المجتمع الانساني حسب خطوط الجدل التاريخي ، تلك الخطوط التي صورها كارل ماركس في « رأس المال » .

اعتقد اذن المهتمون بقضايا الفكر ضرورة الاختيار بين « الوجودية والماركسية » .

واننا لا نرى ضرورة في الوقت الحاضر لعرض الماركسية ومناقشتها في صيغة مطولة او مختصرة ، لا لان مبادىء تلك الفلسفة معلومة لدى الكثيرين فحسب ، بل لان فهم الفلسفة ، خلال مناقشة الفكر الوجودي في تاريخه ، وخارج الماركسية ، يغنينا عن الدخول في جدال مع فلسفة كالماركسية جمعت الى مرونة اساليبها الجدلية سلطة الاساليب الديبلوماسية والسياسية ، الى الحد الذي اصبح معه الشروع في انتقاد هذه الفلسفة ، كالشروع في انتقاد دين من الاديان السماوية ، تعرضا الى المحرمات ، واعتراضا جريئا على وسائل التعايش السلمي الدولي ، وهو ما لا يجوز ان يقصده مفكر يكتب في الفلسفة ومظاهرها في التاريخ .

يبقى ان فهم الفلسفة هذا قد يؤدي بنا لا الى اثبات قيمتها الدائمة ازاء تفكير وجودي فردي ، لا الى هذا فحسب ، بل قد يؤدي بنا ايضا الى اثبات عدة فلسفات مختلفة يمكن ان تحقق لذاتها وسائل التعايش السلمي فيما بينها ، وتتعارض بالتالي مع اثبات ضرورة فلسفة وحيدة واحدة ، اسمها الماركسية او غير ذلك .

وقد انتهينا في مقال سابق (*) الى انه لا بد من عرض صور للفكر الوجودي حتى تنكشف طبيعة هذا الفكر وتحوله في علاقاته بالفلسفة ، وحتى تظهر لنا الى حد ما طبيعة الفكر الفلسفي وتحوله اثناء علاقاته بالفكر الوجودي . — وغرضنا في هذا المقال ان نعرض في اختصار الفكر اليوناني القديم ، وفي عصوره الاولى ، اي قبل سقراط ، وقبل ان يحاول سقراط ، كما قال هو او كما قيل عنه « انزال الفلسفة من السماء الى الارض » . غرضنا ان نعرض لهؤلاء المفكرين الاوائل ، السابقين لسقراط ، ودافعنا الى هذا العرض اهتمام بعض ممثلي « الوجودية » المعاصرين بمظاهر الفكر السابق لسقراط ، واعتبارهم لها مظاهر لفكر ساذج خالص ، هو الحكمة ذاتها ، لفكر لم تلوثه ادران « الفلسفة » المنطقية والاخلاقية ، تلك الفلسفة التي انشاها سقراط وانماها ارسطو بمنطقه وميتافيزيقاه ، كما انمتها الرواقية بمذهبها الاخلاقي .

(*) راجع دعوة الحق — العدد السادس — السنة السابعة .

والمتفق عليه ان « الوجودية » على يد ممثلها العظيم مارتن هيديجر الالماني قد اتجهت هذا الاتجاه تحت تأثير ما كتبه نيتشه عن الفكر اليوناني ، سواء فى كتابه الاول « ميلاد الفلسفة فى عصر المأساة » او في كتابه الشهير « ارادة القوة » . ولنيتشه قدرة عجيبة على صياغة ارائه وتاويله لاراء المفكرين الاوائل ، وعلى اقناع مطالعيه بتلك الاراء وبذلك التأويل ، وعلى اغرائهم بتلمس مواضع الحقيقة عند المفكرين الاوائل ، وتحليل معاني هؤلاء المفكرين سواء اكان ذلك من الناحية الفلسفية البحت ، او من الناحية اللغوية والادبية . وقد جاءت كتابات نيتشه فى الفكر اليوناني السابق لسقراط مناسبة لظهور اتجاه جديد لتفسير الحضارة اليونانية باصول ومبادىء لا نجدها فى صورتها الكاملة الا عند هؤلاء المفكرين الاوائل ، وتنحرف الى معان جديدة عند ما تبلغ العصر اليوناني الذي عاش فيه سقراط وافلاطون .

لذلك يجب علينا — قبل ان نعرض الى التاويل الوجودي للحكمة اليونانية الاولى — ان نتكلم عن موقف نيتشه ، لا سيما ان الوجوديين سواء فى فرنسا او في المانيا يعتبرون هذا الرجل الموجه الاول لاسلوبهم فى التفكير ، ومسؤولا عن تغير جوهري ، وعن ثورة فى الفلسفة وعلى الفلسفة .

ويمكن ارجاع اراء نيتشه فى هؤلاء المفكرين الاوائل الى ثلاثة رئيسية : الاول انهم كانوا من المرموقين بين رجال بلادهم ، وذوي دراية بمشكلاتها الهامة ، يعتمد عليهم فى شؤون الحكم والسياسة ؛ والثاني انهم كانوا يقدرون قيم الحياة المعتادة ، لا يعتزلون المجتمع ، ولا يفصلون فى تفكيرهم بين نظر وعمل ، بين علم واخلاق ، ولم يحاولوا لذلك انشاء الاخلاق ، بل اعتبروا نظر المفكر ومشاهدته فائقين لكل عمل ولكل اعتبار متعلق بالسلوك ؛ والثالث انهم لم يعمدوا فى التعبير عن آرائهم الى طرق الجدل والنقاش ولم يسعوا الى مستمعين لهم على قارعة الطريق ؛ يوجهون اليهم الاسئلة بغية ارباكهم ، او يردون عليهم بكلام يشككهم فى انفسهم . ان الاوائل لم يمهدوا الطريق الى منطق يميز بين جدل وبرهان ، بين حجة مغالطة وحجة صائبة ، هذا لان تعبير الاوائل كان مرآة لنظر ساذج ولحدس خالص للوجود ، اتخذ هذا التعبير صورة الشعر كما نجد ذلك عند بارمنيد Parménide وصورة المثال والحكمة كما كان الامر عند هيراقليط Héraclite وانباذوقليس Empédocle

واستمر الفكر على هذا النحو حتى جاءت الفلسفة مع سقراط فقضت على الحكمة . انتقدت الاراء الموروثة ، وشكت فى قيم الحياة المعتادة ، ووضعتها موضع السؤال والنقاش ، واتجاه اصحابها الى البحث عن شروط سعادة دنوية او اخروية ، فانشأوا لذلك علماء يدرس ماهيات الخلق الفاضل ، واخطر من هذا وذاك ، ابتدعوا علما سموه المنطق يبين للناس طرق الوصول الى الحقيقة .

وكان سقراط فى كل ذلك معلمهم الاول ، فهو الذي قاد افلاطون الارستقراطي الاصل الى اعتزال المدينة ونبذ شؤون الحكم ، والى اقامة نظريات خيالية « لمدينة فاضلة » . وهو الذي اعد افلاطون الى ان يقيم حدا فاصلا بين وجود سماوي ووجود ارضي ، بين ما هو فوق وما هو تحت ، بين المثال والظل ، وهو الذي مهد الطرق لبحث ارسطو عن السعادة وعن الفضيلة الموصلة للسعادة ، وذلك عند ما كان يبحث فى حوار لا ينتهي عن ماهية الفضيلة ، وعن علم للفضيلة. وسقراط بحواره هذا وبمراجعته المتحاورين وارجاعهم الى مقاصدهم ومعانيهم الاولى ، والى ما يتفق اتفاقا حرفيا مع اقوالهم السابقة وما يتعارض معها ، سقراط هو الذي مهد الى انشاء علم المنطق .

والذي يفكر فى كل ذلك يخلص الى ان سمة الفلسفة منذ نشأتها كانت اثبات الانفصال والانعزال واثبات قيمة التفكير المراجع المصحح ، اي التضحية بالادراك المباشر ، وبالاحساس الحاضر للوجود .

استلهم مارتين هيديجر ، زعيم الفكر الوجودي فى العصر الحاضر ، اراء نيتشه هذه ، لاجل ان يبحث ، فى شيء من التفصيل والانتقاد ايضا ، عن معنى هذه الحكمة ، التي يبدو ان الانسانية قد فقدتها والتي يجب محاولة تذكير الناس بها ، هذه الحكمة التي كانت صادرة عن الفة مستمرة مع الوجود ، وعن اتحاد لا انفصام فيه بين العقل والعالم . بحث عن معنى هذه الحكمة فى كلام الاوائل ، وفى كلام بارمنيد Parménide وهيراقليط Héraclite بوجه خاص عن «الطبيعة» وعن « الوجود » .

وكان عنوان كتب الاوائل كلهم من طاليس حتى ديمقريطس « عن الطبيعة » Péri Physéôs والامر القريب ان يقوم هذا الاتفاق على العنوان . ولكن العنوان ليس من وضع كل منهم ، بل نسب اليهم فيما بعد ، بسبب التماثل الموجود بين آرائهم فى الطبيعة ،

تماثلا يجمع بين الاولين ، ويضع حدا فاصلا بينهم وبين علماء الطبيعة بالمعنى الحديث .

وانا تقترب الى فهم معنى « الطبيعة » هذا ، اذا قارنا بين الكلمة اليونانية Physis والكلمة اللاتينية Natura ومنها Nature بالفرنسية والانجليزية ، وهي متفرعة عن الفعل الذي يدل على الميلاد Nascere باللاتينية ، Naître بالفرنسية ، وتدل « الطبيعة » Physis في معناها الاصلي على الازدهار والتفتح والنضج الكامل ، وعلى احتفاظ المزدهر المتفتح الناضج بازدهاره وتفتحه ونضجه . وعلى ذلك ، امكن اعتبار « الطبيعة » في هذا المعنى الاول معادلة للوجود، او بلفظة اخرى للكائن L'étant الظاهر البارز في كونه

للطبيعة اذن عند المفكرين الاوائل معنى شامل يجب تمييزه عن المعنى العلمي الحديث : ليست « الطبيعة » عبارة عن ظواهر مترابطة تبعا لقوانين محددة لا يعلم سببها ولا يفهم كنهها ، انها الكل الجامع العميق والبارز ايضا ، الخفي الذي يزدهر على الدوام ولا ينفك عن الازدهار .

وليس الوجود Etre او الكائن Etant مختلفا في جوهره عن الطبيعة هذه ، وليس « علم الطبيعة » مختلفا عن علم الوجود ، اي عن الحكمة المجاورة للوجود والمتفتحة على الوجود ، لذلك امكن اعتبار المفكرين الاوائل ، وخاصة بارمنيد وهيراقليط حكماء Sages وطبيعيين Physiologues في الوقت ذاته .

وكما ان سقراط قد قضى بالفلسفة على الحكمة وسوء بالتالي فهمنا للطبيعة والوجود ، فان مؤرخي الفلسفة حتى اليوم قد سواوا فهمنا لهؤلاء المفكرين ، ولهذين بوجه خاص ، لبارمنيد وهيراقليط .

وانا لا نرغب في هذه المقدمة ان ندخل في اعماق تصوير هيديجر لتلك الحكمة الاولى ، ولهذين الحكيمين بنوع خاص ، فان التوغل في تلك المعاني يقتضي مباحث لا تنتهي في معاني الكلمات ، ما دامت الكلمات واللغة ، في اصلها تشهد في نظر هيديجر على ادارك مباشر للوجود . يكفينا ان ننبه هؤلاء الذين درسوا حكمة اليونان وطالعوا شيئا من التسجيل الرائع لتلك الحكمة في كتب العرب ، وخاصة عند الشهر ستاني ، يكفينا ان ننبه الذين لديهم بعض هذا الاطلاع الى تلك المواضيع التي اعتقد هيديجر انه قد صحح فيها اراء الفلاسفة ومؤرخيهم بصدد الاوائل .

فالمعروف مثلا عن بارمنيد انه قال ان الوجود كائن وان اللاوجود غير كائن ، واعتقد المؤرخون ان معنى ذلك هو ان الفكر الحق ، اذ كان مرتبطا بالوجود ومنكرا اللاوجود ، لينكر ذاته اذا تخيل كائنا ليس هو وجودا بالمعنى الدقيق وليس عدما بالمعنى المطلق ؛ او بعبارة اخرى ، ان لا محل لاثبات ظواهر محسوسة. وذهب المؤرخون من ذلك الى فصل الوجود عن الظاهر ، والعقل عن الادراك . ولكن من الواضح ان هذا لا يمكن ان يكون مقصد بارمنيد . ان هذا الوجود المنفصل ، ان هذا الوجود الذي لا يظهر ولا يبرز ، ليس في الطبيعة ، وليس هو الطبيعة ، وان هذا العقل الذي لا يدرك ، أو بالتالي خارج عن الوجود ، انه ليس كائنا .

ان بارمنيد ، اذ ينبهنا الى اثبات حاسم للوجود يريد ان ينبهنا في الوقت ذاته الى ان الطريق الى اللاوجود محفوف بالاخطار ، وقد يملأ النفس الوجلة جزعا وارتعابا . ولكن هذا الطريق هومع ذلك وباعتراف بارمنيد ضروري لا بد ولا مفر منه ، لان الوجود يظهر لنا ويبرز في الظواهر ، ولان الظواهر هي بالضبط الميدان الذي قد يختفي فيه الوجود من امام ناظرنا (*) والذي يخترقه اللاوجود ، او ينخر فيه كالدودة في التفاحة .

اما هيراقليط ، هذا الحكيم الغامض ، هذا الارستقراطي الذي تعمد الابهام واعتقد ان الابهام وسيلة الحكماء في الوضوح والتوضيح ، فقد قيل الكثير عن كلمته الشهيرة « الكل في جريان » والحقيقة انه اذ شبه الوجود بجريان النهر ، فضل بعد ذلك ان يقربه من النار ، لان الوجود ذاته نار ، والعقل نار ، ولان العبرة في الوجود ليس في التحول والتغير والصيرورة ، بل في الانتقال من الضد الى الضد وفي رجعة الضد الى الضد ، انتقالا ورجعة يتمان في عملية مستمرة هي توتر العالم ذاته . ففي النار تختفي الاضداد وتبقى معا في نضال مستمر ، بحيث يكون اختفاء زوج من الاضداد ابدانا بظهور زوج آخر من الاضداد ، وبحيث يكون معنى الاحتراق هو النشاط المستمر للعالم . ولذلك امكن اعتبار العقل ذاته نارا ، لانه بالفعل نقطة ارتكاز هذا النشاط والتوتر الذين يقوم عليهما القضاء .

(*) راجع هيديجر : Introduction à la Métaphysique (C.P.U.F. 1958) 122-127

وان كان الامر كذلك ، فليست المسافة بعيدة بين حكمة تثبت الكائن وحكمة تثبت الصائر ، بين بارمنيد وهيراقليط . كلاهما يحرص على ان الظواهر من الوجود وفي الوجود ، وكلاهما يحرص على اثبات العقل في الوجود وعدم انفكاكه عنه . انما اذا كان احدهما قد الح في تقرير الوجود واتحاد عقلنا به ، فقد الح الآخر في تقرير تفتح الوجود وازدهاره المستمر . ان الحكيمين متجاوبان كما كانا متعاصرين ، لا يفكر احدهما في انتقاد الآخر او نقضه .

ثم جاءت الفلسفة او بعبارة اصح جاء المنطق ، فقضى على هذا التكامل وعلى هذا التعاصر ، لا بين بارمنيد وهيراقليط ، او بين كافة الحكماء فحسب ، بل قضى ايضا على التكامل والتعاصر بين الوجود والظاهر ، بين الكائن والصائر ، بين الدائرة والنار ، بما ان بارمنيد اعتبر العالم كرة وهيراقليط اعتبره نارا .

هذا في اختصار ما اعتقد هيديجر ، بالهام من نيتشه ابي الوجوديين المعاصرين ، مطالعته في المفكرين الاوائل ، في شذراتهم المتفرقة وفي لغتهم العويصة . وليس شأننا في هذا الموضوع ان نناقش قيمة هذه المطالعة من الناحية الفقهية ، كما ان غرضنا ليس بالمرة انكار الحكمة عن الاوائل ، ما دام الفلاسفة انفسهم لم ينكروها عنهم . ان غرضنا ان نتساءل فيما بعد عما اذا كان الفلاسفة لم يستنيروا بتلك الحكمة ، وعما اذا لم تكن محاولتهم محاولة لتفهم وتفهيم ما كان في المبدا وحيا والهاما ، وعما اذا لم يكن تفسير الفلاسفة في نهاية الامر تفصيلا انسانيا لحكمة ربما كانت الهية في اصلها ، ولكنها لا تبقى كذلك في ايدي البشر وعقولهم .

هذا ما سنشرع فيه من الدفعة الآتية عند كلامنا عن افلاطون ومحاوراته في الوجود .

الرباط : نجيب بلدي



ديوان دعوة الحق

صلاة من وحي الهجرة

للشاعر: إدريس الجاي

نبـي اللـه ، نـور العالمينـا — قبسنـا من ضيائـك ، اذ عمينـا
متى زلت بنا قـدم ، وتهنـا ، — ترقبنـا يمينـك والجبينـا
لأنـك ، يـا رسـول الله هـدي — وكفـك تمسـك المتعثرينـا ،
لأنـك ، يا حبيـب اللـه تحـنو — وتـراف بالعبـاد المذنبينـا
وما ذكـر اسمـك المحبـوب الا — وصلينـا عليـك مسلمينـا
ونحـن ، المؤمنيـن ، وان ضللنـا — نـرى في نـورك الحـق اليقينـا
قرون كـم مضـت تتلـوا قرونـا — واجيـال مضت فـي القابرينـا ،
ونذكر ، كل عام هجـرة الفـا (م) — دي نصـره النصـر المبينـا

* * *

امينـا وابـن آمنـة ، ومن قـد — وقـاه اللـه شـر المشركينـا
فهاجـر مكـة والله يرعـى ... — خطاه ، ليحفـظ الاسـلام دينـا
وليس له سوى الصديـق صحب — واكـرم بالـذي كـان الخدينـا
يعزيـه ، يقول لـه : (لنا اللـه (م) — لا تحـزن ، اخيـر المرسلينـا) !

* * *

وأشرق نور احمد حين وافى (م) — المدينـة داخـلا كالظافرينـا
فمـا نقـرت بيثـرب أو تغنـت — دفوف ، أو حناجـر قبـل حينـا
لغيـر محمـد بنشيـد حـب — واجـلال ، لهـادي العالمينـا
جنـود اللـه لـم ترهـا عـداه — وكيف ، ونـوره يعشـي العيونـا ؟

* * *

نبـي اللـه ، قـد طغت البلايـا — وبتنـا بالشـرور مصفدينـا
وبتنـا غائصيـن الى التراقـي — تسـاوي أمرنـا والآخرينـا

بحوض آسن ، ملح ، أجاج   بمرأى لا يسر الناظرينا
وهذي الارض ، يا ابهى سناها   تكاد تعود طينا لف طينا
تدهور في مهاو ساحقات   ولن تجد القرار لها مكينا
فانقذنا ، حبيب الله ، ثبت   هنا اقدامنا في الصالحينا
ولا تشمت بنا الاعداء انا   بغيرك ، لم نكن متوسلينا

* * *

نبي الله ، ما هاجرت تبغي   نجاتك ، بل نجاة المسلمينا
وسيف الله لم يقطع رؤوسا   سوى من ركبت في الفاشمينا
وتلك ، وايم ربي ، كان أولى   لها الا تطول هنا سنينا

* * *

هو الاسلام لا يرضيه صفع   على خد ، شمالا او يمينا
بل الاسلام يصفع كل باغ   وكان المسلمون الراحمينا
ولولا عزة الاسلام كنا   هنا ، حتى القيامة خاضعينا
(الا : ، لا يجهلن احد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا)

* * *

نبي الله ، نورك ما توارى   وما كنا بغيرك مهتدينا
وحبل الله حبلك ما قطعنا   ولا زلنا به متمسكينا
وما زلنا الشفاعة منك نرجو   وكنا للنفوس الظالمينا
أ اكرم من أهين فقال : يارب : (م)   غفرانا لقوم جاهلينا
واحلم قادر ، لم يسط يوما   على من كان بالبطش القمينا
واعلم من اليه الله اوحى   وما درس العلوم ولا الفنونا
واكمل خلق رب الكون خلقا   واصدقهم اذا حلفوا يمينا
واجملهم اذا غضبوا لحق   واجملهم اذا حنوا حنينا
اجرنا في جوار الله انا   بغيرك لا نرى حصنا حصينا

الرباط : ادريس الجائي



لمن العبير يضوع من ثغر الزهر ؟
لمن الشعاع يرف فى وجه القمر ؟
لمن الشذى الولهان ، والصف ، انتشر ؟
وانا وحيد هائم .. دامي الوتر
وبزورقي المنكوب تهت عن البحر
وغرست فى الرمل مركبي حتى غبر

شجن حياتي .. تموج بالغم والكدر
امسي .. شيخ واجم يروي الذكر
وغدي .. ظنون لن يكون لها اثر
واليوم .. زنجي للاشيء ينتحر

هذا انا .. شاج تعذبه الذكر
كالغصن اينع فى روابيه وازدهر
وعتت باعصابه الزوابع ، فانكسر
.. وذوى ، ونام على الثرى ، ومضى يسر :
ما ذنبي ؟ ماذا جنيت فى حق الغير ؟
حتى اعفى فى الثرى ، وانا زهر ؟
اعلى عبيري يشوب انسجة السحر ؟
اعلى نضارتي ترسم الانس فى النظر ؟
اعلى وفائي ينالني غدر وشر ؟

هذا انا .. شاج تموج به الفير
كالثكلى وارت فى الثرى ابنا ابر ..
تتمرغ الماساة فى جفنها عبر
ومدى خواطرها المقابر والحفر
لا حاضر ينسى ، ولا غد ينتظر

هذا انا شاج ادور مع الفير
ولها اعيش ، وفيها حتفي .. ولا مفر
كتبانة قذفت بها الريح فى بحر
فسعى بها موج قساوته صور
فى غمرة التيار يجري بها الخطر
فاذا تساءلت الجبانة عن مفر
اعلتها امواج لتغمرها اخر

هذا انا .. شاج يضيع مع الحذر
كالبلبل الماسور يطرب من اسر
يرثي انطلاق جناحه فوق النهر
يرثي النسائم والاشعة والشجر
يبكي على الذكرى .. فيطرب من اسر
او كان يدري بعلة الاسر لازدجر

هذا انا .. شاج يحنطه الحذر
لا اسوة بغد يروق .. ولا ذكر
اليوم بامس شامل .. والامس شر ،
وغدى رماد قبل ان يقدح الشرر

القنيطرة : محمد ابن دفعة



« حين انفجرت القنبلة الذرية فى الصحـراء »

قالوا بان الشؤم ينبت كالزهور
يغتال اعمار الرجال
يستل اكسير المحبة والحبور
من عمق اعماق الصدور .
وانا احس كانني تمثال شمع
قلبي يدق بكل عنف
شفتاي ريقهما سراب
كم كان صوتهما يئن ويشتكي للاخرين
عيناي زائغتان فى افق كئيب :
هذي الحياة برعدها وبروقها
وشموسها وربيعها :
انسامها الخضراء صامتة الهبوب .
وانا وانت نسير فى ليل طويل
ليل تلوث بالسموم
لن نبصر القمر المجلل بالغيوم
لن نعشق الليل المكلل بالنجوم :
هذا الفضاء سحابة
سوداء فجرها غرور احمق
واذا رايت على مدى هذا الفضاء
اسراب عطر تختنق
او نجمة حبلى تئن وتحترق
فالى اللقاء فاننا لن نعتنق
اذ نحترق .

فاس : محمد السرغيني

قصة العدد



بقلم : الأستاذ ياسين رفاعية

ايقظتني امي في الصباح بوجهها الكئيب ، وبصوت كانه منبعث من الاعماق :

ـ قم .. الوقت متاخر .

لم اكن نائما في تلك اللحظة ، كنت مغمض العينين تحملني افكاري الى اشياء حلوة عرفتها في الماضـي ، وعشتها بكل دقائقها لكنها انهارت فجـأة حالما رحلت سميرة عنـي .

عند ما شرعت بارتداء ملابسي ، كنت ارمق امي غفلة بين الفينة والفينة ، كانت قريبة جدا من المدفأة التي كان لهيبها يتصاعد ازرق باهتا ، وكانت عيناها تحدقان ببلاهة في كنزة صوفية صفراء لم تتم بعد ، معلقة في المشجب ، ولقد تجمعت فيهما الدموع ، ولم تنهمر .

حاولت منذ ايام ، ان اخفي هذه الكنزة عن انظار امي ، وما ان فعلت حتى راحت تطلب مني اعادتها باصرار وعناد :

ـ يجب ان تعيدها الى مكانها ، ثم اياك ان تخفيها عني مرة ثانية ، اذا اردت ان اكون راضية عنك اعدها الى مكانها .

اعدتها ، لم اكن ارغب في ان تغضب ، وراحت بعد ذلك تحاول ابرازها بعناية ، كأنها مخلوق حي يحتاج لرعايتها .

لما انتهيت من ارتداء ملابسي ، قالت دون ان تحاول الالتفات نحوي :

ـ تاكل ... ؟

ـ لست جائعا .

ولم تفه امي بكلمة اخرى ، بل تكومت اكثر في الزاوية ناحية المدفأة دون ان تحول ناظريها عن الكنزة .

خرجت من البيت ، وبي وهن عظيم .. حتى الهواء الذي استنشقه يكاد يكون ثقيلا على رئتي .

ها هو الاسبوع الثاني يمر على رحيل سميرة ، احسست بعدها بالهرم وكأنني اصبحت شيخا مسنا اثقلته اعباء الاعوام المرهقة ، ولقد شعرت تلك الايام التي مضت بذلك الفراغ الذي احدثه هذا الرحيل في ذاتي من الداخل . عند ما وصلت الى المعمل ، كان الضجيج يعلو كل مكان ، لكن اعماقي كانت تسبح في سكون رهيب .

قال زميلي :

ـ صباح الخير ..

ـ صباح الخيرات .. قلت ذلك وانا افكر بهذه اللهجة التي بدا زميلي يحدثني بها : « صباح الخير » كأنه يود ان يفرغني بنطقه هذه الكلمات حزينة من اعماقه .

كان من عادته ان يثرثر كثيرا بجانبي ، وكان يستشيرني عن مشاكله العاطفية ، ويستكتبني رسائله الغرامية التي كان يرسلها الى فتاته دون ان يتلقى منها جوابا .. وكان احيانا يحدثني عن افكاره الخاصة حول الحياة التي يحياها والامنية التي يتمناها ان تتحقق .

لكنه منذ رحلت « سميرة » عني ، لم يكن يخاطبني الا لماما ، كنت المحه يرمقني بنظرات رثاء ، وكان يحاول احيانا ان يتفوه بكلمة الا انه كان يستنكف في آخر لحظة .

من عادتي ان اتناول الغذاء عند احمد ، فله دكان صغيرة الى جانب المعمل يبيع فيها الحمص والفول اضافة الى بعض الفواكه وكان مذياعه يملأ ذلك المكان ضجيجا ، ومنذ رحلت سميرة ، لم اعد اسمع لمذياعه صوتا ، ولمجرد ان اخرج من باب المعمل – قبل الرحيل – كان يترامى الى اذني صوته وهو يصرخ على بضاعته كانه يضحك ، لكنني هذه الايام لم اعد اسمعه كما كان من ذي قبل ، ان تغيرا كاملا طرا على احمد .

قال اليوم :

– انت تغرق نفسك بالحزن يا اخي ، حرام عليك لقد نضب وجهك ، عيناك غائرتان ، لكانك هرمت ، اعرفك تهزأ بالمصائب ، فما بالك هذه الايام ، لا بد لنا جميعا من الرحيل في يوم ما .

عند ما لم اجب احمد بكلمة واحدة ، عاد الى صمته كان يتحرك ببطء عكس عادته التي الفتها .

خرجت من عنده ، كانت السماء متلبدة ، سحبها سوداء قاتمة ، كقلبي القاتم ، وكانت الريح تعصف باشجار البستان المقابل للمعمل ، وتحدث اصواتا كعويل الذئاب .

كانت نفس الريح تصرخ عند ما ودعت سميرة الوداع الاخير ، لم تهطل من عيني دمعة ، كان وجهها باردا كالصقيع وثمة ابتسامة باهتة مرتسمة على شفتيها ويداها مضمومتان الى صدرها ، وقد كان ظاهرا للعيان مكان المحبس الذهبي الذي البسها اياه خطيبها زياد منذ اشهر ثلاثة ؛ لقد خلعوه من اصبعها حتى بدا مكانه اصفر باهتا .

ومع ذلك ، لم ابك ، لكنني احسست ان حزما من الشوك كانت تدمي قلبي وتمزق احساسي .

ابعدوني عنها ، كان صوت امي يترامى الي وهي تصرخ منتحبة لا تتركني يا سميرة .. يا حبيبتي .. لا تتركني ، انك لم تنته من الكنزة بعد .. لقد وعدتني ان تهديها لي ، لا .. لا تاخذوها .

لكنهم اخذوها ، حملوها الى النعش ثم اغلقوه عليها ، مع ذلك فقد عجبت لم ابك ، لكنني كنت ذلك الحين احس انني اسقط .. واسقط ، وجسدي ينقلب فيه كالغبار .

عند ما خرجت من المعمل لفحني هواء الشارع البارد وراح يلسع وجهي المنهك بقسوة ، احسست انني لا استطيع ان اسرع الخطوات فقد كنت متعبا للغاية ، قدماي اجرهما على الارض ، وراسي متدل على صدري بحسرة .

ينهمر المطر الان بغزارة ، يغسل راسي ووجهي، الشارع يكاد يكون مقفرا ، ثمة رياح شديدة تصفع خيوط المياه المتساقطة ، وانا امضي في اتجاه معين دون اسراع .

عند ما حملوا نعش سميرة ، كان المطر ينهمر كهذا اليوم .. لم يكن يرافقني في تشييعها الا بعض الاقارب وزملائي في المعمل .. واحمد ، وخطيب سميرة زياد ...

كان يبكي بحرقة ويجهش بصوت مسموع ، وفي المقبرة ، تناول الحفار جسد سميرة الغض بوجه جامد ووسدها تراب الحفرة ثم اغلقها .. ورفع رأسه متجها الى كومة التراب وراح ينهال به عليها كتمثال من الجص يتحرك بآلية .

اذكر هذه الاشياء جيدا ، فلقد كان سكون الموت الرهيب يتمسك بجسد سميرة .

ومنذ اسبوع ، رأيت زياد ، كانت تتدلى من ياقة قميصه المنشاة عقدة سوداء ، ولقد كان الحزن واضحا في عينيه ، حاول ان يتكلم ولكن سرعان ما تدفقت الدموع على وجنتيه ، فاختنق صوته وودعني دون ان يتفوه بكلمة .

كان حزينا حقا ، لم المه ، فسميرة حلوة ، عيناها صافيتان ربيعيتان بلون الحقول الخضراء ، شعرها بلون القمر في ليلة صافية الاديم ، طويلة ، لكنها نحيلة بعض الشيء ، عنقها غيمة بيضاء كان زياد يحبها كنت الاحظ ذلك منذ كان يزورها ومعه امه ، لا شك ان سميرة احبته ايضا ، فلقد كانت تبدو سعيدة جدا كلما زارها ، وفي يوم ما ، وعدتني ان تشتغل لي كنزة حالما تنتهي من كنزة امها .. فلم يبق لزفافها اكثر من ثلاثة اشهر .

لكن سميرة رحلت الآن ، انشب ذلك الموت اللعين اظافره باعوامها التسعة عشر ، واختصر حياتها التي كان من الممكن ان تكون سعيدة .

الطبيب ، لم يمنعها من الزواج ، فضعف قلبها ليس خطرا ومع ذلك ، رحلت قبل ان تتزوج وتركت كنزة امها دون ان تتمها .

اقتربت الآن من سور المقبرة ، كان الماء قد تسرب من ملابسي حتى جسدي فشعرت بقشعريرة هزتني بعنف عند ما تخطيت باب المقبرة ، لمحت صورة سميرة تبرز من بين القبور بوجهها النحيل وبابتسامتها الباهتة وشعرت بشيء يشدني اليها ، اقتربت من القبر فاذا بي وحيدا .. والمقبرة موحشة موحشة (انا لله وانا اليه راجعون) يا الهي .. لماذا ترجع اليك سميرة وهي بعد بعمر الورد ، وهي بعد لم تنعم بحياتها .. هل هذا عدل .. يا الهي .. ؟

تذكرت وجه سميرة النضر ، ترى كيف اصبحت حالته الان ، لا شك ان العينين الحلوتين قد اكلتهما الحشرات .

لمحت الورد الذي لم يذبل بعد ، وقد زين واجهة القبر ، ان امي تاتي اليه كل صباح ومعها باقة ورد .. مسكينة امي ، همها منذ رحلت سميرة ، ان تختار باقة ورد كل يوم لتضعها على قبرها .

كانت المقبرة مغرقة في وحشتها ، وقد بدا الظلام يتسرب اليها ، والمطر ما زال ينهمر بشدة على القبور ، لا شك ان الماء قد تسرب الى جسد سميرة المشوه ، يا حبيبتي .. يا سميرة .. يا سميرة ...

وتوالت صور الماضي مسرعة على مخيلتي ، ان سميرة تملا اكثر هذه الصور اذ ذاك شعرت بالدمع يتدفق من عيني حارا ويختلط بماء المطر الذي يغسل وجنتي .

عم الظلام الكون الان ، شعرت بالخوف والوحشة فمشيت خارج المقبرة ، كان دمعي يتدفق بغزارة ، سميرة كانت لا تحب الوحدة ابدا ، انها ستظل وحيدة بعد الان حتى الابد .

وصلت البيت ، كانت امي ما تزال مقتعدة الزاوية بالقرب من المدفاة ، وكانت الى جانبها هذه المرة خالتي وابنتها ، القيت تحية المساء ، ثم دخلت غرفتي .

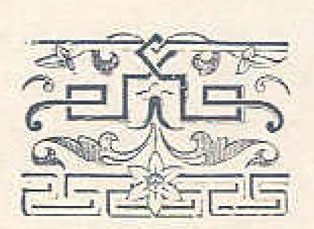
غرفتي صغيرة ، ولقد كانت سميرة تعتني بها كثيرا ، اجلت الطرف قليلا في اشيائي « كتبي ومنضدتي ومذياعي الصغير .. » كان الغبار يعلوها بكثرة ، ان احدا ما لم يقترب منها .. منذ رحلت سميرة ..

عند ما ضم فراشي جسدي المتعب ، كان المطر يصفع زجاج النافذة بشدة ، اطفات المصباح الكهربائي حاولت النوم ، الا ان الافكار اجتاحتني ، ذات يوم قلت لسميرة : عما قريب ستذهبين الى بيت زوجك .. قالت ضاحكة : ساخطب لك وسابحث لك عن فتاة حلوة تستطيع ان تمنحك السعادة ... لقد آن لك ان تتزوج يا اخي ، فامنا قد كبرت واصبحت عاجزة عن خدمتنا ...

يا الله ... والآن .. من ذا الذي سيبحث ابي عن زوجة تمنحني السعادة .. من ذا الذي سيعتني بكتبي واشيائي الاخرى بعد اليوم .. سميرة .. كانت تحبني ، تحب اشيائي كثيرا .. ولكنها رحلت وتركتني وحيدا مع ام محطمة .

واحاول النوم ،لكن طيف سميرة لا يبرحني ... يخطف الكرى من جفني ..

دمشق : ياسين رفاعية ـ من جمعية الادباء



كتب عربية من ايران

للأستاذ سامي الكيالي

.. في خريف العام الماضي دعيت لالقاء بضع محاضرات عن الحكيم الاشراقي شهاب الدين السهروردي في كلية « المعقول والمنقول » احدى كليات جامعة طهران ، هذه الكلية التي تعطي الدراسات العربية حقها من الاهتمام .

وقد تعرفت ، وانا هناك ، الى غير واحد من الاساتذة الذين يعنون بالادب العربي وبالفلسفة الاسلامية ، ولهم في المجالين ابحاث واسعة وكتب قيمة .

وحسب القارىء ان يعلم ان في هذه الكلية ما يقارب العشرين استاذا من الايرانيين لتدريس اللغة العربية والادب العربي في شتى عصوره ومختلف فروعه ، وان الكلمة العربية تنزل من نفس الطالب الفارسي في هذه الكلية منزلة القداسة وتقع من فؤاده موقع السحر .

ولا اريد ان أتوسع بالحديث عن هذه الكلية : « الدينية الاتجاه » « العصرية المنهج » فلهذا مجال آخر ، بل اريد ان اشير اشارة موجزة الى بعض الكتب العربية التي تفضل اساتذتها الاجلاء فتكرموا باهدائها لي . وابدأ بكتاب :

تلخيص البيان في مجازات القرآن : وهو مخطوط نفيس للشريف الرضي نشره العلامة الاستاذ محمد مشكاة استاذ الفلسفة الاسلامية في جامعة طهران .

وقبل ان اتحدث عن المخطوط اريد ان اقول كلمة عن الاستاذ الناشر فهو عالم واسع الاطلاع ، معنى عناية خاصة بفلسفة ابن سينا وآرائه ، وتناول دروسه شرح هذه الفلسفة على ضوء التيارات الفكرية الحديثة وحين تستمع اليه تشعر كأنه لبس أهاب ابن سيناء ، فله فيض قلبه ، ولمع ذهنه ، وذكاء روحه ، وقد ترجم بعض مقولاته من الفارسية الى العربية .. وبالعكس كرسالة العشق ، وتسعة فصول من كتاب الاشارات .

وهو معنى عناية خاصة بالمخطوطات النفيسة وقد ضمت مكتبته نيفا والف مخطوط نادر اهداها الى مكتبة جامعة طهران ، وقد نشر منها :

1) ملحمة في المحرك الاول لابي سليمان المنطقي السجتاني .

2) درة التاج لغرة الدبباج لقطب الدين الشيرازي

3) النكت الاعتقادية للصدوق .

4) مصادقة الاخوان للصدوق ايضا .

5) انشنام علائي لابن سينا .

6) كلية بهشت ـ ابي مفتاح الجنة ـ للقاضي محمد سعيد القمي .

7) رسالة رك شناسي ـ اي معرفة النبض لابن سينا .

8) رسالة « ره انجام نامه » اي كتاب طريق معاد النفس ـ الانسان ـ لافضل الدين الكاشاني.
وقد صحح وذيل بالحواشي اكثر من هذه منها :

1) شواهد الربوبية لصدرا .

2) ترجمة اخبار الحكماء للقفطي .

3) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي .
4) قسم من « منطقا » كتاب الشفا لابن سينا .
5) مقامات النجاة للسيد نعمة الله الجزائري .
6) طائفة من كتب بابا افضل الدين الكاشاني .

ومن جملة الكتب التي نشرها اخيرا كتاب « تلخيص البيان في مجازات القرآن » وهو مخطوط عثر عليه مخروما من اوله ومن آخره دون ان يعرف مؤلفه ..

وحين بدا يقرأ فصوله رأى نفحات علوية من نفحات جهبذ عظيم ...

فالمخطوط : صحيح حديث ومعجم لغة وديوان ادب ومجمع نوادر وجؤنة بيان وكتاب بلاغة ، الم بتبيان من آيات القرآن وشرح طائفة من غوامض اسراره وعجائب معانيه وبديع متشابهاته وسر اعجازه .

وقد ذيل الكتاب بفهارس علمية للسور والآيات السير – الى انه للسيد الاجل الشريف الرضي ، فكانت غبطته به جد عظيمة ، وسرعان ما قرر نشره بالشكل الذي عثر عليه ، فجاء في موضوعه تحفة ادبية وكنزا دينيا رائعا .

وقد ذيل الكتاب بفهارس علمية للسور والآيات واعلام الاشخاص والاماكن والفرق او الكتب ، ثم وضع فهرسا للالفاظ التي شرحها الشريف الرضي مرتبة على حروف المعجم فآخر لابيات الشعر ، واهم هذه الفهارس فهرس تحليلي للمطالب والموضوعات التي جاءت في صلب الموضوع وقد بلغت وحدها مائة صفحة

والكتاب في 350 صفحة من القطع المتوسط وقد طبع في مطبعة مجلس الشورى بطهران .

ايضاح المقاصد : وضمت خزانة الاستاذ المشكاة مخطوط « ايضاح المقاصد من حكمة عين القواعد » للعلامة الحلي .

ورأى من الغبن ان يظل هذا المخطوط مطويا لا يفيد منه القراء ولا سيما تلامذته من طلاب الفلسفة الالهية فاقدم على نشره .

والحلي ابو المطهر « 726/648 هـ » من أئمة الشيعة واحد كبار العلماء وقد عدد له الاستاذ الزركلي في اعلامه اكثر من ثلاثين رسالة ومؤلفا منها : « تبصرة المتعلمين في احكام الدين » ، و « تهذيب طريق الوصول الى علم الاصول » ، و « قواعد الاحكام في معرفة الحلال والحرام » ، و « انوار الملكوت في شرح الياقوت » ، و « الابحاث المفيدة في انحلال العقيدة » و « كنز العرفان في فقه القرآن » وبعض هذه الكتب في اربعة مجلدات وبعضها في سبعة .

ويكاد يكون هذا المخطوط الذي نشره الاستاذ المشكاة من عيون مؤلفاته ، وهو فريد في موضوعه ، ومن ابحاثه : العلم الالهي وما يتفرع عنه من ابحاث الوجود والعدم والمهابة ، والوحدة والكثرة ، والوجوب والامكان ، والحدوث والقدم ، الى العلة والمعلول ، واثبات الواجب والجواهر والاعراض والنفس الناطقة والعقل ، الى اثبات الواجب وصفاته والنتائج والوحي والنفس بعد المفارقة ، واحكام الجسم وماهية الحركة والسكون والزمان والافلاك ، والارض والعناصر ، والنفس النباتية والحيوانية ، والنفس الانسانية وعشرات الابحاث الفلسفية مما خاض فيه علماء الاسلام على ضوء من مناهج الدين .

وذيل الكتاب بفهرسين كبيرين للاعلام وللموضوعات.

واعتمد الاستاذ الناشر على نسخته ونسخة استانبول والى هذا اشار بقوله :

« ... ولما كانت النسخة المخطوطة الكاملة النفيسة من هذا الكتاب موجودة في المكتبة التي كنت اهديتها الى جامعة طهران ، وهي قريبة من عصر مصنفها على ما بين في المقدمة ، وكانت نسخة اخرى منها ناقصة مضبوطة في مكتبة الاستانة الرضوية عليه السلام ، طلبت صورة فتوغرافية من نسخة الاستانة ، وامرت احد تلاميذي وهو الشيخ علي نقي المنزوي ابن العالم الجليل المتبحر النحرير امام المؤرخين الشيخ اقا بزرك الطهراني – مد ظله – بمقابلة النسختين وكنت ناظرا عليه في ما صنع من التصحيح وتأليف المقدمة والطبع حتى كمل بتوفيق الله تعالى وتأييده طبعه » .

والكتاب في نيف واربعمائة صفحة من القطع الكبيرة وقد طبع في مطبعة الجامعة .

الكاشف عن الفاظ نهج البلاغة وشروحه : كتاب اشبه بمعجم ، بل هو معجم خاص بنهج البلاغة صنفه العلامة الاستاذ جواد المصطفوي الخراساني .

واذ نعلم ان اغلبية اهالي ايران يدينون بالمذهب الشيعي وان لكلمات الامام علي رضي الله عنه وخطبه اثرها في توجيههم الدنيوي والاخروي فقد كثرت العناية بكتاب « نهج البلاغة وشروحه » .

وهذا المعجم الذي يتصل بهذا الاتجاه قد نسق على طريقة « المنجد » . وقد اراد الاستاذ المصطفوي ان يدل القراء الى الموضوعات الدينية والاجتماعية التي تناولها الامام علي في خطبه ورسائله ، والى الآيات القرآنية والابيات الشعرية التي جاءت في صلب هذه الرسائل والخطب .

وهو اشبه بكتاب « مفتاح كنوز السنة » وبكتاب « المرشد والمعجم المفهرس » ، وقد حرص المؤلف ان يرجع المفردات الى اصولها الصحيحة ، وان يرمز الى الافكار التي تكررت في خطبه لتكون مادة للقارىء وللباحث الذي يريد ان يسترشد بنص من تلك النصوص

فكلمة « سعد » مثلا ترمز في خطب الامام الى عدة دلالات ، فهو يذكر الجملة ثم يشير الى موقعها من النهج مع ذكر الطبعات ، وقد رتب الالفاظ حسب حروف اوائلها فثوانيها فثوالثها ، ثم وضع الجملة التي تضمها ورمز الى موضعها من الخطب او الرسائل او الحكم ، ثم اشار الى رقم كل واحدة منها ، وعلى هذا النسق تجد تحت كلمة « سعد » الجمل الآتية :

فسعد بما شقيت به
ما اسعد جدك
وان اسعده الرضى
فلا يسعده القول
ولم تساعده المقادير
بالسعادة والشهادة
والسعيد من وعظ بغيره
وان السعداء بالدنيا
ومعايشة السعداء
وشقي وسعيد
امركم انكم سعداء

وهكذا ، الى آخر ما يتصل بكلمة السعد والسعادة مما جاء في خطب الامام ورسائله وحكمه ، وقد رمز الى الخطب بحرف « ط » ، والى الرسائل بحرف « ر » ، والى الحكم بحرف «ح»،والى غريب كلامه بحرف «غ» ووضع ازاء كل جملة من المعجم رقم الصفحة والحرف المرموز اليه .

هذا وقد ارجع المؤلف المفردات الى اصولها الصحيحة ، والمزيد الى مجرده ، واذ وجد في نسخ نهج لبلاغة الكثير من الاغلاط فقد صححها بالحذف تارة وبالاضافة تارة اخرى ، ثم ذيله بقسم ثان مفهرس للخطب والاوامر ، وللكتب والرسائل ، وللحكم والمواعظ ودل موضع كل خطبة او رسالة او حكمة في الطبعات المختلفة ، واسماء الشارحين في جميع الطبعات .

ان الجهد الذي بذله العلامة الاستاذ جواد المصطفوي الخراساني لاخراج هذا المعجم الفريد جدير بكل تقدير ، وقد جاء في اربعمائة صفحة كبيرة.

كتاب المقالات والفرق : .. وهذا مخطوط نادر في الفرق الاسلامية للاشعري ، وهو غير ابي الحسن صاحب كتاب « مقالات اسلامية » الذي نشر الجزء الاول منه الاستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد .

فوحدة الموضوع وتشابه الكنية قد توهم القارىء ان هذا الكتاب هو لشيخ اهل السنة والجماعة الامام ابي الحسن علي ابن اسماعيل الاشعري المتوفى في عام 330 من الهجرة .. ولكن الواقع غير ذلك .

فالكتاب الذي نحن بصدده هو لسعد بن عبد الله ابي خلف الاشعري القمي المتوفى سنة 301 هـ وهو من المخطوطات النادرة والوحيدة التي عثر عليها الدكتور محمد جواد مشكور في مكتبة الاستاذ سلطاني شيخ الاسلامي نائب المجلس الوطني الايراني السابق.

يقول الدكتور مشكور وهو من مفكري طهران النابهين : « تعتبر هذه النسخة فريدة نادرة اذ لم نعثر في تصحيحها الى مقارنتها مع « فرق الشيعة » للنوبختي ، وبعض كتب الرجال والحديث كرجال الكشي وكتاب الغيبة للشيخ الطوسي ، وقد جاء اسم مؤلفه مطابقا كخط نص الكتاب ظهر الصفحة الاولى على هذه الشاكلة :

« كتاب المقالات والفرق واسماؤها وصنوفها والقابها تصنيف سعد بن عبد الله ابي خلف الاشعري القمي ، وهو رحمه الله قد ادرك امامين همامين الحسن العسكري وابنه صاحب الزمان صلوات الله وسلامه عليهما » .

وقـــال :

« لقد وفقت فى استعارة تلك النسخة التي تعد من نفائس النسخ فى العالم ـ لبضعة ايام ، ثم استخبرت صاحبها فى تصوير صفحاتها فاجازني ، فقارنته بكتاب فرق الشيعة للنوبختي فوجدته يختلف عنه ، فعزمت على طبع هذه النسخة الثمينة ليستفيد منها اولو الفضـــل .

اما تصحيحها ومقابلتها مع كتاب فرق الشعية للنوبختي وكتب اخرى ، والبحث حول مشاكلها ، فقد استغرق حولين كاملين ، حتى قدر لي انجاز هـــذا العمل المجدي ، وتقديمه لارباب الفضل فى طبعة منمقة مصححـــة » .

ولا نبالغ اذا قلنا ان هذا الكتاب قد يكـون الام لكل ما كتب عن الفرق الاسلامية ، وقد يقع القـارىء على مفارقات وارهاصات اثبتها المؤلف ثم نقضهـا ، وقد لا يجد هذه المفارقات والارهاصات فى غيره ممـا كتب حول الفرق .

وقد اضاف الدكتور مشكور الى الكتاب ـ وهو جهد يشكر عليه كل الشكر ـ اضاف تعليقات تاريخية قيمة توضيحا للكثير مما جاء فى الكتاب سواء اكان هذا عن المذاهب او الاشخاص ، مستندا بذلك الى اقوال المؤرخين وكتاب السير ...

وقد بلغت هذه التعليقات ، وهي تؤلف كتابـا مستقلا ، بلغت قرابة المائة والخمسين صفحة ، ثم ذيل الكتاب بفهارس للايات القرآنية والاحاديث وبعض الاصطلاحات والكلمات والقوافي والملل والفـرق والمذاهب واهلها واسماء الرجال والنساء والمـدن والامكنة فجاء الكتاب متسما بطابع التحقيق العلمي ، وهو من الكتب التي لا يستغني عنها المعنيون بدراسة الفرق الاسلامية . وهو فى 275 صفحة من القطع فوق المتوسط وقد طبع فى مطبعة حيدري بطهران .

سير جمال الدين : واضم الى هذه الكتب كتابا باللغتين العربية والفارسية هو من الاهمية بمكان .

وقد تضمن الرسائل المتبادلة مـع فيلسـوف الشرق جمال الدين الافغاني ، من شرقيين وغربيين ، واكثرهم من الساسة والعلماء والقادة المصلحين الذين كان همهم الاكبر ايقاظ الشرق الاسلامي من غفوتـه وازاحة سيطرة الدول الاجنبيـة عن بعض ممالكـه واقطـاره .

وللرسائل الخاصة التي يفصح كتابها عن ارائهم وهجـاتهم دلالتها ، ولا سيما اذا كانت فى موضوعات عامة وصدرت عن اعلام خاضوا فى خضم السياسة الى الاعنـــاق .

فرسائل من باريـس ولنـدن ونابـل وطهـران وكرمنشاه واستانبول وبيروت العربية والفارسيـة والافرنسية وجهها اصحابها الى جمال الدين وجواباته عليها وكلها فى صميم الاحداث التي كانت تواجه الشرق الاسلامي فى صراعه مع الغرب المستعمر ...

فمن رسائل للشيخ محمد عبده الى ابراهيـم اللقاني ، الى اديب اسحق ، الى اسماعيل جودت ، الى غانا بلونت الى عباس البابي البهائي الى غيرها ، وقـد نشرت جميع هذه الرسائل بنصها الاصلي بالزنكوغراف فجاء الكتاب بمجموعه وثيقة من الوثائق التي تكشف الكثير عن غوامض تلـك الفتـرة من حيـاة الشـرق الاسلامي بل عن اراء السيد جمال الدين ووجهـات نظره فى الكثير من الاحداث ، وقيمة هذه الرسائل ان معظمها لم يسبق نشره ، وقد كانت فى حوزة الحـاج محمد حسين آقا امين الضرب الثاني وقد تولى اليوم حفيده الاستاذ اصغر مهدوي احـد اساتذة الحقـوق بجامعة طهران بنشرها بالاشتراك مع الاستـاذ ايـرج افشار ، فضم هذا الكتاب وثائق ومستندات هامـة تصحح الكثير مما عرف عن هذا الزعيـم الاسلامـي الكبير الذي كان لا يهبط قطرا من الاقطار الاسلاميـة الا زرع بذور ثورتـه واذا هـي براكين متفجـرة على رؤوس الطغـاة والمستبدين .

حلب : سامـي الكيالـي

الجغرافية والرحلات عند العرب : للدكتور نقولا زيادة
الكتيبة الكامنة فيمن لقيته من الأندلس
من شعراء المائة والثامنة لسان الدين ابن الخطيب

قرأهما وعلق عليهما : الأستاذ عبد القادر زمامة

لعله من المناسب ان نتحدث عن كتاب الجغرافية والرحلات عند العرب بعد حديثنا عن كتاب المستشرق الروسي « كراتشكوفسكي » في موضوع تاريخ الادب الجغرافي العربي فكلا الكتابين يتناول بحث موضوع طريف في الادب العربي وهو موضوع الجغرافية والرحلات ... ويهتم باخبار الرحالين والمغامرين العرب الذين ارتادوا مجاهل افريقيا وآسيا واوربا في العصور الوسطى وكتبوا صفحات مفيدة في الجغرافية الطبيعية والوصفية والانسانية ..

كما انه من المناسب ان نرى وجهة نظر باحث عربي في تراث لغته وادبه بعد ان رأينا وجهة نظر باحث اوربي في تراث لغة اجنبية عنه وادب اجنبي عنه ...

فنحن على كل حال امام اسلوبين في التفكير والعرض والتعبير .. وامام موضوع واحد لم يبدا الاهتمام بدراسته الا منذ قليل بعد ان نضجت مباحث اخرى عن الادب العربي باقلام شرقية وغربية ...

وقبل ان نتناول كتاب اليوم عن الجغرافية والرحلات عند العرب يجدر بنا ان نقول كلمة عن مؤلفه ...

فقد عرفنا الدكتور نقولا زيادة اديبا وباحثا في تاريخ الادب وقرانا له عدة تحقيقات وتعليقات ودراسات في التاريخ الحديث والقديم وهو الآن استاذ التاريخ العربي الحديث في الجامعة الامريكية ببيروت ...

ويتناول الدكتور نقولا زيادة في كتابه « الجغرافية والرحلات عند العرب » موضوع الادب الجغرافي في اللغة العربية من جهة ان الرحلة عنصر من عناصر الادب باعتبار اسلوب كتابتها كما انها عنصر من علمي التاريخ والجغرافية باعتبار موضوعها ... وهي في الوقت نفسه تسجيل اجتماعي لكثير من مظاهر الحياة عند مختلف الشعوب في جدها وهزلها واخذها باسباب الحضارة والثقافة او تأخرها عن ركبهما ...

وقد حاول المؤلف في فصله الاول من الكتاب ان يبدي لنا اهمية الرحلة في تاريخ الحضارة العربية .. وان يفرق بين رجال الجغرافية ورجال السياحة أي الرحالين وضرب لنا امثلة مقتضبة من كل منهما .. ولكن ذلك لم يكن الا نظرة لا نبالغ اذا قلنا انها سطحية. لا تعدو الملخصات المدرسية التي يتلقاها التلاميذ في المدارس الثانوية .. !!

وبذلك وجدنا انفسنا امام اسلوب التلخيص والاقتضاب من اول فصل في الكتاب .. فهناك اشارات ولفتات الى الجغرافيين على عهد الدولة العباسية كالخوارزمي الذي عاصر المامون العباسي .. والكندي الفيلسوف الذي عاش في نفس العصر .. واليعقوبي وغيرهم من الذين كانوا يمثلون – في نظر المؤلف المدرسة اليونانية العربية في البحث الجغرافي . ورغم ان المؤلف تحدث عن هؤلاء باسلوب مركز الا انه شبيه الى حد كبير باسلوب الكتب المدرسية التي كتبت لجيل من التلاميذ لا لطائفة من العلماء والباحثين والمفكرين .. والمفروض ان عنوان الكتاب وموضوعه لا يعطيان انه كتاب مدرسي بالمعنى المعروف عندنا للكتب المدرسية..

وينتقل المؤلف الى من يسميهم – المدرسة العربية – في البحث الجغرافي . وهو يعني بهم الرحالين في القرن الرابع الهجري ويعتبر انتاجهم في هذا الميدان انتاجا مثاليا لان مباحثهم وكذلك مشاهداتهم كانت تعبر عن نضج وادراك لكثير من الحقائق العلمية والظواهر الاجتماعية والادبية والاقتصادية والسياسية.

وقد وقف المؤلف وقفة طويلة حـول الجغرافـي العظيم ابي عبد الله المقدسي صاحب كتـاب ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ـ وهذه الوقفة هي احسن ما في الفصل واعمق ما فيه .. ويرجع اهتمـام المؤلف بالمقدسي الى سبب اقليمي وهـو ان « صاحب احسن التقاسيم » كان من الشام وكتب عنها صفحات ذهبية على عهد ازدهار الحضارة العربية ... وسجل معالمها وخططها وعوائد اهلها ونظام الحياة بهـا ...

ومن القرن الرابع الهجري طفر المؤلف الى القرن السادس والسابع حيث كان على موعد مـع المعاجم الجغرافية على العموم . وياقوت الحموي صاحب معجم البلدان على الخصوص وكذلك ابي الفداء والادريسي ونقل نماذج شتى عن جميع هؤلاء ....

واغرب ما لاحظناه في نقولا المؤلـف انه لا ينقـل مباشرة عن هذه المصادر بل يتخذ المستشرق الفرنسي الشهير « بلاشير » والاب « شيخو » واسطة ولا يمكن ان نغض الطرف عن هذه الملاحظة في حق دكتور واستاذ جامعي ... ! كالمؤلف ... فقد كان بامكانه ان يقـرأ النصوص في مصادرها الاصليـة مخطوطـة كـانت او مطبوعة كما يفعل جل الباحثين .. لتكون نظرته اتم واستفادته اشمل .. ولو كلفه ذلك بعض العناء ...

ثم يتخلص المؤلف الى عصر الموسوعات في الادب العربي وهو عصر المماليك في مصر والشام .. وفيـه ظهرت الموسوعات الكبرى :

ـ نهاية الارب ـ مسالك الابصار ـ صبح الاعشى ـ

وقد عمد المؤلف كعادته السابقـة الى تلخيـص تراجم المؤلفين والى ضرب النماذج والامثلة من كتبهم .. ولكنه هذه المرة نقل مباشرة من الموسوعات التي بيـن يديه .. ولم ياتنا بشيء جديد لا في التراجم ولا فـي الموسوعات بل انه اقتضب الكلام اقتضابا كان مخلا في بعض الاحيان ..

والى هنا ينتهي القسم الاول مـن الكتاب وكـان مؤلفه اراد ان يكون هذا القسم خاصـا بادب الرحلـة والرحالين ...

فماذا في القسم الثاني من الكتاب .. ؟

ان القسم الثاني من الكتاب اعمق من القسم الاول وافيد وقد بذل المؤلف فيه جهدا واضحا ووصل الـى نتائج لا باس بها من البحث الذي قام به ... فقد رافق المسعودي في رحلته الطويلة وحلل آثاره ورحلاته تحليلا مناسبا لائقا باستاذ جامعي .. وليس هناك من شك في انه رفق في ذلك الى ابعد غاية.. كما رافق البلخي الذي جاب اقطار آسيا ودون معلومات شائقة في رحلته ...

ورافق من الرحالين الاندلسيين والمغاربـة ابن جبير وابن سعيد واخيرا رافق الرحالة المغربي الكبير العبدري الحاحي ....

ولكنه لم يطلع على رحلـة العـبدري في نصهـا المخطوط بل اقتصر على ما نقله من احدى المجـــلات التونسية وبذلك كان حكمه على الرحلة وصاحبها حكما سطحيا لا عمق فيه ولا جـدة ولا استنتاج .. ومـن الواضح انه لو قرا نص الرحلة كاملا لكان له راي آخـر في الرحلـة وصاحبها ....

والامر بخلاف ذلك في بحث المؤلف عن الرحالـة الطنجي ابن بطوطة فقد وجد الموضوع خصبا فوفـاه حقه وان كان لم ياتنا بشيء مهـم عن حيـاة الرحالـة المغـربـي ...

وقد كان المؤلف محظوظا حيث اطلع على الطبعة الاخيرة من رحلة التجاني التونسي الذي عاش في القرن الثامن الهجري ورحل مع اميره في رحلة ممتعة في القطر التونسي وطرابلس .. وكان الرحالة التونسي اديبـا ومؤرخا وجغرافيا فضمن رحلته تحقيقات ومشاهدات غريبة جعلت رحلتـه مـن امتـع الرحـلات في الادب الجغرافي العربي وهي تحفة علمية وادبية رائعـة .. لا سيما في طبعتها الاخيرة التي تمت بعنايـة وتحقيق الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب العلامـة التونسـي الشهير .. وهذا الاطلاع انطق المؤلف بوصف دقيـق لرحلة التجاني وكان من الاشياء التـي زادت في قيمـة كتـابـه .

اما بقية كتاب الدكتور نقولا زيادة فقـد تضمنت شيئين جديرين بالتقدير والاهتمام والدرس وهما :

الاول : الخليج العربي في اقلام الرحاليـن فـي العصور الوسطى .. واقـلام الرحالين الاوربيين فـي مطلع العصـر الحديث ...

ومنطقة الخليج العربي كانت منذ فجـر التاريـخ منطقة ذات اهمية خاصة في طريق القوافل التجاريـة من الهند والجزائر المتناثرة في المحيط الهندي واطراف الصين وسواحل البحر الاحمر وقد قامت بنفس الدور ايـام الحضارة الاسلاميـة وكـان الصـراع حـولها مستديما .... ولذلك اهتم بها الرحالون الاولون مـن

عرب وغيرهم في العصور الوسطى كما اهتم بها الرواد الاوربيون في عصر الاستكشاف والبحث عن المواد الخام والمجوهرات .

وقد اهتم المؤلف بذلك وحالفه التوفيق في اعطائنا صورة واقعية عن الخليج وحظه من عناية الرحالين .

الثاني : مصورات جغرافية للخرائط التي خطها الجغرافيون والرحالون العرب للاقطار والبحار كما كانوا يتصورونها وهذا شيء مفيد وطريف للباحثين وهو في الوقت نفسه من حسنات هذا الكتاب الذي بحث مؤلفه عن الجغرافية والرحلات عند العرب .

الكتيبة الكامنة

لا ادري لماذا ننجذب بقوة سحرية غريبة نحو لسان الدين ابن الخطيب . واخباره وآثاره .. ولا ادري لماذا يتسابق الباحثون في المشرق والمغرب للبحث عن تراثه في الادب والتاريخ وبعثه من مرقده بعد ان نام في الخزائن العامة والخاصة منذ قرون ...

فهل كان ابن الخطيب بدعا في الوزراء والساسة والشعراء والكتاب المؤلفين ؟ وهل كان تراثه بهذه المنزلة من الخلود . بحيث لا تبلي جدته الاعوام ولا تاتي عليه القرون . ؟

ان بعض هذا امر واقع ليس له من دافع ... فابن الخطيب تجسمت فيه عناصر الحياة السياسية والفكرية والادبية طيلة حقبة دقيقة من القرن الثامن الهجري في كل من الاندلس والمغرب ...

فقد كانت قصائده في كل من بني الاحمر بغرناطة وبني مرين في فاس .. كما كانت رسائله ومؤلفاته في سائر الموضوعات التي تناولها مثالا يحتذى في ذلك العصر الذي يمتاز بطابع خاص في التعبير والتفكير ...

اما شخصيته التي تقاذفتها الاحداث من اعلى المناصب ذات الجاه العريض والنفوذ الواسع .. الى حياة النفي والالتجاء والقلق والمطاردة والمؤامرة والكيد .. ! فقد كانت هي الاخرى باعثا اساسيا لرواية قصته والبحث عن اخباره أيام سرائه وضرائه وعزته وخموله ...

وقد عرفت مدينة فاس لسان الدين ابن الخطيب سفيرا خطيرا .. كما عرفته لاجئا حزينا .. نفض يده من السياسة والوزارة وعكف على حياة التاليف والمطالعة .. واقتنى من العقار والدور ما كان له فيه سلوة عن قصوره بغرناطة .. !

ويوم ابى ابن الاحمر الا ان يقتل وزيره القديم وان ينكل به اشنع تنكيل لقي ابن الخطيب مصرعه في فاس وضم رفاته ترابها .. !

وقد صرع مع نابغة غرناطة يوم صرع كثير من مؤلفاته وآثاره فنهبت نهبا واحرقت احراقا ولم ينج منها الا ما اعيت يد الزمان عن النيل منه واعدامه ...

ومنذ ذلك الحين شعر الباحثون بالفراغ الذي احدثته هذه المؤلفات في عالم التاريخ والادب فراحوا يسألون عنها كل غاد ورائح حتى اذا ظفروا بنسخة في الشرق او الغرب اعتبروا ذلك فتحا مبينا ونصرا عظيما .. !

ونحن الآن نستقبل كتابا جديدا من كتب ابن الخطيب اخرجته المطبعة اخيرا في بيروت وهو كتاب « الكتيبة الكامنة » الذي دون فيه المؤلف ارتساماته عمن لقيه من شعراء عصره في الاندلس .

وقد اخرج الكتاب عن نسخته الخطية التي وجدها في المغرب الاستاذ احسان عباس الباحث الشهير ..

والحق اننا كنا في شوق كبير لقراءة هذا الكتاب من اجل الاطلاع على ما يمكن ان نكون قد احتفظ به من معلومات عن ابن الخطيب وعصره ومعاصريه من الشعراء الاندلسيين .

وحينما كنا نرى النقل عنه عند المؤرخين نشعر بالم كبير لاننا لم نطلع على اصله ..

واليوم ها هو الكتاب بين ايدينا في طبعته الجديدة فماذا فيه .... ؟

لقد ترجم ابن الخطيب لـ (103) من شعراء الاندلس الذين لقيهم . وروى شيئا من اشعارهم المختارة ...

ونحن حينما نقول « ترجم » نكون قد تجاوزنا في هذا التعبير لان ابن الخطيب لم يترجم في الحقيقة وانما رسم خطوطا عريضة تارة ودقيقة اخرى لهؤلاء الشعراء ...

فرفع بعضهم الى أعلى السمـاء ثنـاء وتقديـرا وهبط ببعضهم الى الدرك الاسفل شتما وهجوا وهتكا للحرمـات ... !!!

وقد اراد المؤلف بذلك ان ينتقم من اعدائه الذين تآمروا عليه وابعدوه عن المنصب والجاه والنفوذ وافتوا بوجوب قتله لانه خرج عن شريعة الاسلام فى زعمهم..!!

وقد شفى المؤلف غليله من هؤلاء فسجل عليهـم مخازي لا تبليها الايام ولكن ابن الخطيب الذي ذم هؤلاء وشتمهم هو ابن الخطيب الذي رفـع من قدرهم يـوم الف كتاب « الاحاطة » فى اخبار غرناطة ...

فنحن ازاء تناقض ابن الخطيب لانملك من امرنا شيئا سوى ان نتعجب من حوادث الايام التي تعمـل عملها فى الصداقة والعداوة وتظهر الانسان مهما سما فى العلم والجاه او المنصب ضعيفا امام مصالحه وشهواته وانانيتـه .. ! !

ورحم الله ابن الخطيب فقد شقى كثيرا بالناس.. وشقوا به ايضا .. ! وكل منهما ليس الا اداة سياسية تستعمل عند الحاجة اليها .. ! من طرف الذين كانوا يعملـون تحت الستـار .. !

هذا عن التراجم وتناقضها مع اخواتها من كتاب الاحـاطـة ...

اما عن اسلوب ابن الخطيب فهو الاسلوب المسجع الذي اشتهر به كتاب الاندلس ولا سيما ابن الخطيب .

وبذلك ضاعت كثير من الحقائـق والفوائـد فى سبيـل تركيب الاسجـاع والبحث عـن المحسـنـات البديعية .. واصبح الذي يريد ان ياخـذ معلـومات وافية عن الشاعر لا يجد امامه الا قوالب جامدة والفاظا جوفاء ليس وراءها شيء .. !

ولكـن رغم هذا النقـد الذي وجهنـاه لكتـاب « الكتيبة الكامنة » فاننا نجدها اثرا من آثار المؤلـف يجب ان تنال مكانتها من تراثه .. وان تاخذ حظها مـن التقديـر ..

ولعل ابن الخطيب لم تمهله الايام ليتم كتابه هذا. فمات وتركه ناقصا مؤمـلا ان يتمه ابنـه عبد الله .. وقد اشار الى ذلك فى كتابه الذي بين ايدينا ...

ولا نودع ابن الخطيب فى هذا الكتاب دون ان نشير الى انه احتفظ لنا بعدة قصائد ومقطعات شعرية مـن اعلى درجة فى البلاغة والوصف فهي اذن ذخيرة فنيـة تكتب فى سجل حسنات ابن الخطيب .. وكم لـه من حسنـات ... !

فـاس : عبد القادر زمامـة



روضة الورد

للفيلسوف الإيراني سعدي الشيرازي

عرض وتحليل للآنسة أمل جراح

ان اداة التعبير الفارسية تكاد تكون تواما لاداة التعبير العربية : فاذا كان هناك لغة فارسية ولغة عربية، فان الافكار والآراء متشابهة جدا بين العرب والفرس وعندما يتاح لعربي ان يقرأ اثرا فارسيا فانه لن يجد صعوبة في الفهم ، لان هذا الاثر يكاد يكون تعبيراً عن حياته .

ان التلاحم النفسي بين الادب العربي والادب الفارسي يعود الى فجر الاسلام ، يوم ترك الفرس عبادة النار بادراكهم الحق في الاسلام فحدث اثر ذلك تسابق رائع في خدمة الفكر والعلم بين العرب والفرس ، ولقد ادى هذا التسابق في التالي الى تقديم ثمرات رائعات للفكر الانساني العالمي الذي يذكر الآن بكل احترام وتقدير هذه الاثار ، بل هو يصفها في مصاف اعظم الاثار الفكرية للعباقرة الخالدين .

وسعدي الشيرازي واحد من هؤلاء ، وقد قامت وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق بترجمة اثر من آثاره وهو « روضة الورد » وقد ضمن سعدي روضة الورد حكايات طريفة ومفارقات شيقة وحكما وافكارا سديدة واشعارا فارسية وعربية ، فكان هذا الكتاب في فائدته وطلاوة سرده وغنى معانيه وحلاوة الفاظه روضة ممرعة بهية حافلة باشتات الزهر .

لقد اصاب هذا الكتاب شهرة ادبية كبيرة بعد ان ترجم الى جل لغات العالم ، تؤهله لان يكون ابرز ما انتجه الفكر الانساني ومترجم هذا الكتاب هو الشاعر العربي السوري محمد الفراتي وقد عرف باطلاعه العميق على الادب الفارسي القديم والحديث ، وقد نهض بعبء ترجمة كتاب « روضة الورد » — جلستان — وحرص على ان ينقل الشعر الفارسي الوارد في الكتاب الى شعر عربي مشرق مع محافظته على اداء المعنى دون تصرف او تحريف ، وعلى ان يترجم النثر الفارسي بنثر عربي يتفق في جمال سرده واسلوبه ونسجه مع الاصل الفارسي . وقد قسم الكتاب الى عدة ابواب الباب الاول في سيرة الملوك ، الباب الثاني في اخلاق الفقراء ، الباب الثالث في فضل القناعة ، الباب الرابع في فوائد السكوت ، الباب الخامس في العشق والشباب ، الباب السادس في العشق والشيخوخة ، الباب السابع في تاثير التربية ، الباب الثامن في آداب الصحبة .

وقد اجاد المترجم نقل ما حوته هذه الابواب الى العربية اجادة تامة — وسالحق في المقال بعض الفقرات التي انتقيتها من هذه الابواب — .

ان من يتتبع آثار هذا الشاعر العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق في مشارق الارض ومغاربها ، يستطيع ان يستخلص تاريخ حياته بسهولة مما تركه بين ايدي الناس يتداولونه ويتدارسونه فيما بينهم ، معجبين ماخوذين بهذه العبقرية الفذة التي لايجود الزمان بمثلها الا في فترات قليلة بين حقبة واخرى من الدهر بعيدة المدى متطاولة الامد ، وان الذين ارخوه وعنوا بآثاره واستخلصوا تاريخ حياته من دواوينه الشعرية ومن نثره الساحر ؛ خاصة في كتابه الخالد (كلستان) ، وفي ديوانه الرائع (بوستان) اما اسمه الكامل فهو الشيخ مشرف الدين بن مصلح السعدي ، احد النجوم اللامعة في سماء الادب الايراني ، فلقد بلغ اعلى درجات الفصاحة في اللغة الفارسية ، كما ان نظمه ونثره يعد احسن مثال في السلاسة والبلاغة ، وقد ولد الشيرازي على الاغلب سنة 606 هـ .

ويقال ان الشاعر كان في رعاية الاتابك سعد بن زنكي الذي ارسله الى بغداد لاتمام علومه ، ومن المعتقد ان الشيخ قد عزم على السفر الى تلك المدينة للتحصيل، لما رآه من الحروب والاضطرابات في نواحي فارس ، وقد كان من نتائج هذا السفر ومن التقائه بعلماء بغداد وعظمائها ، ان كان لكل هذا تأثير لا حد له في نفسية شاعر شاب ، وفي افكاره كذلك ، وقد كانت بغداد في ذلك الوقت ، دار العلم ، حضر فيها دروس اساتذتها كالشيخ شهاب الدين السهروردي وهو من كبار رجال الصوفية ، وابي الفرج بن الجوزي ، وامثالهما .

ثم عاد السعدي بعد بضع سنوات من تحصيله في هذه المدينة الى موطنه في ايران ، وقد تعرض الى هجمات المغول ، ولم تنج مدينة شيرزا نفسها ــ وهي موطن نشأته ــ من الثورات التي وقعت بين احفاد الخوارز شاهيين وبين الاتابكة ، فتأثرت نفسيته بذلك، ورغب في ان يطوف العالم ويجوب نواحيه فقام برحلات طويلة وزار مكة ودمشق وبلغ شمالي افريقية ، واقام مدة في الشام ، وعاشر اهل تلك البلاد من الطبقات العليا الى الطبقات الدنيا واختلط بالعلماء والعوام والصوفية والسنيين والملاحدة والبراهمة ، وقد تزود من كل ما تحمله افكارهم ولم يفارق دمشق العزيزة عليه الا في سنة 643 هـ فيما يعتقد البعض ، حين ابتليت بالقحط والغلاء والجراد وجفاف مياه العيون والانهار ، فرثاها ابلغ رثاء وبكاها احر بكاء ، وخرج منها هائما على وجهه في بادية القدس ، فاوقعه سوء حظه اسيرا بيد الفرنجة ، وافتداه صديقه الحلبي وزوجه ابنته فتخلص منها لوقاحتها ورحل عن حلب وهذا آخر عهده بديار الشام ، وبعد هذا السفر الطويل ، عاد الشيخ الى موطنه سيرا مزودا بالخبرة ، ممتلىء النفس بالافكار الناضجة والعقائد العميقة فلما بلغها وجدها تحت حكم الاتابك ابي بكر بن سعد سنة 623 / 668 هـ فوجد البسط في الرزق والامان في الحياة وفي ذلك الموطن وجد السعدي القرائح والميل للتصنيف فألف ذخائر المعارف ، ونفيس الآداب بعد ان امضى عمرا طويلا في التنقل بين البلاد .

ومع ان الشاعر قد طبقت شهرته الآفاق منذ نشأته وسمع عن فضله منذ شبابه ، وجرت اشعاره على الالسنة فان اهم ما قام به في ذلك العهد ــ اي اواخر عهد السلطان الاتابك ابي بكر ــ انه نهض للتأليف والتدريس واول منظوماته الهامة والمشهورة هي (بوستان) وهذا الديوان يشتمل كله على قصص شعري في غاية الابداع ، وهو في هذا الديوان شاعر انساني ومعلم اخلاقي وبعد سنة من اتمامه الف مصنفه الآخر (كلستان) وهو اجود ما كتب في النثر الفارسي واسلوب كلستان يطابق عنوانه (روضة الورد) .

وتنتظم فيه القصص والامثلة والحكم والنصائح الاخلاقية والاجتماعية في عبارات لطيفة متينة حتى لنستطيع ان تقول ان الكلستان شعر منثور ، او نثر مجرد من الزوائد والحشو .

اما غزليات السعدي فيمكن ان تقول انه مبتكر فيها ، فقد تضمنت ابدع الاحساسات في روح الصوفية، فلم يبلغ شاعر آخر ما بلغه فيها ، مع انه يتضح من حكايات السعدي وحكمه انه اندمج في زمرة رجال الصوفية لكن لم يكن من اولئك ــ كما يقول تعريف الكتاب ــ الذين نفضوا ايديهم من شؤون الحياة ولا من الذين لجأوا الى الاعتزال ، بل كان له لطاقة افكارهم واشراق نفوسهم ، في حياة معتدلة وعمل متزن .

وكان تأثير السعدي في الناحيتين الادبية والاخلاقية لا حد له ، ليس في ايران وحدها ، بل في العالم اجمع ، فان بعض الشعراء المشهورين الذين جاءوا بعده كحافظ الشيرازي وعبد الرحمن الجامي قد وضعوه موضع التقدير والاعجاب واحلوه بينهم محل الفضل والاجلال ، وقد بلغت شهرة السعدي اطراف العالم ، ونقلت آثاره في النثر والنظم الى جميع لغات الدنيا ، وكانت محل اعجاب الامم وتقديرها .

وقد توفي رحمه الله بين عامي 690 / 694 هـ في شيراز ودفن فيها .

وشعر الشيرازي اتسم بالعمق والابتكار وجمال الاسلوب واستطاع ان يزاوج بين دفقة الحياة وسكون الخلود .

ان قارىء (روضة الورد) لن يستطيع ان يحدد مكان الذروة ومكان الضعف فالافكار تنساب على سوية واحدة من الوعي العظيم والحكمة الخالدة ، ان الآثار العظيمة لا يمكن ان تجزأ ، انها وحدة كاملة ، يجد الانسان نفسه امامها كالماخوذ بل هي تفرض عليه خطها وفنها ، (روضة الورد) كتاب عظيم لا يمكن ان يمسك الانسان فيه بفاصلة واحدة ويقف بها خارج الكتاب ، ان قطعه وافكاره واشعاره متماسكة الى حد عجيب ولقد اخترت بعض الابواب ليتسنى القارىء ان يتمتع ولو قليلا بهذا الاثر الخالد :

فى سيرة الملوك :

روي ان احد ملوك خراسان راى السلطان محمود بن سبكتكين فى المنام بعد وفاته بمائة عام ، ان وجوده قد انحل وصار ترابا ما عدا عينيه فانهما ما تزالان تبصران ، وبمحجريهما تتحركان ، وقد عجزا سائر الحكماء عن تاويل هذه الرؤيا غير ان درويشا عبرها خير تعبير فقال : هو ناظر الآن فملكه باق وان انتقل بيد الاخرين .

فى اخلاق الفقراء :

قدمت عذري عن التقصير يا املي
اذ لا اعتماد على نسكي وطاعاتي
تاه العصاة واما العارفون فقد
تبرأوا لك من تلك العبادات

العابدون يطلبون منك ثواب طاعتهم ، والتجار يطلبون ثمن بضاعتهم ، واما العبد جئتك باملي لا بطاعتي ، وبذلي واحتياطي لا بتجاربي ؛اصنع بي ما أنت أهله ولا تفعل بي ما انا اهله .

فى فضل القناعة :

كان سائل مغربي ينادي بسوق البزازين فى حلب، يا ارباب النعمة لو كنتم منصفين وكنا نحن قانعين لارتفع رسم السؤال من الدنيا .

فى فوائد السكوت :

خسر تاجر اثناء تجارته الف دينار فقال لولده : يلزم الا يقع هذا الخبر الذي لم يطلع عليه غيري وغيرك بسمع احد ، فقال الولد : الامر لك يا والدي ، ولكن اطلعني على هذه الفائدة لاعرف ما هي المصلحة فى الكتمان فقال الاب حتى لا تكون المصيبة الواحدة علينا مصيبتين ، احداهما خسارة راس المال والاخرى شماتة الانذال .

فى العشق والشباب :

ما مر من ذكر الحمى بمسمعي
لو سمعت ورق الحمى صاحت معي
يا معشر الخلان قولوا للمها
من ليست تدري ما بقلب الموجع

فى الضعف والشيخوخة :

كنت ضيف شيخ فى ديار بكر ، عنده مال كثير وله غلام كالبدر المنير فقال ذات ليلة : لم يولد لي طوال عمري غير هذا الغلام ، وذلك ان فى هذا الوادي شجرة يقصدها الناس للمناجاة فى قضاء الحاجات ، وكم من ليلة ضرعت بجذعها لمولاي جل وعلا حتى وهب لي هذا الغلام ، وسمعت ان الولد كان يقول لرفاقه خفية : ما ضر لو عرفت مكان تلك الشجرة حتى ادعو بان يموت ابي .

فى تاثير التربية :

كان احد الحكماء يبذل لابنائه النصيحة على الدوام فيقول لهم : ياروح ابيكم ، تعلموا المعرفة اذ لا يصح الاعتماد على ملك الدنيا واقبالها ، فالجاه والذهب لا يخرجان مع من ذهب والدرهم والدينار معرضان للاخطار ، فاما ان يسلبهما قاطع طريق او ياكلهما المالك ايما بالتفريق ؛ اما المعرفة فعين دائمة الجريان ودولة موطدة الاركان اذا زلت بصاحبها القدم لا يستولى عليه غم ولا ندم ؛ اذ المعرفة نفسها دولة ، فحيثما حل يكون بها مرموق القدر ولا يجلس الا فى الصدر ، واما عديم العرفان فحيثما حل ذليل مهان لا ينال من الخبز كسرة ولا يعيش الا بالحسرة .

فى آداب الصحبة :

جمع المال لاجل راحة العمر وليس العمر لاجل جمع المال ، سألوا عاقلا من حسن الحظ ومن هو سيئه فاجاب : حسن الحظ ذلك الذي زرع فاكل ، وسيء الحظ ذلك الذي كنز ما جمع وارتحل ...

* * *

وبعد ان هذه العجالة الصغيرة لا يمكن ان تعطي للشيرازي حقه والذي يرغب ان يرافق هذا العبقري الخالد فليس امامه سوى اثاره ذاتها لانها وحدها القادرة على اعطاء فكرة واضحة كاملة عن هذا الرجل العظيم .

دمشق : امل جراح

على هامش العناصر القرآنية في قصيدة قفا نبك

تعقيب للأستاذ محمد الحلوي

مرة اخرى تطل قصة الانتحال فى الشعر الجاهلي بعد ان احتجبت فى غمرة التيارات الادبيـة التي غطت عليها وصرفت عنها اقلام الكتاب الى ما يمس الحياة فى صميمها ، وهكذا طاب للاخ ابن تاويت ان ينبش هـذا الموضوع الذي شغل الفكر العربي ردحا من الزمن غير قصير فى حذر بالغ وهو يسجل ملاحظاته (التي اهتدى اليها) فى مقاله العناصر القرآنية ، اذ يبادر فيعلن انـه ليس من اولئك ولا هؤلاء ، وانه سيقف موقفا وسطـا لا يبتعد فيه عن الحق ولا يتجنـى فيه على التاريـخ ، وللاستاذ فى نفسي مكانة اجلها فهو من رجال الجيـل الذين وقفوا حياتهم لخدمة العربية وادبها . وهـذا ما حذا بي الى الاهتمام بملاحظاته والتعقيب عليهـا ، فلننظر الى اي حد كان الاستاذ واقعيـا فى التزاماتـه وهادفا فى ملاحظاته التي اضافهـا الى قصة الانتحال بعد ان طفح كيلها وبلغ الزبى سيلها ، وسنرى بعـد ان ملاحظاته لم تكن استيئناسية ولا تخمينية ، ولكنهـا ترتفع عنده الى مستوى الحقائـق الثابتة ، وتملأ مـن نفسه ما تملاه القضايا المسلمة .

لم يكن من باب الصدف ان يقع اختياره بالـذات على معلقة امريء القيـس ، فهذا فى التاريخ آدم الشعر العربي ، وقصيدته الانشودة الخالـدة التـى تفتتهـا الاجيال وترنم بها الحداة وتلقفها الشعراء مـن بعـده يروونها ويحتذونها ، وبهذا الاعتبار كان كلامه حجـة على كل كلام ومرجعا لرجال اللغة والنحو والتفسيـر كلما احوجهم الى استدلال ، يرجعون اليه كما يرجعون الى غيره من شعراء العرب عامة وان اختلفت آثارهـم الادبية وتنوعت سماتهم الفنيـة ، فهم جميعـا تلـك المصادر الصافية التي تدفقت منها هـذه اللغـة عبـر الاجيال وتفجرت بها عبقريات ابنائها فى مختلف الاحقاب،

وقد درج العرب وهم يطوون حنايا صدورهم على هذا التراث ، لا يلهيهم عنه شيء من مجد ولا يزهدهم فيـه حطام ولا متاع ، يسمرون به فى النوادي ويحدون بـه فى الصحراء ويباهون به شعوب الارض ولا تلحقه مـع القـدم بلى .

الهـى بنـي تغلب عـن كـل مفخـرة
قصيـدة قـالهـا عمـرو بن كلثـوم
يـروون ابيـاتهـا قـد كـان اولهـم
يا للرجـال لشعـر غيـر مسئـوم

هذا الهيام بالشعر والافتتان بجمال المعاني الذي عرف به العرب هو العنصر الفعال الذي ضمن لآثارهم الخلود وحفظها من العبث والتحريف ، وهو نفسه الذي كون عندهم حاسة سادسة اقدرتهم على التمييز بيـن صحيح الشعر وزائفه ، فاصبحوا صيارف الشعـر الذين لا تخيب آراؤهم ولا تخبوا افهامهم ولا يتنكبـون عن الجادة فيما يصدرون مـن احكـام ولا يختلـط فى اسماعهم صوت شاعر بآخر ولا يلتبس فى اذواقهـم اسلوب باسلوب ، هكذا انتهى الينا هذا الشعر الجاهلي فى اطار من القداسة والهيام وبتواتر مسلسل يشبـه احيانا التواتر الذي وصل الينا به القرآن ، وبدات حركة العلوم فى عصر معاوية ، فلعب الشعـر دورا كبيـرا فى تقعيد قواعدها وارساء دعائمها ، وتبارى الرواة فـي التقاط هذا الشعر يمحصونه ويروونه معنعنا كمـا يروون احاديث الرسول ولا يتورعون عن رواية العمل الادبي الواحد بطرق كثيرة لا تختلف عـن بعضهـا الا بكلمات ، ثم تحركت الهمم لتدوين الشعر العربي اشفاقا عليه من الضياع ، فقيض الله لهذا العمل امثال ابي زيد والمفضل الضبي ، والاصمعي و ... فازاحـوا عنـه

ما يعلق عادة بكل الآثار الفكرية التي تناقلتها الافـواه ولم تدونها الاقلام ، ووعتهـا الصدور ولم تحتضنهـا بطون الكتب ، وتمت تصفية الشعر الذي لم يقـو على البقاء منه الا جيده على يد هؤلاء الذين لم يعرف تاريخ العرب مثلهم قديما وحديثا ، والذين وقفـوا بالمرصاد يشهرون بكل زيف ويميزون كل خبيث تماما كما فعل رجال التعديل والتجريح في رواية احاديث الرسول الكريم .. وكما يبدو فان قصة الانتحال التي مططها المعاصرون ووسعوها لتستوعب بالشك ما روي عن العرب في شعر قديم لم تكن عند نقاد العرب وصيارفتهم الا عملية تطهير سرعان ما وضعت خطا فاصلا بيـن ما يجب ان يقبل من هذا التراث وما يجب ان يرد ممـا عجز عن اجتياز هذا الامتحان .

لم اقصد ان ازيد الاستاذ علما وانا اكتب هـذه الكلمات ولكني اردت فقط ان اضع هذه الصورة امامي لتعبيد الطريق واضاءة مجاهلها ، ولان الاستاذ يرجـع ما اسماه بالعناصـر القرآنيـة الى انتحال الشعـر للاستدلال به على القواعد العلمية ـ كما يرى الدكتور طه حسين ـ والفكرة تعني ان المفسرين والنحاة ورجال اللغة استنجدوا بالشعر في تعزيـز آرائهم وتركيـز قواعدهم ، فلم يتورعوا عن الكذب واصطناع الشعـر لتبرير آرائهم ، فالمفسر الذي يتناول تفسير آية على وجه يخالف به الاخرين لايرى باسا من ان يعتمـد على الكذب والاستعانة بالشعر لتوجيه ما يـرى ، ورجـل النحو الذي يضع قاعدة من قواعد الكلام العربي هـو ايضا يبيح لنفسه ان ينطق بالشعـر على لسان امريء القيس او طرفة او غيرهما ليرفع مرفوعـا او ينصب منصوبا ، ورجل اللغة لا يتورع عن اصطناع ما يعـزز بـه رايه في شرح لفظ او تفسير كـلام بشعـر يعزوه لواحد من شعراء العرب الاموات ... في نطـاق هـذه النظرية يسجل الاستاذ ملاحظاته حول معلقـة امريء القيس ، والنظرية من اصلها خطيرة وهدامة ، لانهـا تمثل لنا علوم العربية وكانها قصور بنيت على رمـال ورفعت على غير اساس ، فالكذب والوضع لحمتهـا وسداها ، في التفسير والنحو كذب ، وفي اللغة والادب كذب ، وفي كل ما دونه العـرب وتنازعوا الراي فيـه وضـع وانتحـال ....

ومن المؤكد ان احدا يرى هذا الراي لا يستطيـع ان يذكر لنا واحدا من رجال التفسير عرف بانتحـال الشعر في تفسيره لاقدس كلام ؛ ومن عساه ان يكون الا عليا او عبد الله ابن العباس او ابن جريـر الطبـري او القاضي البيضاوي ؟ ثم ماذا عسى ان يستفيد رجـال النحو من هذا الانتحال وهمهم استقراء كلام العـرب ليذكروا الناس ما رفعت منه وما نصبت ؟ وما ضرهم لو نصب العرب الفاعل او رفعوا المفعول ؟ وما عسـى ان تكون مكاسبهم من هذه المغامرات غير فضيحتهم بيـن الناس ، ان النظرية مع خطورتهـا تجعـل مـن رجال التفسير والنحو واللغة شعراء عمالقة لا يعجزون عـن الشعر كلما دعتهم الحاجـة اليه ، فهم الى معارفهـم الواسعة شعراء في مستوى امريء القيس ، والـذي يعرفه التاريخ هو ان هؤلاء العلماء كانـوا يستانسون فقط بشعر العرب وهو كثير في كل ما يدونون من غير ان تكون لهم حاجـة الى ان يكذبـوا على انفسهم وعلى الآخريـن .

كان القرآن يفسر بالشعر لانه كلام العرب ، وكان الشعر يفسر بالقرآن لانه نزل باسلوب العرب ، وكـان كل منهما حجة على صاحبه وان تفرد القـرآن بسمات ترتفع بـه عن اساليب البشر ، ومن هذا الباب سؤال الرجل لابن عباس عن معنى قوله تعالى : (طلعها كانـه رؤوس الشياطين) ما رؤوس الشياطين هذه ؟ وهـل سبق لاحد منا ان رآها حتى يشبه بها الله طلع شجرة الزقوم ؟ فيجيبه ابن عباس ان هذا يجري على نحـو قول امريء القيس :

ايوعدنـي والمشرفـي مضاجعـي
ومسنونـة زرق كانيـاب اغـوال ؟

ومن منا راى الاغوال وانيابها ؟ هكذا كـان كـلام العرب يفسر بعضه بعضا وهكذا كان علمـاء الطليعـة ينظرون الى هذا الشعر كاسمى مرجع تصحـح عليـه العربية وتبنى عليه قواعدها ، فهل وقف الاستاذ موقفا وسطا وهو يشير الى ابيات بعينها في قصيدة امـريء القيس ويجزم بانتحالها لتعزز آيات من القرآن ، واحيانا ينعت واضعها بالتكلف والاكداء ؟ وهل تحامى الوقوف مع احد المنكرين وهو يقول : (غير ان الواقـع هـو ما راينا وان البيت لا علاقة له بقصيدة هذا الاميـر ان كانت له قصيدة ؟) ، وللاستاذ ان يشك في القصيـدة ان شاء وله ان ينكر وجود امريء القيس كمـا انكـر نابليون ظهور المسيح وعده اسطورة تاريخية تناقلهـا البشر عبر الاجيال ، ولكن نابليون اقتنع سريعا عندما خاطبه بعض علمائه قائلا : هكذا يا مولانا يبطل التاريخ !.

وقـوفـا بهـا صحبـي على مطيهـم
يقـولـون لا تهلـك اسـى وتجمـل

هذا اول بيت شم فيه الاستاذ رائحة الوضع والانتحال ، انه أولا بيت غريب ـ كما يرى ـ عما سبقه ، لا يربطه بما قبله شيء ، وثانيا هو موضوع للاستدلال به على ورود وقف متعديا كما في القرآن (وقفوهم انهم مسئولون) ، ولست محتاجا ان اذكر الاستاذ بان انعدام الربط ـ ان كان في البيت ـ ظاهرة عامة يمتاز بها الشعر الجاهلي ، وان البيت في القصيدة العربية وحدة مستقلة مما يتأتى معه تقديم بيت على بيت من غير ان يحدث هذا العمل اي خلل او ارتباك ، وعلى هذا الاساس اعتبر النقاد التضمين وهو توقف البيت على ما بعده وارتباطه عيبا من عيوب الشعر ، على ان البيت في نطاق حديث الشاعر عن الاطلال وديار الاحباب فهو اشد ما يكون ارتباطا بما قبله ولصوقا ، اما وضعه لخصوص الاستدلال على مجيء وقف متعديا فقد يقبل لو كان تعديها غريبا وغير معروف في كلام العرب ، اما والامر على نقيض ذلك فقد يكون من الغباوة ان يكلف هذا الواضع نفسه الاحتجاج لشيء ليس فيه منازع ، فمن المعروف ان العرب استعملوا الفعل (وقف) قاصرا كما استعملوه متعديا ، فهذا لبيد يسأل دار احبته فيقول :

فوقفت اسالها وكيف سؤالنا
صما خوالد ما يبين كلامها

ويهيم عنترة في عرصاتها فيقول :

فوقفت في عرصاتها متحيرا
اسل الديار كفعل من لم يذهل

ويقول :

فوقفت فيها ناقتي وكأنها
فدن لاقضي حاجة المتلوم

فهل آثر هذا الواضع ان يجهد نفسه في صياغة الشعر للاستدلال به عن الرجوع الى شعر العرب وهو كثير ؟ ... اما هذه الابيات :

وان شفائي عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معول؟

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش
اذا هي نصته ولا بمعطل

تسلت عمايات الرجال عن الهوى
وليس فؤادي عن هواك بمنسل

ضليع اذا استدبرته سد فرجه
بضاف فويق الارض ليس بأعزل

فهي في رأس الاستاذ موضوعة لتعزيز حروف الجر الواردة بعد النفي وما يشبهه في نحو قول الله : « هل من خالق غير الله » . « مالكم من اله غيره » . « ليس بخارج منها » . وهذا يعني ان كلام العرب لم يعرف هذه الزيادة التي جاء بها القرآن فلا بد اذن لتبرير هذه الزيادة حتى لايكون القرآن خارجا عن اساليب العرب من ان ينتحل الواضع شعرا ينسبه الى امريء القيس ليطمئن الناس ويستسيغوا هذه الزيادة لان امرا القيس استعملها ، كان القرآن في حاجة الى تدعيم سلامة عربيته بهذه الترهات التي ينتحلها هؤلاء الوضاعون ـ والواقع ان زيادة هذه الحروف لم ترد في القرآن حتى كانت ظاهرة شائعة في كلام القوم الذين نزل بلغتهم وانتقى منها اعذبها واصفاها ، وافسح صدره حتى لما عربه العرب من كلمات اخضعوها للغتهم . فهل كان الواضع في حاجة الى اصطناع شعر يعزز به زيادة تدفق بها كلام العرب وسالت بها السنتهم فنزل بها القرآن ؟ .

ان مجرد استعراض خاطف لكلام العرب في شعرهم ونثرهم يؤكد عدم الاحتياج الى اشعار موضوعة لاثبات ما هو ثابت ومستفيض .

يقول المهلهل :

ولست بخالع درعي وسيفي
الى ان يخلع الليل النهار

ويقول عنترة :

وخلا الذباب بها فليس ببارح
ولست بخابيء ابدا طعاما

حذار غد لكل غد طعام
هل غادر الشعراء من متردم ؟

ويتحرر العرب احيانا من زيادة الحرف فيقول الاعشى :

الست منتهيا عن نحت اثلتنا
ولست ضائرها ما اطت الابل

ويزيدون في غير نفي ولا استفهام فيقول حسان:

يرمون بالقول سرا في مهادنة
يهدى الي كاتي لست من احد

وتقول الخنساء:

اذ القوم مدوا بايديهم
الى المجد مد اليه يدا

ويستعملون نفس الزيادة في النثر استعمالهم لها في الشعر: فنجدها في الامثال كقولهم: ما يوم حليمة بسر، ليس بعشك فادرجي وليس بنبع ولا غرب، ويخطب النبي (ص) فيقول: فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة او النار. ويخطب ابو بكر فيقول: اما بعد فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم. فمن المؤكد اذن ان الزيادة المذكورة مستفيضة في كلام العرب وان عربية استعمال القرآن لها لم تكن تزكيتها متوقفة على ورودها في شعر امريء القيس او في شعر غيره.

فقد يتفق ان يرد استعمال ما في القرآن ونتلمس له سندا من شعر العرب فلا نعثر عليه لان اكثر الشعر قد ضاع وفي هذه الحالة فقط يمكن ان يكون للوضع معنى معقول، اما عند استفاضة الاستعمال وتدفقه فهو اكثر من عبث يبدو من مأفون.

اما هذه الابيات:

ويوم عقرت للعذارى مطيتي
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
ويوما على ظهر الكثيب

فهي في راي الاستاذ وضعت ليحمل عليها ما ورد شبيها بها في القرآن مما حذف فيه الفعل والفاعل، ففي القرآن، ويوم نحشرهم، ويوم نسير الجبال، ويوم يقول كن فيكون. واذكر يا محمد هي الجملة المحذوفة التي يقدرها المفسرون، وما اظن الواضع كان بحاجة الى ان يضع شعرا يدعم به هذا الحذف الذي ورد في القرآن والذي شاع على السنة العرب في صور مختلفة، فقد حذفوا المبتدأ والخبر، والصلة والموصول، والصفة والموصوف، والفعل والمفعول، يميلون في كل ذلك الى الايجاز اعتمادا على ذكاء مخاطبيهم وقد انشد النحاة في حذف الفعل والمفعول قول الشاعر: وزججي الحواجب والعيونا. وقوله: علفتها تبنا وماءا باردا، أي سقيتها ماء باردا، وجاء به القرآن في غير موضع فقال: «والذين تبوأوا الدار والايمان» أي واعتقدوا الايمان، «واذا قيل لهم ماذا انزل ربكم قالوا خيرا»، اي انزل ربنا خيرا الى اشباه ذلك مما زخر به كلام العرب ونزل به القرآن، فاستدلال الواضع على هذا الحذف بشعر يكون اشبه باستدلاله على رفع الفاعل ونصب المفعول..

ويرى الاستاذ ان قوله (حلفة لم تحلل) لا يحتاج الى تنبيه للانتحال فيه ــ وعذره في هذا يرجع الى فهمه من التحلل مفهومه الشرعي الذي جاء مع الاسلام، والذي نفهم من البيت هو انها تعذرت عليه وحلفت حلف من يصمم على ترك ما حلف عليه فلا ينقض ما ابرمه بيمينه، ولا يحل ما عقده بها، ويمكن ان يستأنس لهذا بقول النابغة:

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهب

وتعد هذه الابيات:

افاطم مهلا بعض هذا التدلل
وان كنت قد ازمعت صرمي فاجملي
وان تك قد ساءتك مني خليقة
فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي
اغرك مني ان حبك قاتلي
وانك مهما تامري القلب يفعل

من املح الابيات التي تغنى بها العرب واغزل ما استملحه الرواة من معلقة امير الشعراء جيلا بعد جيل، ولكن الاستاذ في هذه المرة يراها مستوحاة من آيات بعينها، ويفترض ان المنتحل لابد وان يكون قرا سورة المزمل حين نظم البيت الاول، واعجب بالمعنى الجميل في الآية «واهجرهم هجرا جميلا»، فحلا له ان ينظم على غراره بيتا ينحله امرأ القيس لا لشيء سوى انه وقع تحت تأثير التلاوة فاندفع ليكذب لا ليؤيد رايا يراه في لغة او نحو، ولا لغرض من الاغراض التي يمكن ان ينتحل من اجلها شعر، ولكنه مجرد ايحاء لم يستطع الواضع التخلص منه، وعذر الكاتب ان القرآن وصف الهجر بالجمال لما اهاب بالرسول ان لا يشتط في هجر قريش وقطيعتها، وان يهجرها هجر تاديب تسترجع معه صوابها من غير ضغينة ولا وقيعة.

وهذا هو الجمال في الهجر ، وان لم يكن في الهجر من جمال ، فلما توسل امرؤ القيس الى فاطمته ان لا تسرف في تدللها عليه ، ولا تصرفه ، واذا كان لا بد من ان تفعل ، فليكن هذا الهجر محتملا لا تعنت فيه ولا اسراف ، كان لابد ان يكون هذا المعنى منتحلا وموضوعا، لانه من معاني القرآن التي لا يمكن ان تتفتح عنها عقول البشر ، اولا يتهيأ لانسان ان يسأل من معذبه ان يكون به رحيما فيخفف عنه قليلا من العذاب ، وابعد الاستاذ النجعة في فهم هذا البيت :

وان كنت قد ساءتك مني خليقة
فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

فتمحل في تفسير الثياب بالنفس كما فسرت بهذا المعنى في آية « وثيابك فطهر » ، ليؤكد انتحال البيت وانه موضوع خاصة لتفسير الآية السابقة ، وما اظن هناك حاجة الى هذا التعسف وصرف الثياب الى غير مفهومها المتبادر ، فسل الثياب من الثياب انما كنى به الشاعر عن المفارقة والمباعدة ، كما كنى القرآن باللباس عن شدة الاتصال والقرب بين الزوجين في قوله : « هن لباس لكم وانتم لباس لهن » ، فتفسير الثياب هنا بالنفس غير متعين ، ويجزم الاستاذ في هذا البيت :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فالهيتها عن ذي تمائم محول

يجزم بانه موضوع ليستدل به على ان مثل تكون مقصورة لذاتها ، كما في القرآن وترد مقحمة زائدة في الكلام ، ولعل الواضع كان في غنى عن تكلف هذا الشعر وكلام العرب طافح باستعمالها في الحالين فهل غاب عنه قول طرفة :

على مثلها امضي اذا قال صاحبي
الا ليتني افديك منها وافتدي

وقول الخنساء :

فلم ار مثله رزء لانس
ولم ارد مثله رزء لجن

وقول عنترة :

ان المنية لو تمثل مثلت
مثلي اذا نزلوا بضنك المنزل

لست افهم لماذا يجهد الانسان نفسه لينحل غيره شعرا عصر ذهنه في صياغته ، وكان احرى به وهو شاعر ان يعتز بانتاجه ويضن به على الآخرين ، ولست ادري هل عرف التاريخ شاعرا مهنته الوضع وانتحال الشعر لخصوص امريء القيس كلما سنحت له فرصة يؤيد فيها مسألة في التفسير واللغة والادب ؟ لا انكر ان يكون في شعر امريء القيس او غيره من الشعراء شعر منحول عارض به اصحابه من اعجبوا بقصائدهم فنظموا على غرار ابياتها وتحككوا بمعانيها ، ولكنني لا استطيع ان اجزم بان هذا الشعر وضع خاصة للاستدلال به على هذا اللفظ في القرآن ، ولتاييد هذه القاعدة في العربية ، وما اشبه هذه الافتراضات التي تتحول معها الظنون الى حقائق مسلمة ، وجاء في القرآن « فاقبلت امرانه في صرة فصكت وجهها » ، مفسرة بانها اقبلت في صيحة وصراخ وهي تلطم وجهها فلما قرأ الاستاذ هذا البيت :

فالحقنا بالهاديات ودونه
حوافزها في صرة لم تزيل

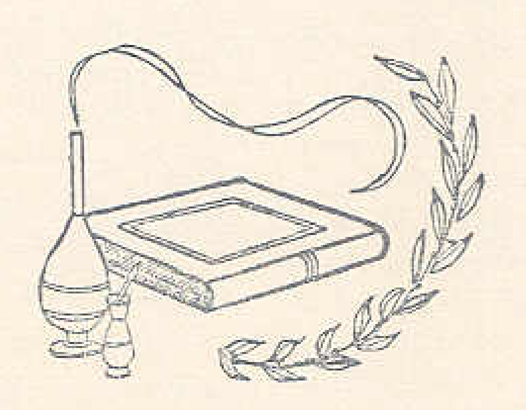
توقف عند الصرة ، وقال : لابد ان تكون هذه من تلك ، ولا بد ان يكون البيت موضوعا ليفسر معنى الصرة في الآية ، والاستاذ يعلم انها في البيت بمعنى الجماعة ، فكيف وهذه الحال يكون البيت موضوعا ليخدم الآية ويفسرها ؟

ان ملاحظات الاستاذ ــ كما يرى القاريء ــ تشبه ان تكون تصيدا وترصدا لكل ما فيه ملامح قرآنية ، فيكفي ان يكون في البيت لفظ او معنى وارد في القرآن ، حتى يكون ذلك كافيا للحكم بانتحال البيت ، فورود الضوء والسنا في هذا البيت :

يضيء سناه او مصابيح راهب
اسال السليط بالذبال المفتل

انما هو من قوله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالابصار » ، جاء به الواضع ليؤكد ان السنا عربي وليس بحبشي ، ان كان هذا المتحل من اتباع ابي عبيدة ، المنكر لوجود المعرب فى القرآن ، وتشبيه الليل بموج البحر يجب ان يكون استدلالا لقوله تعالى: « او كظلمات فى بحر لجي » ، وهذا التعبير الوارد فى قوله : وبات بعيني قائما غير مرسل ... انما هو تفسير لقول الله : « تجري باعيننا » ، فكل ما فيه ملامح من القرآن هو فى رأي الاستاذ موضوع ليخدم القرآن ويفسره ويحتج له ، ان فى القرآن من مسائل النحو وقضايا الاعراب ما يفوق بكثير هذه الصغائر التي يرى الاستاذ ان الابيات وضعت لها ، وكان احرى بهذا الواضع ان يعيرها قليلا من اهتمامه ويفيض عليها رذاذا من شاعريته ، واظنه لو فعل لاغرق سائر المعلقة ، ولتحولت الى انماط من الشواهد وسلسلة من الاستدلالات ، واذا افترض الاستاذ فى تأملاته فى الابيات انها عناصر قرآنية ، وانها مصنوعة ومستوحاة منه ، فقد يباح لنا ان نفترض كذلك ان هذه الاساليب الشعرية الواردة فى شعر امريء القيس وغيره قد تكون الاصل لما ورد فى القرآن الذي انزل بلسان العرب واساليبهم فكان كلامهم لحمته وسداه ، وللاخ الاستاذ اطيب متمنياتي .

فاس : محمد الحلوي





اعداد : الأستاذ محمد برادة

القصة العربية تترجم الى الفرنسية

في شهر واحد (أبريل 1964) صدر كتابان بباريس يشتملان على عدد وافر من القصص وفصول الرواية العربية المعاصرة . الاول قام بترجمته روني قوام ، وعنوانه « قصص عربية » (*) ، والثاني اختاره وترجمه رؤول مكاريوس بمساعدة زوجته ، وعنوانه : « منتخبات الادب العربي المعاصر ـ الرواية والقصة القصيرة » (*) ولعل الكتاب الثاني أهم من الاول ، لانه يقدم انتاجا عربيا معاصرا ذا قالب تعبيري ، طابع لنهضتنا الادبية الحديثة ، ثم نظرا للمقدمة القيمة التي كتبها له المستشرق الكبير جاك بيرك .

وقبل ان نعرض الكتابين ونناقش بعض الافكار التي يوحيان بها ، اود ان اشير الى مشكلة كادت ان تصبح كلاسية ، وهي مشكلة ترجمة آثارنا العربية الى اللغات الاجنبية . فالرغم من ان الوطن العربي يشغل رقعة شاسعة ، ويتوفر على استعدادات ادبية متنوعة بتنوع اقاليمه ، وتباين ظروف مجتمعاته .. وبالرغم من احتكاكه بالحضارة الحديثة ، وهضمه لاهم تياراتها ، ومحاولة الاستفادة من اصالة شخصيته .. بالرغم من كل ذلك ، فان العربي ما يزال يعيش في حدوده الاقليمية ، مجهولا لدى قراء الدول الاجنبية ... فهل يرجع ذلك الى طبيعة هذا الانتاج ، وعجزه عن تخطي الحدود المحلية ؟ ام ان الامر يتعلق بتقصير العرب في التعريف بنهضتهم الفكرية المعاصرة ؟

يظهر ان هذه الاقليمية ترجع الى السببين معا : غلبة الطابع المحلي على محتوى معظم الانتاجات ، وتقصير في التعريف بالاعمال الناضجة .

لنستمع الى راي كاتب اجنبي في تجاهل الغرب للشعر العربي الكلاسيكي (*) ، يقول : هناك ثلاثة اسباب لتجاهل الغرب للشعر العربي :

1) لانه شعر يطغى فيه الشكل على المضمون ، فالثروة الفكرية فيه اقل مما نجده منها مثلا في اعمال سوفوكليس . فاذا كان الايقاع الموسيقي هو عماد هذا الشعر العربي ، فان هذا العماد هو اول عنصر من عناصر الشعر يهوى عند الترجمة .

2) لانه شعر يختلف نسيجه عن النسيج المترابط في الشعر الذي يألفه الرجل المثقف الغربي وريث آداب اليونان والرومان .

3) انه شعر لم يجد الى اليوم من المترجمين ، العبقري القادر على نقضه وانطاقه بلغة الغرب » .

ربما كانت هذه الملاحظات صحيحة بالنسبة للشعر ، ولكنني ـ شخصيا ـ لا اوافق على تعميمها بالنسبة للنثر ، وخصوصا في الرواية والقصة القصيرة . فهناك اعمال روائية عربية ناجحة ، تستطيع ان تضاهي كثيرا من النماذج العالمية ، لو اتيحت لها ترجمة رائعة . ان كل الترجمات التي قدمت للانتاج العربي ، قام بها مستشرقون او اجانب يتقنون العربية .. وهو شرط غير كاف ، اذ لا بد من ان ينجز هذه الترجمات ادباء عرب يتقنون اللغات الاجنبية ، ليستطيعوا ان يتلافوا بعض الالتباسات والقيود الملتصقة بطبيعة الاسلوب العربي وتراكيبه . ومتى وجدت تلك الترجمات الدقيقة ، الواعية .. فان أدبنا لن يظل حبيس الاقليمية ، وسيطرق الآفاق العالمية الرحبة ليؤدي دوره في التعريف بتطوراتنا ، واهتماماتنا .

---

* René R. Kawam - Nouvelles Arabes - Ed. Seghers
* Raoul et Laura Makarius : Anthologie de la littérature Arabe contemporaine - Le roman et la nouvelle. Ed. du Seuil.
* ريزموند ستيوارت : الادب العربي وهل قابل للتصدير : المجلة ديسمبر 1962 ترجمة يحيى حقي .

فى كتاب « قصص عربية » لروني قوام ، نجد منتجات من النوادر والحكايات تمتد حقبتها الزمنية من صدر الاسلام ، الى بداية النهضة فى منتصف القرن التاسع عشر . ويرى المترجم فى مقدمة كتابه بان القصة القصيرة الفرنسية تأثرت بالقصة العربية من خلال كتابات بوكاس الايطالي الذي عاش فى القرون الوسطى. وقد دعم وجهة نظره بكثير من الاستدلالات والاستنتاجات . . .

اما رؤول مكاربوس فيرى ان الرواية والقصة العربيتين ليست لهما تقاليد قومية ، بل اقتبستهما النهضة العربية الحديثة عن فرنسا وروسيا . ولكن الرواية العربية استطاعت ان تكتسب قيمة خاصة ، لانها ـ فى نظر الكاتب ـ رغم اقتباسها للشكل ، عكست حقيقة اخرى ، وعناصر اجتماعية مغايرة لعالم الكتاب الغربيين . ولذلك قسم منتجاته الى ثلاث مراحل : 1) المؤسسون ـ 2) نهضة جديدة ـ 3) ابحاث . وتحتل مصر ولبنان القسط الاكبر من الكتاب ، فى حين لا نعثر على نماذج للقصة فى الاردن والحجاز ، وليبيا .. والحيز المخصص للمغرب العربي قليل (*). وقد اعتذر المترجم عن هذا التقصير بان هدفه هو تتبع مختلف التيارات القصصية الموجودة فى اقطار العالم العربي ، لا تقديم منتجات لكل الادباء المرموقين فى هذه الاقطار .

وتجلى هذا التخطيط للكتاب خصوصا فى المقدمة الرائعة التي كتبها المستشرق جاك بيرك عن مفهوم العرب للحياة ، وعن المشاكل التي تعترضهم فى تطورهم . وهي مقدمة تستحق الاهتمام لانها لوحة شاملة تعكس المراحل الاساسية التي تدرج فيها الفكر العربي ، والمشاكل التي تشغل صفوته المثقفة : القلق ، وازدواجية اللغة ، ومعركة الالتزام والمجانية .

العرب يعانون القلق لان : « التمزق ، والازدواجية ، والحرمان ، ملازمة لتقدمهم .. وحنين الى المثالية ينضاف الى رؤياتهم التطبيقية .. وما يفعلونه لا يوازي ما هم عليه فى الحقيقة . وبذلك يحتضنون صراعا حادا مشتركا بين جميع الناس فى عصرنا (*) . . . »

ويورد جاك بيرك ملاحظة اساسية عن وضعية الكاتب العربي المعاصر فى مجتمعه فيقول :

« الواقع ان القالب المعتمد الذي يقدمه ادب المناسبات مثل المدح والهجاء ، لم يختف بعد . والبواعث التي فضحها العقاد من قبل عند امير الشعراء شوقي (الذي يمكن ان يدعى ايضا شاعر الامراء) ، تلك البواعث ، ما تزال مستمرة . ومقابل « الامير » اليوم ، هو النظام الذي يمارس الحكم . ان الصفوة المثقفة فى الشرق الادنى ، التي لعبت دورا هاما فى الجيل الماضي وما يزال يتحتم عليها ان تضطلع بدور تاريخي ، ستتخلص من هذه القوالب التعبيرية العتيقة ، عندما تحقق استقلالها المادي ، وتضمن كرامتها الاجتماعية التي تطمح اليها . . . »

ليس غريبا ان تكون مهمة المثقف العربي المعاصر ، محفوفة بالمصاعب ، والالتباسات ، والتمزق . لانه ملزم بان يختار « طبيعة » اخرى وسط ركامات الماضي، وتداءات الحاضر .. وهو حائر بين القطيعة ، وبين الامل فى استعادة الوحدة المفقودة .. بالاضافة الى المشاكل الناجمة عن الاستعمار ، ثم عن تصفية الاستعمار .

ويطرح « بيرك » مشكلة ازدواج العربية (الفصحى والعامية) فى اطار الاختيار بين الاقليمية والكونية .. ويرى أن افساح المجال للغة العامية من شانه ان يعرقل سير الادب العربي نحو الكونية ، مهما كانت مبررات الواقعيين الحريصين على مخاطبة السواد الاعظم من الطبقات الاجتماعية .

بقي ان نعرف راي جاك بيرك فى مدى قابلية انتاجنا القصصي لكي يصبح عالميا . انه يجيب ، بصراحة ، ان الاعمال التي يمكنها ان تتخطى النطاق الاقليمي ، جد قليلة . ويرجع ذلك الى ضعف التركيب الجمالي . وهذا ما سجله ايضا الناقد « بيير هاهن » اذ قال ، معلقا على هذه المنتخبات (*) : « ان قراء هذه المنتخبات خصوصا فى الجزء الثالث ، تشهد بوجود تطور فى الادب العربي . ومن ذلك قصة « اللص والكلاب » لنجيب محفوظ التي تعكس عنفا جوانيا ، وتعتمد على الحوار الداخلي ، والتقهقر الى الوراء .. فتمثل مرحلة هامة لتطور المناهج والحبكات القصصية »

---

* ترجم نموذجا واحدا للقصة فى المغرب هو « فى المدينة » للصديق عبد الجبار السحيمي .
* ص 6 .
* صحيفة الاكسبرس ـ 23 ابريل 1964 .

مرة اخرى : ينتصب نجيب محفوظ عملاقا في الرواية العربية المعاصرة . والشهادة — هذه المرة — من الخـــارج .

ان هذه المنتخبات رغم انها ناقصة ، وتحتاج الى مجهودات جماعية ، فانها قد اكدت للادباء العرب ضرورة التعريف بانتاجهم وافادتهم بهذه الدراسات التي كتبت عنهم .. ولعل اهم شيء يلفت النظر في هذه الدراسات ، هو ضرورة استكمال بعض الجوانب الجمالية التركيب الفني ، ومحاولة ربط مشكلة الانسان العربي بالمشاكل المشتركة التي تواجه الانسان المعاصـــر .

سارتـر و « الكلمـات »

« عودة ظافرة » ، ذلك ما وصف به النقاد الجزء الاول من السيرة الذاتية التي كتبها سارتر بعنوان « الكلمات » (*) . وظن البعض من خلال النغمة التي سادت صفحاته ، ومن خلال الشكل الذي صاغه فيه سارتر ، ان اليأس والمجانية ، قد انتصرا اخيرا على فيلسوف الالتزام .. ولكن المقتطفات التي سنوردها من استجواب اجراه المحرر الادبي لصحيفة « لوموند » (*) مع سارتر ، تثبت ان هذا الاخير ، ما تزال تشغله العلاقات بين الادب والعمل ، والبحث عن طريقة للتأثير في صيرورة العصر :

« س — يخيل لمن يقرأ « الكلمات » انك تأسف لاضطرارك الى اختيار الادب ؟

سارتر — الواقع انني في سنة 1954 كدت ان آسف لذلك .. فقد كنت حديث عهد بالانخراط في عالم آخر . وظللت احلم حياتي طيلة خمسين سنة . ولكن ، توجد في « الكلمات » نغمتان هناك صدى لهذه الادانة ، ثم التخفيف من قساوتها . واذا كنت لم انشر هذه السيرة الذاتية من قبل ، في شكلها « البدائي » ، فلانني كنت اعتبرها مبالغة ، ولم اكن مقتنعا بتلطيخ شقي لانه يكتب . على انني ادركت ان « العمل » له صعوباته ايضا ... والسياسة لا تنقذنا اكثر مما ينقذنا الادب .

س — وما الذي ينقذنا ؟

سارتر — لا شيء . ليس هناك خلاص في اي مكان . ان فكرة الخلاص تستوجب فكرة « المطلق » . لقد ظللت خمسين سنة تحركني فكرة المطلق والعصاب Névrose ثم رحل المطلق ، وبقيت مهام واعمال متعددة من بينها الادب الذي ليس له امتياز . في هذا السياق يجب ان تفهم الجملة التي كتبتها : « لم اعد ادري ما افعل بحياتي » . فقد اخطأ البعض في فهمها واعتبروها صيحة يأس ، مثلما اخطأوا في فهم ما كتبته سيمون دي بوفوار في مذكراتها .. والحقيقة انني لست يائسا .. بل كنت دائما متفائلا .. ومتفائلا اكثر من اللازم .

س — ... وما هو الانتاج الذي يمكن ان يكون له وزن ؟

سارتر — تلك هي مشكلة الكاتب . ماذا يعني الادب في عالم جائع ؟ ان الاخلاق ، مثل الادب ، في حاجة الى ان تكون كونية . واذن يتحتم على الكاتب أن ينضم الى صفوف الاغلبية ، الى صفوف الملايين من الجائعين ، اذا اراد أن يخاطب الكل ، وان يقراه الجميع .. والا فانه سيصبح في خدمة طبقة محظوظة ، وسيغدو ، مثلها ، مستغلا . ولكي يوجد الكاتب هذا الجمهور « الشامل » هناك وسيلتان : التخلي مؤقتا عن الادب ليسهم في تربية الشعب ، وهذا ما فعله الكتاب السوفياتيون . اذ كيف يعقل في بلاد مفتقرة الى الاطارات (افريقيا مثلا) أن يرفض مواطن تعلم في أوربا ، أن يغدو أستاذا ؟ انه اذا آثر البقاء في اوربا ليكتب الروايات فسيكون موقفه ، في نظري ، قريبا من الخيانة ... والوسيلة الثانية المتبعة في مجتمعاتنا غير الثورية هي طرح المشاكل بطرائق جذرية ومتصلبـــة .

س — ... اظن انك ستتابع كتابة سيرتك الذاتية ؟

سارتر — بدون شك .. ولكن ليس الآن ، لانني عاكف على اتمام كتاب عن فلوبير .

س — ولماذا عن « فلوبير » بالذات ؟

سارتر — لانه على النقيض مما انا عليه . اننا دائما في حاجة الى أن نحتك بما يناقضنا ... »

الرباط : محمد برادة

* Les mots - Edition Gallimard
* لوموند — 18 أبريل 1964

مِنْ نشاط وزارة الأوقاف

فوائد اصلاح الاراضي الحبسية

عن طريق الفيـر – في نظـارة وزان

توجد عند الاحباس بوزان ثروة هامة تشتمل على عدد كبير من الاراضي قد انتشرت عليها اعشاب غيـر صالحة كالسدرة والدوم ، فكونت غابات لا ينتفع منها احد ويطلق عليها لفظ (الغامر) .

ومنذ بضعة سنوات بدات وزارة الاوقاف تنهج طريقة الاستغلال بواسطة الفير كان لها احسن المفعول لا بالنسبة للاحباس فقط ، ولكن بالنسبة لكثيـر من المواطنين وقد تعتمد هذه الطريقة على ما ياتي :

تتفق النظارة مع فلاح ذي خبرة في شؤون الغرس على اساس تقليع الارض المعنية بالامر من كل ما تحتوي عليه من النباتات الغير الصالحة ثم القيام بتشجيرها حسب الشروط المنصوص عليها في العقد المبرم معه في هذا الشأن ، ومن بينها التزام المغارس بانجاز الاشغال الفلاحية المنوطة به في مدة لاتتعدى سنتين وتحمل جميع النفقات ثم الاستفادة عند نجاح المشروع المعنـي بالامر من نصف الارض الحبسية .

والجدير بالملاحظة ان الاغلبية الساحقـة مـن الفلاحين الذين اقبلوا على هذه التجربة توفقوا في هذا العمل احسن توفيق ، ولا ادل على ذلك من النتائـج المرضية التي اسفر عنها التفتيش الذي قامت به لجنة حبسية في غضون شهر ماي 1964 .

فالاراضي الحبسية التي كانت لا تصلح حتـى لرعي الغنم اصبحت بعد الجهود المبذولـة من طرف هؤلاء الفلاحين اراضي خصبة تزرع فيها الحبوب بين الاشجار فتاتي بالنتائج المرجوة حتى عم الازدهـار هؤلاء الفلاحين .

ولما تاكدت لجنة التفتيش من رفع مستواهـم المادي لم تر بدا من مطالبتهم قبول رفع ثمن الكـراء الرمزي الذي كانوا يؤدونه في اول الامر فاقتنعوا بذلك وقبلـــوه .

واذا نظرنا من الاعلى الى الفوائد التي تجنيهـا البلاد من وراء هذا الاستغلال نتوصـل الى المعلومـات الآتيــة :

لا شك ان كل ارض حبسية صلحت تصبح كفيلة لايواء عائلة مغربية ، ولتموينها وحفظها من داء البطالة والهجرة الى المدينة ، كما ان الاحباس من جهتها تزيد مدخولا جديدا ينتج عن ملكيتها لنصـف هـذه الارض التي كانت تعرف بالاسم فقط .

النتائج النهائية التي حصلت عليها وزارة الاوقاف في شان اصلاح الاراضي الحبسية بواسطة التشجير

ما زالت الوزارة تتابع نشاطها الفلاحي المتجسم في توسيع ميدان غرس الاشجار في الارضي القليـة الانتاج ، وقد تم بالفعل غـرس 75.960 شجـرة من الزيتون سنة 1964 كما يظهر ذلك في الاعمدة المرسومة فيما بعد والتي تبين بكل وضوح ما ناب كل اقليم وكل نظارة من هذا التشجير ، كما ان بعض النظارات تتميز على غيرها لاسباب عديدة من بينها : اهمية الاراضـي المحبسة وجودة التراب الخ .. هذا بالاضافـة الـى الاشجار الاخرى التي تم غرسها والمشتملة على الانواع الآتيــة :

اولا : **الكليبتوس** : قد انحصر غرس هـذا النوع من الاشجار هذه السنة في ناحيتين : آسفي والجديدة حيث يقدر عدد الاشجار ب : 75.151 .

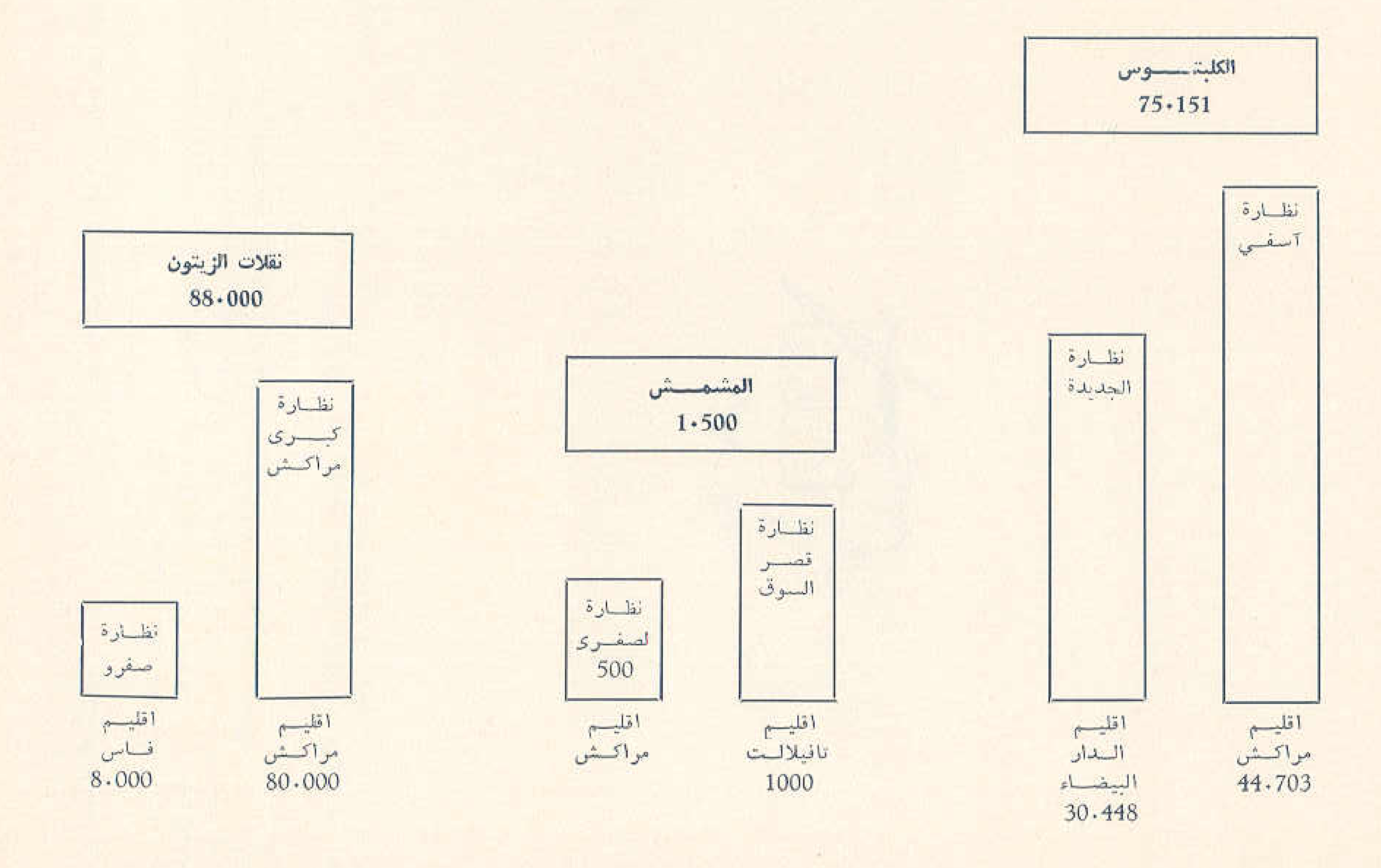
ثانيا : **البرتقال** : تم الاكتفاء بغرس 2.230 شجرة في كل من مكناس ووزان .

ثالثا : **المشمش** : غـرس ما يقـدر ب : 1.500 شجرة في كل من مراكش وتافيلالت .

جدول يبين عملية توزيع التشجير
الذي قامت به الوزارة حسب
الاقاليم خلال سنة 1964

الزيتون
75.960

اقليم	النظارات
اقليم فاس 36.000	نظارة صفرو 3.000 / نظارة الاحواز 13.000 / نظارة 20.000 لقرويين
اقليم الرباط 11.500	نظارة وزان
اقليم مكناس 10.000	نظارة مكناس 3.000 / نظارة زرهون 7.000
اقليم بني ملال 8.000	نظارة بني ملال
اقليم تازة 5.000	
اقليم ورزازات 2.000	نظارة ورزازات
اقليم تطوان 1.660	نظارة العرائش
اقليم تافيلالت 1.000	قصر السوق
اقليم اكدير 800	تارودانت


الكلبتوس
75.151
نظارة آسفي
اقليم مراكش
44.703
نظارة الجديدة
اقليم الدار البيضاء
30.448
المشمش
1.500
نظارة قصر السوق
اقليم تافيلالت
1000
نظارة لصفرى
500
اقليم مراكش
نقلات الزيتون
88.000
نظارة كبرى مراكش
اقليم مراكش
80.000
نظارة صفرو
اقليم فاس
8.000

في الميـدان الدينـي

* قام وزير عموم الاوقـاف المكلـف بالشؤون الاسلامية برحلة الى مدينة الدار البيضاء حيث تفقـد عددا من المنشآت الحبسية واطلـع على سيـر أعمال النظارة ، وزود الموظفيـن التابعيـن لهـذه النظـارة بتعليماتـه .

* قام وزير عمـوم الاوقاف المكلـف بالشؤون الاسلامية بتدشين مسجد بمدينة العرائش ، اطلق عليه مسجد الحسن الثاني ، وقد القى معاليه بهذه المناسبة كلمة امام ممثلي السلطة المحلية وجمهور من المواطنين .

* قام وزير عمـوم الاوقاف المكلـف بالشؤون الاسلامية بتدشين مدرسة بدار زهيرو بناحية طنجة لتكوين قراء لكتاب الله بمختلف الروايات وستحمـل هذه المدرسة اسم مدرسة ولي العهد الامير سيـدي محمد بن الحسن .

نظـارة



الأنباء الثقافية

* عثر اخيرا فى المكتبة الملكية المغربية على مخطوطة فريدة للشاعر ابي العلاء المعري بعنوان « الصاهل والساجح » . وستصدر قريبا عن المطبعة الملكية . ومما تجدر الاشارة اليه ان هذا المخطوط لأبي العلاء المعري لم يسبق نشره من قبل .

* زار السيد خلدون كيناني رئيس قسم الدول العربية بمكتب العلاقات مع البلدان الاعضاء فى منظمة اليونيسكو الرباط ، واجرى اتصالات مع المسؤولين فى وزارة التهذيب الوطني حول العلاقات بين المغرب واليونيسكو . ومكث السيد كيناني فى المغرب زهاء اسبوع استعرض خلاله مع وزارة التعليم القضايا التي يثيرها تطبيق مختلف المشاريع المحررة فيما بين المغرب وبعض المؤسسات الدولية .

* بلغ عدد المخطوطات التي تم تسجيلها فى مكتبة القصر الملكي 6000 مخطوط .

* سيصدر قريبا كتاب « تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط وهو القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام » للوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب . قام بتحقيقه الاستاذان ابراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط والدكتور العبادي

* صدر عن المركز الجامعي للبحث العلمي كتاب « جغرافية المدن المغربية » للاستاذ حسان عوض ، استاذ الجغرافيا فى كلية الآداب بالرباط .

* صدر عن المركز الجامعي البحث العلمي كتابان «الاكسير» و «أنس الفقير» قام بتحقيقهما واخراجهما الاستاذ محمد الفاسي ، رئيس الجامعة المغربية .

* صدر للدكتور زكي محاسني احد كتاب مجلتنا كتاب بعنوان « شعر الحرب فى أدب العرب » وفى الكتاب الذي صدر للعقاد قبل وفاته « أشتات متجمعات » حديث عن الكتاب المشار اليه .

* صدر عن منشورات المكتبة العصرية للطبع والنشر كتاب التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ، وهو عبارة عن عرض مجهود المبشرين الرامية الى اخضاع الشرق للاستعمار الغربي ، قام بتاليف الكتاب الاستاذان الدكتور مصطفى خالد ، والدكتور عمر فروخ

* تم الاعلان فى القاهرة عن مسابقة فكرية باسم « عباس محمود العقاد » تقدم كل سنة وتوزع على الكاتب الفائز من مختلف الاقطار العربية .

* يشتغل الاستاذ الناصر الفاسي مدير المركز الجامعي للبحث العلمي فى اخراج وتحقيق ديوان «ابن ادريس» . كما يشتغل بمخطوطة «رحلة الصفار» . وكلاهما سيصدر عن المركز الجامعي للبحث العلمي .

* اجتمعت اخيرا بفرع المركز الجامعي للبحث العلمي بفاس لجنة البحوث والتراث المغربي حول ما قامت به هذه اللجنة من دراسة المخطوطات التي كلفت بتحقيقها من لدن المركز الجامعي للبحث العلمي وبراس هذه اللجنة الاستاذ محمد الفاسي رئيس الجامعة المغربية ، وتتكون من الاساتذة : الناصر الفاسي ، العابد الفاسي ، ابراهيم الكتاني ، محمد المنوني ، محمد الصباغ ، الحاج احمد شقرون ، محمد بن تاويت ، الطاهر الفاسي .

* « ازهار الالم » لبودلير قام بترجمته الاستاذ مصطفى القصري مدير مدرسة البريد ، وسيصدر قريبا عن دار الكتاب بالدار البيضاء .

* احتفل اتحاد كتاب المغرب العربي بذكرى ميلاد شكسبير بمساهمة كلية الآداب وذلك فى مهرجان ثقافي كبير .

* يصدر للشاعر محمد الهواري ديوان « صامدون»

* قدم الاستاذ الموساوي زروق موضوع رسالته الادبية عن شاعر الحمراء محمد بن ابراهيم .

※ شارك المغرب فى المهرجان الدولي الذي اقيم اخيرا بمدينة كان .

※ اصدرت مكتبة المنار فى تونس كتاب « ابو الحسن الحصري القيرواني » تأليف محمد المرزوقي والجلاني بن الحاج يحيى . ويقع في 564 صفحة من الحجم الكبير

※ نظم نادي ابو القاسم الشابي فى تونس ندوة ادبية حول دور المثقف فى المجتمع المتخلف . اشترك فيها : محمود المسعدي ، واحمد بن صالح ، ومحمد مزالي ، واحمد عبد السلام ، وفاضل الجمالي ، والشاذلي القيتروي ، والمنجي الشملي .

※ اصدرت كتابة الدولة للثقافة والارشاد فى تونس الحلقة الخامسة من العكاظيات جمعت فيها كل الشعر الذي قيل فى معركة بنزرت .

※ انور الجندي يصدر له في الشهر الجاري كتابان « معالم الادب العربي المعاصر » عن دار النشر للجامعيين ببيروت و « احمد زكي باشا » في سلسلة اعلام العرب بالقاهرة .

※ في الشهر الماضي صادفت الذكرى الاولى لوفاة فقيد الشعر والادب والفن الدكتور بشر فارس .

※ مسابقة جديدة وافقت على انشائها شعبة الآداب في مجلس الفنون بالقاهرة ، تسمى مسابقة « الكتاب الوصفي » يشترك فيها اعضاء البعثات الثقافية في الخارج ، وتمنح جائزتها لاحسن كتاب عن القطر الذي اعير اليه العضو .

※ تألفت فى المجمع اللغوي المصري لجنة برئاسة الدكتور طه حسين لوضع معجم عربي لمصطلحات العلوم الاجتماعية ، وهو المعجم الذي أوصت هيئة اليونسكو بان يضعه المجمع وتضع هي تكاليفه ونشره . تضم اللجنة : الدكاترة احمد بدوي ، ابراهيم مذكور ، علي بدوي ، محمد خلف الله ، احمد ، محمد عوض محمد .

※ نعي احمد بدوي مدير جامعة القاهرة الى هيئات الدراسات المصرية القديمة استاذه وصديقه العالم المحقق هرمان كيس الاستاذ بجامعة جوتنجن .

※ زكي المهندس ، انتخبه اعضاء المجمع اللغوي المصري فى القاهرة نائبا لرئيسه الدكتور طه حسين باجماع الاصوات .

※ يصدر الدكتور عبد الرحمن بدوي ترجمة لثلاثة من مسرحيات لوركا ، هي « عرس الدم » و « يرما » و « الاسكافية العجيبة » . كتب الدكتور بدوي مقدمة طويلة عن « لوركا » ومسرحه . هذه المسرحيات هي الجزء الاول من مسرح « لوركا » الذي يزمع المترجم مواصلة اصداره .

※ رشحت لجنة التاريخ والآثار فى مجلس رعاية الفنون فى القاهرة المؤرخ عبد الرحمن الرافعي ، لنيل جائز نوبل للسلام ، التي ستوزع جوائزها لهذا العام فى 10 ديسمبر المقبل .

※ تقرر ان تنشر فى « الالف كتاب » بالقاهرة رواية « حد الموسى » لسومرست موم .

※ كتاب عنوانه « ابو هريرة راوية الاسلام » ظهر اخيرا من تاليف السيد محمد حجاج الخطيب .

※ ظهرت الترجمة العربية لكتاب المستشرق الروسي كراتشوسكر بعنوان « تاريخ الادب الجغرافي العربي ».

※ ترجم الدكتور عثمان امين كتاب « مستقبل الانسانية » للفيلسوف كارل باسبرز .

※ ظهر للاديبة السورية السيدة منور قوال مجموعة من الاقاصيص عنوانها « غدا نلتقي » .

※ ترجم الاستاذ قدري قلعجي كتاب « اكتشاف جزيرة العرب » عن جاكلين بيرين .

※ « عايدة العزب موسى » المشرفة على مجلة اتحاد العمال العرب بالقاهرة تعد رسالة عن تطور الحركة العمالية فى افريقيا . اسم الرسالة دراسة تطبيقية في غانا .

※ فى سلسلة التراث الشعبي فى وادي الفرات اصدر المحامي عبد القادر عياش كتابا عنوانه « كتابات من الفرات » . صدر فى دير الزور .

❊ « النفق والارقام » مجموعة قصص لاسكندر لوقا تقديم اورخان ميسر صدرت بدمشق .

❊ « نقاط على الحروف » عنوان كتاب جديد في النقد صدر للسيدة وداد سكاكيني .

❊ « في بلاد الدماء الحارة » هو الكتاب الجديد الذي صدر للكاتبة جاذبية صدقي ، والكتاب يحتوي انطباعاتها باسبانيا .

❊ الشاعر العوضي الوكيل انتهى من طبع ديوان جديد عنوانه « فراشات ونور » يحتوي على 100 قصيدة تتكلم عن الطبيعة والحب والحياة . مقدمة الكتاب اربعة ابيات من الشعر .

❊ اعلنت جمعية اصدقاء الكتاب عن جوائزها التي ستمنحها عن 1964 . وقد لوحظ اختفاء جائزتي القصة القصيرة والرواية . . . اما الجوائز الاخرى فقد خصصت لافضل دراسة علمية في الفنون الشعبية اللبنانية ، ولافضل دراسة تعالج جانبا من التاريخ العربي او الحضارة العربية ، ولافضل تحقيق علمي لاثر من التراث العربي ، ولافضل دراسة عن تنظيم المدن ، وجائزة صيدا وخاصة في العصر العربي ، ولافضل دراسة عن قضية فلسطين ، ولافضل مجموعة شعرية ، وافضل بحث علمي ، والكتاب متميز في موضوعه ، الى جانب الجائزة التقديرية التي تمنح باسم رئيس الجمهورية .

❊« الظما والينبوع » قصة مطولة للروائي السوري فاضل السباعي صدرت حديثا ببيروت .

❊ جمع يوسف غصون قصائده الاخيرة في ديوان يصدر قريبا في بيروت . وستصدر مجموعة شعرية اخرى باللغة الفرنسية لهكتور خلاط تضم منظومة في الحقبة الاخيرة .

❊ ظهرت ترجمة كتاب الفيلسوف جون ديوي بعنوان « الفن خبرة » والترجمة بقلم الدكتور زكريا ابراهيم . وقد راجعه وقدم له الدكتور زكي نجيب محمود .

❊ انتهى امين نخلة من اعداد ديوانه الثالث « ليالي الرقمتين » بعد « دفتر الغزل » و « الديوان الجديد » وسيصدر قريبا عن دار مكتبة الحياة ببيروت . وقد مهد له ببحث في جمالية الشعر ، وتذوقه وتفهمه ، هو من اجود ما كتبه في النثر .

❊ تصدر قريبا طبعة جديدة لديوان ايليا ابو ماضي « تبر وتراب » .

❊ صدرت في بيروت رواية حاتم خوري الجديدة « شارع الضباب » وهي روايته الرابعة بعد « ليالي حائرة » و « تائهة في الشارع » و « ليالي ايفانوف » . وهنالك اتصالات تجري لاخراج « شارع الضباب » في فيلم سينمائي .

❊ اصدرت دار الكتاب اللبناني مخطوط « تاريخ فتح افريقيا والاندلس » للمؤرخ عربي عبد الحكيم وقد حققه وقدم له الدكتور عبد الله الطباع .

❊ تصدر عن المطبعة الكاثوليكية في بيروت « الموسوعة العلمية » في جزئين لواضعها المهندس ادوار غالب . ويتضمن الجزءان دراسات دقيقة عن مختلف العلوم خاصة عن علمي النبات والحيوان . وهما مصوران وقد كتبت الاسماء العلمية باللغات العربية واللاتينية واليونانية والفرنسية والانكليزية .

وقد امضى المهندس غالب 10 سنوات في اعداد هذه الموسوعة الفريدة .

❊ منحت جائزة سعيد عقل الشهرية وقدرها الف ليرة لبنانية للكاتب اميل خوري حرب على مؤلفه « التراث اللبناني العظيم » .

❊ « دراسات في الواقع المصري المعاصر » هو عنوان الكتاب الذي سيصدر عن دار الطليعة في بيروت للطفي الخولي رئيس تحرير صفحة الراي في الاهرام .

❊ اصدر فؤاد الخوري نقيب المحامين ووزير العدل اللبناني سابقا مذكراته السياسية والقضائية في كتاب اسماه « سوانح خمسين » قدم له وزير الخارجية فيلب تقلا . والكتاب حافل بالملاحظات وبالاحداث ولا يخلو من الملح والطرائف وهو يعتبر بمثابة تاريخ لفترة نصف قرن من الحياة اللبنانية في السياسية والحقوق والادب والوطنية .

❊ وجهت الدعوة الى جان بول سارتر وفرنسواز ساغان لزيارة لبنان .

❊ يشرف توفيق يوسف عواد على طبع مسرحيته « السائح والترجمان » التي كتبها بعد انقطاع عن التاليف دام 20 عاما ، وهي المسرحية التي نالت جائزة اصدقاء الكتاب في لبنان السنة الماضية .

❊ تركت الاديبة الشابة الفقيدة منى جبور قصة تصور جانبا من حياة جيلنا القلق ، وهي جاهزة للطبع وكان قد صدر لها منذ عام قصة اسمها « فتاة تافهة »

❊ انتهى زكرياء يوسف الاستاذ بكلية البنات العراقية سابقا من تحقيق كتاب « الكافي في الموسيقى » لابي منصور الحسين بن زيلة المتوفى سنة 440 هـ . وهو تلميذ الفيلسوف العربي ابن سينا زكريا يوسف حقق الكتاب عن نسخة وحيدة معروفة في العالم وموجودة في المتحف البريطاني بلندن .

❊ « انفاس السحر » ديوان جديد صدر في بغداد للدكتورة عاتكة الخزرجي كماصدرت لها مسرحيةشعرية ذات خمسة فصول عنوانها « مجنون ليلى » .

❊ الدكتور جواد علي انهى المجلد التاسع من كتابه القيم « تاريخ العرب قبل الاسلام » وسيصدر قريبا في بغداد .

❊ قريبا يصدر في بغداد كتاب « رسوم دار الخلافة» لابي هلال الصابي تحقيق ميخائل عواد .

❊ تقوم مكتبة المتنبي في بغداد بنشر كتاب «المؤتلف والمختلف من الاسماء » للازدي . وكتاب « لطف التدبير » للخطيب الاسكافي بتحقيق احمد عبد الباقي.

❊ صدر العدد الاخير من مجلة « رسالة المعلم » التي تصدرها وزارة التربية الاردنية في عمان . وقد ساهم في تحريره : الدكتور فاخر عاقل ، الدكتور عبد العزيز القوصي ، راضي عبد الهادي ، الدكتور عبد الرحمن عدس ، فايز علي الفول ، لطيفة ابو ليلى ، عدنان أبو غزالة قسطندي نقولا ، امين فارس ملحس ندى عبد الهادي ، الدكتور عبد الرحمن ياغي ، الدكتور عيسى المصور ، بثينة جردانة ، محمود الاخرس ، محمد سليم رشدان ، الدكتور عبد الرحيم بدر ، محمود سيف الدين الايراني ، عبد الهادي كامل وعيسى الناعوري .

❊ اتخذ المجلس الاعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب بالسعودية قرارات هامة تهدف الى تشجيع حركة التاليف والترجمة في مختلف النواحي الاسلامية والادبية والعلمية والاجتماعية وفي تقديم جوائز مالية لاحسن المؤلفات تخصص لعدة فروع في العلوم والآداب ومساعدات مالية لتشجيع الدراسات التي تتناول المملكة من نواحيها التامة تمنح لاصحاب البحوث المطبوعة او للطبع او أن يرى المجلس تكليفه بوضع بحث معين او لترجمة كتب اجنبية هامة وخاصة ما يتناول منها شؤون المملكة ويرى المجلس اهمية نشره . كما اتخذ المجلس قرارات تهدف الى احياء التراث الفكري للمملكة في نشر المخطوطات ذات القيمة العلمية والتي توجد داخل البلاد وفي خارجها ولتسهيل تبادلها مع المكتبات في الاقطار المختلفة . كذلك في اقامة محاضرات ومراسم ادبية وشعرية لرعايتها وتخصيص جوائز تكفل نجاح هذا الموسم ولاقامة مواسم خاصة حول احياء « سوق عكاظ » .

❊ جامعة سيدني في استراليا افتتح فيها قسم للدراسات العربية .

❊ ظهر اخيرا كتاب عن موليير ، القى ضوءا جديدا على حياة هذا الكاتب وعلى اسرته ، وفرقته التمثيلية لما يتضمنه من وثائق لم يسبق نشرها من قبل .

❊ منحت الاكاديمية الفرنسية «جائزة اللغة الفرنسية» الكبرى للشاعر اللبناني هكتور خلاط تقديرا لمؤلفاته.

❊ منح لقب « بطل الآداب والعلوم » الذي انشأه في السنة الماضية وزير التعليم الفرنسي الى ثلاثة شخصيات ادبية لبنانية هم : الامير شهاب مدير مصلحة الآثار في لبنان ، والدكتور جميل جبر مدير مجلة « الحكمة » ، والروائي فرج الله حايك .

❊ منحت جائزة ريتية لابورت الشعرية للشاعر اللبناني فؤاد غبريال نفاع عن ديوانه « الانسان والاطار والقيثارة » الذي صدر مؤخرا بباريس .

❊ نشرت مجلة الآداب الاجنبية الصادرة بموسكو كتابات لفرنز كافكا منتخبة من روايته « المسخ » . وهذه هي اول مرة ينشر فيها ادب كافكا مترجما الى الروسية . ويعتبر النقاد هذا التحول نتيجة للاتجاه التحرري الذي بدا يظهر في روسيا .

❊ اصدرت وزارة البريد السوفيتي طابعا خاصا يحمل صورة شكسبير بمناسبة ذكرى ميلاده الاربعمائة

❊ فاز الفنان المصري محمد صبري بجائزة اسبانيا الاولى الذهبية من بين 640 فنانا وفنانة من المصورين الاسبان و 45 فنانا وفنانة من العالم درسوا التصوير في اسبانيا .

❊ اعلنت وكالة انباء كيودو اليابانية أن المسؤولين في اذاعات 62 دولة تعهدوا بتخليص العالم من الامية ، وذلك عند افتتاح المؤتمر الدولي الثاني للصوت ، لمدارس التلفزيون للمؤسسات الاذاعية في طوكيو .

❊ ستحتفل مدينة مونيخ في هذا العام بذكرى مرور مائة سنة على ميلاد موسيقاها شتراوس .

محمد الصباغ

فهرس العدد الثامن والتاسع - السنة السابعة

صفحة

دراسات اسلامية :

ابحاث ومقالات :

ديوان دعوة الحق :

قصة العدد :

معرض الكتب :

مناقشات :

فهرس العدد الثامن والتاسع - السنة السابعة

صفحة